الطوّاب الأكبر

رواية

عبد السلام إبراهيم

عبد السلام إبراهيم: الطوَّاب الأكبر (رواية)

الحضارة للنشر

7 شارع أبو السعود – الدقى 12311 – القاهرة

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 37 61 94 39
Mobile: (20-122) 316 48 67

www.alhadara.com

الطبعة الأولى: مايو 2014

رقم الإيداع بدار الكتب 9365 /2014
ISBN 978-977-476-200-0

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهـــداء

إلى عالمى الكبير جدا

روح أبى وأمى...

زوجتى،

وأبنائى الثلاثة

نهى وابتهال وأحمد

1

لم يَكُفّ الجبلُ عن فحيحِ السخونةِ المكتنزةِ فى بطنِه...

سيد الطواب فى تيه البر الغربي يبحث عن نبوءةٍ أخرى!

ظَل سيد الطواب أسبوعا فى وادي الصرخة التي نودي بها، ينام تحت ظلال أعمدة معبد الدير البحري، يتقلبُ متوجعا كلما نَتَف الظلُّ رداءَه مِن فوقه حتى انطفاء الشمسِ خلف الجبل الغربي، فيقوم مِن مقامه باحثا ومنتظرا سماعَ الصرخةِ التي ربما تنطلق مِن المصدر نفسِه مرة أخرى، أو تتدحرج مِن فوق الصخور ليذرفَ عليها دموعَه المتحجرة.

ظَل يجول ويفكر، وبحسٍ جَبلي متوارثٍ بُلِّغ الرسالةَ وهَرول ليؤدي فروضَها، لم ينتظر طويلا حتى كان يحفر بجوار معبد الدير البحرى، ناحيةَ جنوبِ المعبد الذى يتكئ عليه الجبلُ مِن الخلف، فكانت قواه تخور وتتضاءل، الشمسُ تَستخرج عرقَه مِن جلده فيجف ريقه.

فى إحدى المرات استقر الفأسُ فى ساقه، فتفجَّر الدم الأسودُ منها، ربطها بشاله الأسود. كان الفأس يُصدِر صوتا احتكاكيا عاليا، لذا فقدْ نَقَل زمنَ الحفر إلى الليل، ساعتَها لانت له الصخور وأذعنتْ لطعنات فأسه، كأنها تكتسب صلابتَها من الشمس، فُتِحت فوهةُ المقبرة فباغتته الرائحةُ القديمة المعبّأة منذ

آلاف السنين، فأُلقي عليه رداءُ أهلِ الكهف فنام خارجَه حتى الفَجر.

حينما أرسلت الشمسُ أشعتَها الذهبيةَ لكى تتلصص عليه، استيقظ ورأى الكهفَ أمامه. تقهقر للوراء زاحفا على ظهْره. ألجمته المفاجأة ففغَر فاه. اتكأ على كوعه الأيسر، توالت أمامه سريعا صورُ الثراء واللهو مع نساء مصرَ وشراءُ أراضى القرنة كلها. وقَف محدِّقا أمام الظلام المكدس فى المقبرة.

الفوهةُ التى تعج بالظلام القديم تموء له بصوت خفيض.

تقدَّمَ للأمام نحو الفوهة التى كانت بالليل تحجب بظلامها القديم قلبَها وأحشاءَها، لكن الظلام تلاشى حينما تسللت أشعة الشمس وهي مازالت خائفةً من الدخول للفوهة الموصدة منذ آلاف السنين. نَزل على السلالم الحجرية. أدهشته الرسومُ المحفورة على جانبَي المقبرة، والنقوشُ الملونة التى تزخر بها الجدران، مَشى ببطءٍ شديد والنورُ يصارِع فى الدخول معه، فينسلخ منه ظِله، ويسبقه فى الاستلقاء على الجدران مشوقا، تناديه اللهفة، يمر مِن خلال الدهليز الذى ينحدر انحدارا شديدا إلى أسفل ممر آخر. توقَّف ثم تَقهقر مرة أخرى دون أن يلف بجسده، كأنما يعاين النقوشَ الهيروغليفية. تَقَدَّم للأمام حتى انتهى مِن عبور الممرَ الآخر الضيق الذى يُفضي إلى حجرة وردهة. أسْلَم نفسَه للردهة التى يتوسطها سلم، وأنابيب الخوف تسحب مخزونَ العرق لتلقيه خارج جسده، فيمتزج بملحٍ ورمل ترسب على جلده ليكون درعا

واقيا له. هبط متشبثا بالجدران المشبَّعة بالرطوبة والرائحة التى تعبق المكان، تثاقل الضوء الداخل إلى المقبرة، أو تراجع خوفا من المجهول. واجَه ظلاما فولاذيا لا يفله إلا دخول الشمس بنفسها. عقد العزمَ على الخروج وروحُه تنسحب منه رويدا، حتى يعود بشعلة.

لكنه قبل أن يخرج وقَع فى البئر السحيقة!

***

"لقد أشرفتُ على حفر المقبرة الصخرية لجلالته بمفردى، لا أحد رأى ولا أحد سمع."

– تلك هى كلمات المهندس أنينى مهندس المقابر الملكية، لقد نقشها على لوحة صخرية بعد أن فرغ مِن حفْر مقبرة تحتمس الأول، أولِ ملوك الدولة الحديثة. عُثِر على ذلك النص منقوشا على لوحته الخالدة فى مقبرة حتشبسوت ...

توقَّفَ الدكتور عبد الحكيم هاشم عن الكلام وأطرق قليلا أثناء إلقاء محاضرته، التى يلقيها على طلاب الفرقة الثانية فى المعهد الإقليمى العالى لترميم الآثار بالأقصر، ثم نزل مِن فوق المنصة وأعينُ الطلابِ تتابعه، سارَ بين الصفوف صامتا، كأنه يستحضر فى رأسه مشهدا جديدا، فى الوقت نفسِه يطرد مشاهدَ كثيرةً

اقتحمت ذاكرتَه. بانت هذه الصورة المطردة والمتتالية التى تصاحب الألوان المائية بوضوح على وجهه الذى يترجم اختلاجاتِه، فمرةً تتسع صفحته فتخرج منه ابتسامة عريضة، تتوالى على صفحاتها مراتُ الفرحِ القليلة التى عاشها فى حياته، بدءا من طفولة غريبة الملامح، ركلتها نكسة يونيو، ومرورا بفترات شباب شهدت نزاعاتٍ وانكسارات، ومرةً أخرى تتضاءل نسبةُ الابتسام لدرجة قصوى، فتتعلق الابتسامة فى عينيه، وربما تختبئ داخل المقلتين فقط، تؤكد بشكل قاطع بأن ذلك الوجهَ تكسرت عليه أحزانٌ تم تخزينها وتحميلها منذ سنوات طويلة فى الهالات السوداء الموجودة أسفلَ عينيه، وكأنها شريحة الكترونية ممغنطة.

ربما كان يوم ميلاده يفوق حدثا أكبر تم فى ذلك العام، بل فى الأسبوع نفسه، وهو تأميم قناة السويس، حتى قيل ساعتَها إن صرختَه جللت البيتَ وتَردَّد صداها شهورا، ولِمَ لا؟ فهو مولود جاء فى عصر جديد، تخلع فيه مصر الرداءَ الأسود الذى خلَّفَه الاستعمار، وتتخذ فيه قرارات سيادية مثل تأميم قناة السويس. هكذا قال العمدة للفلاحين الذين تجمعوا مقرفصين لسماع خطاب عبد الناصر فى الراديو الوحيد فى القرية. لكن أباه، على الرغم مِن فرحته كالكثيرين بالتأميم، اعتبر أن ميلادَه ليس أهم من تأميم القناة فحسب، بل أهم من الثورة نفسها؛ لأنه جاء بعد سبع سنوات من البوار. لم يَرضخْ هاشم لنداءات إخوته بأن يتزوج مِن أخرى

حتى يُرزق بالولد، بل قاطَعَهم جميعا. لمَّا جاء عبد الحكيم فاقت فرحته كل الحدود، فأعاد سيف القطيعةِ لغمده، لكن أُمّه احتفظتْ فى قلبها برواسبِ الكراهية تجاههم، تستخرجها من أعماقها، وتعيد بَثَّها لمن حولها فى كل وقت وحين، انتقلت لابنها شيئا فشيئا حتى شب على مُقت لا تفتته محاولات البعض منهم للتقرب إليه بسبب النكبات التى تعرضوا لها. خصوصا ابن عمِّه جمال (يكبره بعام واحد) الذى كان سببا غير مباشر بعدم تسميته بالزعيم جمال عبد الناصر، مما جعل أبوه يختار زعيما آخرَ لا تقل أهميته عنه، وهو عبد الحكيم عامر. المدهِش أن أباه كان يتمنى فى قرارة نفسه أن يتولى عبد الحكيم عامر سُدَّةَ الحُكم حتى تأتي أهمية ابنِه مِن أهمية الرجل الثاني فى الثورة.

ظلت التعبيرات والاختلاجات تتراقص على خديه وجبينه حتى سكن وجهه عن التلاحم العضوى، عادت الابتسامة تتسرب لوجهه ببطء شديد، فانفرجت المساحات المنكمشة شيئا فشيئا، إلا أن الضجرَ المتولد فى تلك اللحظة، الذى لم يخرج من جوفه، بات كامنا فى داخله، وامتزج بكلماته التى خرجت جافةً فكادت تجرح حنجرتَه:

– بعد أن جلستْ حتشبسوت على العرش، نقلتْ مومياءَ أبيها تحتمس الأول من مقبرته إلى مقبرتها التى بناها لها المهندس أنينى، حتى تكون بمأمن من لصوص المقابر، الذين نبشوا

حجراتِ الدفن المبنية فى مكان حصين ومنيع داخل أهرامات الدولة القديمة.

عاد الدكتور عبد الحكيم هاشم إلى المنصة لاهثا، فخطف كوبَ الماء الذى بدأت تتكون بداخله بلورات مائية على السطح، تعكس كراتِ الضيق التى راحت تتدحرج من جوفه، فاهتزت يدُه هزة ضئيلة جدا لا تُرى بالعين المجردة، على الرغم من أنها كانت تعادل ست درجات من مقياس ريختر، ارتشف رشفة فارتوى قليلا ثم استطرد قائلا:

– لكن الهرم كان ملفِتا للأنظار، ودليلا ماديا وملموسا على وجود القبر الملكى، لم يحقق الغرضَ الذى شُيِد من أجله، ألا وهو حماية جثمان الملك حتى تعود الروحُ إليه، فيُبعث مِن جديد، لكى يقوم على إدارة الذخائر والنفائس التى تُدفن معه بعد البعث، من أجل ذلك استفاد ملوك الدولة الوسطى من أخطاء الملوك السابقين، فبحثوا قضية أمان هذه المقابر، جمَع الكهنةُ كلَّ المهندسين المتخصصين فى هذا المجال الذين عيَّنهم الفرعونُ بنفسه لهذه المهمة، ثم كوَّنوا لجنة باسم "اللجنة الفنية للانشاءات الملكية" تتبع التاجَ الملكى، لها مخصصات مالية كبيرة. عَرض هؤلاء المهندسون أفكارَهم ورؤاهم على كبير الكهنة، وتوصلوا إلى فكرة تعقيد الممرات الداخلية المؤدية إلى حجرة الدفن داخل الهرم. لكن تلك الحيلة لم تُعجِز اللصوصَ الذين نقَّبوا ونبشوا الأثاثَ الجنائزى، فلم يكن جثمان الملك بمنأى عنهم. لذلك فقد نجح

ملوك الدولة الحديثة من خلال هؤلاء المهندسين فى نحت مقابرهم فى بطن الجبل، ونسجوا خيوطا من السرية حول عملية النحت. أمَّا موضوع الدفن فكانت تسبقه مراسم المعبد. يتجه الموكب الجنائزى الرمزى إلى البر الغربى على مرأى ومسمَع من الجميع. فى الوقت نفسه يعكف الأطباء على معالجة الجثمان بمواد الخلود كما كانوا يسمونها، بعد أيام يذهب الكهنة للمقابر الملكية وهُم يرتدون غطاءَ الظلام فى سرية تامة لدفن الملك.

هكذا تُحفظ أجسادُ الملوك من النهب، وحتى لا تتوه الأرواحُ أو تظل هائمة – بسبب تأخُّر الدفن– باحثةً عن جسدها، عندما يُدفن تَلِج إليه ليُبعث من جديد مُخلدا ...

ظلت قضية الموت تشغل عبد الحكيم منذ صغره، عندما رأى بعينيه جثمانَ أبيه وهو ينزلق من فوهة القبر، شَعَر بأنه يزحف خلفه وسط الغبار المتصاعد من الداخل دون أن يشعر به المشيعون. كان يظن أن البكاءَ سوف يَبعث فى أبيه الحياةَ فيمزق الكفنَ ويخرج لابنه ليخلد فى الدنيا. سُدت فوهة القبر ولم يخرج أبوه. "تُرى هل أجاب أبي على أسئلة الملَكَيْن الجبرية؟ هل رأى مقعدَه من الجنة؟ أَم تَلجلج وتعلق لسانُه بحلْقه ولم يُجِب؟ ماذا فعَل به الملكان وهو أعزل ملفوف فى الكفن؟" هذه التساؤلات لم يصل إلى إجابة محددة عليها حتى هذا اليوم، تشبَّع بها كيانُه وخزَّنها عقله فى الهالات الممغنطة الراكدة أسفلَ عينيه.

– المقابر الملكية فى وادي الملوك هو موضوع المحاضرة القادمة.

هكذا قال مؤكدا فى نهاية محاضرته، بعد أن أعطى عنها نبذة مختصرة.. نبتت الابتسامة من جديد، وأورَّقت فى التو على وجهه، وهو يغادر القاعةَ بعد أن تكدس حديثه فى فضائها. قبْلَ أن يَفتح البابَ مغادرا، ذكَّرهم بأسماء المراجع والكتب التى يجب أن يطّلعوا عليها استعدادا للمحاضرة القادمة.

2

قال الأسلاف إن أصلَ الطواب سودانى، وإن جَدَّه كان تاجرا يبيع لحومَ الجِمال للحملة الفرنسية بعد دخولها مصر، يسوق قطعانَ الجِمال من السودان إلى جنوب مصر والدلتا، استقر به المطاف فى نهاية حياته فى البر الغربى. يقول آخرون إن هذا التاجر أفلَس تماما بعد أن رفض المتعهدون سدادَ قيمة الجِمال الأخيرة التى ورَّدها لإدارة التعيين بالحملة، فارتكن إلى البر الغربي حتى مات بعد أن أنجب ابنيْن أحدهما مات بالطاعون والآخر مات غريقا قبل أن ينجب الطواب بعام واحد.

لكن أكَّدَ، الذين يستشهدون بعدة مصادر، أن أصل الطواب يعود إلى عصر المماليك. خصوصا المماليك الذين فرّوا مع مراد بك إلى الصعيد، فعملوا فى كل المهن الدنيا حتى يكونوا بمأمن من

أعين الجنرال ديزيه الذى أرسله نابليون بونابرت إلى الصعيد لتعقبهم لفترة من الزمن. عَملَ البعضُ منهم فى صناعة الطوب، عمل آخرون فى قص شعْرِ الحمير، وآخرون فى طحن القمح. يُقال فى الموالد والمواويل إن جَدَّ الطوابِ كان سقّا يقوم بتوصيل الماء للمنازل "بالجربة".

كان بنيانه قويا، عريض المنكبين، لونه أسود كسواد أحجار الجبل، ذو شارب كثيف، يلف حول رأسه شاشا أبيضَ، يضفِّره بشاش آخر، يُبقي منه طرفا يرفرف كلما مشى، فأصبح علامةً ظاهرة، تبعث الخوفَ فيمن يراه مِن بعيد. يمسك فى يده "شوبة" ضخمة، يدُكُّ بها الأرضَ فيسمَعُها ساكنو الوادي فيطمئنون به، فى الوقت نفسه يخافون مِن بطشه. أمَّا عن استخدامه لها، فهو لا يتوانى فى أن يضرب بها خصرَ أو كتفَ كلِّ مَن عصى أمرَه، أو رأى فى عينيه كذبا!

كان الطواب رجلا ذا هيبةٍ ومهابة، ورأيٍ نافذٍ فى كل ما يخص أهلَ الوادي. الخلافات والنزاعات التى تخص الأراضى بيع البيوت تؤول إليه ليحسمها.

الحفاوةُ التى كان يجدها الطواب فى حديث الناس، جعلته يحظى بمكانة اجتماعية كبيرة، فكان يأخذ ناصيةَ الحديث وبيده اتخاذ القرار. لم يكن يسمح لأحد بنبش أسرار وادي الملوك والملكات، فأسرارُ المقابرِ كانت ملفوفة فى لفائف بردى وألواح جرانيتية، تُوحى إليه فى الوادي المقدس وهو متدثر بالظلام. أمَّا عن أسراره

الزوجية كانت مباحة، فكان كلامه عن فحولته المتجددة أمرا مستباحا. "أسرار الموتى تخبئها القبور، وأسرار الزواج تفشيها الأفواه" هكذا كان يردد ضاحكا. كلما يسرد التفاصيلَ تنتابه رغبة ونشوةٌ عارمة يبرم على أثرها شاربَه الكثيف. على الرغم من ذلك كان يعتز بالزواج من امرأة واحدة، ولم يرضخ لإلحاح أُمِّه بالزواج من امرأة أخرى فى حياتها. ضَرَب بالمثل الذى كان سائدا فى هذا الوقت "زوج المرأة الواحدة يحيض عندما تحيض." عُرْضَ الحائط. تناقلت الأجيالُ سيرةَ الطواب، وورث أبناؤه وأحفاده مهنتَه وشخصيته، حتى أن الغرباءَ كانوا يقلدون مشيتَه وطريقته فى ارتداء الجلابية والشاش الأبيض. تناقلت الأجيال مقولتَه: "البر الغربي يرقد على آثار الماضي كله"، ومقولته الأخرى "أرض وادى الملوك حُبلى بآثار العالم."

***

"الحرية والعدل مبدآن يكفلهما الدستور للمواطن"، "الدولة تعتدى على الحريات"، "حرية التعبير والحقوق المدنية وجهانِ لعُملة واحدة"، "الحياة الطلابية فى الجامعة صورة مصغرة من مصر."
استعرَض الدكتور عبد الحكيم هاشم اللوحاتِ التى كَتَبها طلابُ المعهد. يعتزمون تعليقَها فى المدخل المؤدي لمكتب العميد، الذى يُفضي فى الوقت نفسه للفناء الكبير الذي تتوسطه شجرتان. وقَف وائل النجعاوى وأحمد نافع وياسر بهاء، يبسطون اللوحاتِ الملفوفةَ

المُصممة على شكل ورق بردي فوق مكتبه. أومأ برأسه وأثنى عليها، ثم أبدى موافقتَه عليها، وقَّعَ أسفلَها تحت اسم مقرِّر الأُسرة، لكن وائل النجعاوى قال له:

– أمامَ عميدِ المعهد حلان، إمّا أن يحرقها وإمَّا أن يقودنا إلى داهية.

وقَف الدكتور عبد الحكيم متأملا، ثم قال والحزن يكسو وجهَه:

– هذه الشعارات تحمل نبضَ الشباب الذين هُم جزء مِن الحاضر وكل المستقبل، سأحاول إقناعَه، وقد أفلح إن اقتنع.

قال له أحمد نافع مؤكدا:

– نعم يادكتور هذه اللوحات تحمل همومَنا وآلامنا، نأمل أن يقرأها العميد ومَن هُم فوق العميد.

نَظرَ الدكتور عبد الحكيم هاشم إلى أحمد نافع نظرةً ممزوجة بتكتلات من الحيرة وقلة الحيلة، يعرف تماما أنه سيخوضها حتما، ربما غَرق فيها دون أن يحقق ما يتمناه، أو على الأقل يخرج مِن لجتها ببلل نفسي ووجداني عميقين. يتمنى أن يبتلع الفضاءُ هذه الكلماتِ دون أن تلتقطها أُذنٌ حساسة. خاض فى جدال مرير مع عميد المعهد بخصوص قضايا تخص التعليمَ العالى والمعهد والطلاب، فكانت حِجج العميد الممنهجة تدحر مبرراتِه العقلانيةَ فى كل مرة. يعرف تماما أنه عنيد ولا يحب أن يعارضه أحد، وإنْ عارضه يضع أمامه كل العراقيل. رفض مِن قبلُ موضوعَ رسالةِ الدكتوراة التى تقدَّم بها عادل طه ليشرف

عليها الدكتور عبد الحكيم، كان عنوانها "جذور الدكتاتورية فى الأسرة الثامنة عشرة منهج أَم ضرورة سياسية؟"، بذل جهدا كبيرا فى إقناع العميد، لكنه مع ذلك رفضها وقال له حينئذ:

– هل تريد أن يقول العالم إن الدكتاتوريةَ متأصلةٌ ومتجذرة فى الشعب المصرى؟ بالإضافة إلى ذلك فإننى لا أرى دكتاتورية فى الأسرة الثامنة عشرة.

حينئذ أجاب الدكتور عبد الحكيم هاشم، وقد حَجب ضحكة مفاجئة كادت تنفلت رغما عنه:

– يا دكتور زكريا مِن الطبيعى ألا ترى دكتاتورية فى الأسرة الثامنة عشرة..

قاطعه الدكتور زكريا، وقد قطب جبينه مستنكرا:

– كيف لا أرى دكتاتورية فى الأسرة الثامنة عشرة يا دكتور؟

ضحك الدكتور عبد الحكيم محاولا امتصاصَ غضبٍ كامن متأجج فى حنجرة الدكتور زكريا فقال:

– أقصدُ أن الذى يرى هذه الدكتاتورية هو طالب الدكتوراة الذى سيثبت ويبرهن فى بحثِه أن الأسرة الثامنة عشرة كان بها ملامحُ أو سماتٌ مِن هذه الدكتاتورية.

لم يتروَّ الدكتور زكريا رشدى، وإنما قال بصوت متعجل وعال:

– التاريخ القديم يحتشد بمناطقَ تحتاج للبحث وسبر الأغوار، هل أَوصد التاريخُ بواباتِه أمام الطالب فلم يجد أمامه غير الدكتاتورية؟ هناك مناطقُ مضيئةٌ ومشرقة فى التاريخ، لماذا نبحث، نحن

المصريين، عن أروقة الظلام ومجاهل السياسة فى التاريخ؟ موضوع الرسالة مرفوض يا دكتور!

جلس الدكتور عبد الحكيم هاشم أمام العميد، محاولا أن يغلق بوابة ذاكرته التى تستدعى له المواجهاتِ والأحداثَ السيئة تباعا، كان يتمنى أن يكون قد نسي موضوعَ الرسالة التى كانت سببا فى نفوره منه، لدرجة أنه رفض أن يُشرِكه فى العديد من الندوات العامة التى يقيمها الحزب، كان يغدق فيها على المحاضرين الدائمين أو المنتدبين أموالا كثيرة.

– هل تنتظر منى أن أوافق على تعليق تلك اللوحات على جدران المعهد؟

– نعم يا دكتور زكريا، هل لديك اعتراض عليها؟

– بالتأكيد أعترضُ عليها لأنها كارثة، إنها تُثير الطلبةَ ضدنا وضد الدولة.

– هى تعبِّر عن آراء كتَبَها طلبة، سيقرأها أيضا طلبة.

– هل الطلبة قليلون؟! فحواها أن الحريةَ والعدل غائبان عن الدولة بشكل عام وعن الجامعة بشكل خاص.

– لكن إذا وافقتَ على هذه اللوحات ستثبت أن الحرية مكفولةٌ لهم، بل إنهم يمارسونها بشكل طبيعى داخل أروقة المعهد.

– مِن فضلك لا تبرر ما هو غير منطقى.

ثم كَتَب مِن اليمين إلى اليسار بخط فسفورى عريض، غير موافق.

3

آووووو....

صرخة ... !

صرخةٌ عميقة ذات نبراتٍ غريبة شقت أُذنيَي عبد الستار الطواب، كما شقت صمتَ البر الغربي. لم يكن وجودُه عند سفح الجبل الرابض فوق جسد الوادي الممتد والمترامي الأطراف مصادفة، بل هو نداء تسوقه إليه قدماه دوما، نداء فطري قبْلَ أن يكون نداءا جغرافيا، حيث وُلِد وكَبِر هنا، استطالت قامته التى تشبه بقية قامات أبناء الوادي. يكسوه اللون الأسمر، كما أن تعرضه للشمس الساخنة التى تصل إلى أدنى مستوياتها طَلى ذلك الوجهَ بدرجة أغمق، كان اللون الأسود ليس متأصلا فحسب، لكنه أيضا مكتسَب مِن الطبيعة.

شَعره مجعد، أمَّا أنفه الطويل فذو فتحتانِ واسعتان، إذا رآه شخصٌ ما مِن سكان البر الشرقي، يدرك على الفور أنه يشبه غيرَه مِن شباب البر الغربي، أو حتى الكبار الذين تغلُب العظامُ على تكوينهم الشكلي، خصوصا الوجه، فيوصَف عندئذ بأنه "مْعَضِّم".

قَفَز أثناءَ تردد الصرخة خلال المنحنيات ونتوءات الجبل، يلتفت يمينا ويسارا. اتجه صوبَ الصرخة مشدوها، يلف ويدور كلما ارتطم الصدى بأُخدودٍ مِن أخاديد الوادي العميق، لم يلتقطْ أنفاسَه

المتلاحقة، إلا حينما ابتلعت المقابرُ صدى الصرخة. استمر فى دورانه وبحثِه عن منشأها عبثا، حتى وصل إلى مقبرة حتشبسوت، ثم توقف يتسمَّع، خَطا بقدميه الحافيتين اللتين تغوصان فى الرمال المختلطة بالأحجار الصغيرة، فوصل إلى غرب معبد الدير البحري..

بالضبط فى نفس المكان الذي وقف فيه عمُّه سيد الطواب، سمع الصرخة نفسها التى انطلقت مِن جوف المقابر. لم يسمعها أي كائنٍ مِن الكائنات سِواه!

سمعها بأُذنيه ولم تكن خيالاتٍ أو أحلاما، سمعها كما سمعها جَدُّه الأكبر فى ليلة من ليالي الصيف فى عمق الوادي، الذى يئن مِن حرارة الشمس التى تشبَّع بها الجبل الغربي والرمال الممتدة أمامه منذ آلاف السنين، ربما وقعت الشمسُ هنا فى يوم من الأيام فتساقطت جمراتها على الأرض. هكذا كان يقول الكبار للصغار أثناء حكايات الليل الدامس التى تمتزج بعواء الجوع والرغبة الذي يطلِقه الصغار والكبار، وتمحو الذئاب نباح الكلاب.

يتميز عبد الستار الطواب عن بقية أبناء الوادي بعينيه الغائرتين اللتين نَسَخهما مِن أبيه خليفة الطواب. يختلف عبد الستار عن شقيقه فتحي فى الطول فقط، فعندما يقف فتحي بجواره يصل إلى كتفه، لكن فيما عدا ذلك فهُما متشابهان. يختلفان هُما الاثنانِ عن أمين ومفتاح سالم الطواب فى اللون، فالآخرانِ لونهما فاتح، لم يكن هذا الاختلاف الوحيد بين أبناء العم، فقد كان الخلاف

والشجار فى اللعب واللهو عاملَيْن مهمين فى الشقاق، اتسعت هذه الشقوق بعد الفتح المبين الذى وُعِد به سالم الطواب.

"يا طواب" هكذا كان الغرباءُ ينادون على عبد الستار أو أي شخص مِن آل الطواب. كان الصغار يرددون أغنية قصيرة فى كل زمان:

اركب حصانك يا طواب،
اجمع عيالك يا طواب،
ابحث عن كنزك يا طواب.
اردم قبرك يا طواب،

يقولون إن عينَي الطواب ليس لهما مثيل. فهُما غائرتان، سوداوان، يعلوهما حاجبانِ كثيفان.

هاتان العينان نسخهما كل آل الطواب.

بَنى الطواب بيتا حجريا أسفلَ سفحِ الجبل، نزح بعده آخرون مِن قُرى مجاورة. كان يعمل فى تجارة المواشي فى الأسواق حتى عَثَر على خبيئة معبد الدير البحرى. بعدَها بسنوات سمع الخديوى عباس حلمي الثاني بعثوره على الخبيئة عام 1895، فأمَر بتكريمه ومنحِه نيشانَ الدولة، تولَّى بعضُ الأفراد الذين عيَّنهم الخديوى نفسُه حراستَها، حتى وصول هربرت كولنز ونادر باشا الدخاخني إلى البر الغربي فى مركب عبْرَ النيل من القاهرة،

حينما وصلا إلى فندق ونتر بالاس أعلنا اكتشافَ المقابر للعالم بأسره.

أصبح الطواب بعد ذلك شيخا لآثار البر الغربي، تعمل البعثاتُ الأثرية تحت لوائه، صار عليما ببواطن وادي الملوك. كان يمنح المواطنين رخصةَ امتلاكِ القطع الأثرية، ثم يقوم مسئول دائرة الآثار بختمها.

مِن هنا ذاع صيته.

أمَّا أنف عبد الستار الطواب فطويل، يستقيم مِن تحته شاربٌ رفيع فوق شفتين غليظتين، تَظهر أسنانُه الحادة صفراءَ اللون حين يتكلم وحين يضحك، وحين يفكر، فمُه مفتوح بسبب شكل فكَّيْه المنبعجين والبارزين، حينما كان صغيرا كان العيال يطلِقون عليه "أبو كضوض" عندما ينام تضج السقيفة بشخيره المزعج.

اشتد سواد الليل القاتم وانسدل على أكتاف الجبل، غطَّى أطرافَ وادى الملوك، ظهر القمر الوليد يحبو ليضئ المناطقَ البارزة، وقف عبد الستار فى صدر وادي الملوك يترقب. ربما كانت أحداث عمِّه سيد الطواب القديمة التى مرت بخياله تركت لديه أثرا، بل تجسدت أمامه ورآها فى نومه وفى استيقاظه، ألحت عليه منذ ثلاثة أيام مما جعل النومَ يجافيه. لذا لم يستطع أن ينتظر حتى الصباح كي يحكي لأخيه عما سمع.

وجَدَه عند الشاطئ الغربي للنهر يتسامر مع أصدقائه الذين يسهرون حتى الفَجر، يحكون عن علاقات البعض مع سائحات

عجائز (over age) يبحثن عن الرغبة والمتعة فى فتيان البر الغربي. أتين إلى الأقصر بحثا عن متعة الإحياء الجنسي فى هؤلاء الشباب الذين يبحثون فى الوقت نفسه عن الخروج من منعطف الجوع والفقر الشديدين.

حَكى أحدُهم عن حساني فايز الذى تزوج مِن امرأة انجليزية عمرها ثمانون عاما منذ شهر. منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه البيتَ تناوَل هو وأمُّه وإخوته عشاءً فاخرا بالخبز "الفينو".

عندما اختلى بها فى الغرفة العلوية، تجردت مِن ملابسها تماما، احتسى زجاجة خمرٍ مرةً واحدة حتى يستصلح تجاعيدَ وترهلاتِ جسدها. عندما وجد أن الزجاجةَ الأولى لم ترمم كل ما ذاب وتحلل مِن جسدها الذى صار كالمومياء، أعقبها بالثانية ثم الثالثة. "سلَّمتْ أوراقها لعزرائيل" هكذا قال أحدهم فضحكوا حتى توقفت الكلاب عن النباح الغامض.

أخيرا استطاع أن يُذعِن لنداءات اللبوءة المتكررة منذ دخولهما فى الخلوة، استجمع رجولتَه التى انصهرت تماما بعد أن رآها عارية. قبْلَ أن يجلس منها مجلسَ الدخول أطفأ النور، وهَمَّ بها وهمت به، فالخمر والظلام كفيلان بتحويلها إلى فتاة شابة. هذان العاملان بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية الغارق فيها يمكن أن تضبط إيقاعَ الجنس، فتعيدها إلى صدر الشباب، لكنه اكتشف أن الخمرَ والظلام وظروفَه الاجتماعية لم تؤثر فى صورتها الأولى التى مازالت محفورةً فى عقله، عليه الآن أن يفقد الذاكرةَ ويعود

كما ولدته أمُّه كى ينهي المهمةَ الصعبة التي تعادل حفرَ ثلاثِ مقابرَ فى وادي الملوك، أو أن يعود نطفة غير مخلَّقة فى بطن أمِّه فيتغير مصيرُه تماما. كان يدنو منها بجسده خطوةُ ويركض بعقله للخلف عشرين خطوة، لامستْ يدَه فكسَّر أغلاله وفرَّ للوراء حتى يكاد يقع فى نهر النيل. أمامَه بواباتُ الثراء فى أرض العجائز، وخلفَه الجوع والفقر الشديدان.كان الولوج إليها عملا بطوليا يستحق أن يحظى بسببه على تكريم مِن هيئة اليونسكو. وينال إعجاب الناس كلما ركب السيارة وجلستْ بجواره، حتى وإنْ قال الحاقدون إنها أكبر مِن أمِّه العجوز!

هَمَس عبد الستار بعد أن سحب أخاه فتحي مِن يده مبتعدا عن المجموعة:

– وادي الملوك لسّه شايل فى بطنه كنوز الطواب.

جلس فتحي مكانه ليغسل عينيه بالرمال الذهبية ثم قال:

– حفرنا فى بيوت جدك الطواب اللي بقت زي الجبانة مليانة قبور مفتوحة.

ابتعد عبد الستار قليلا عنه، وهو يغوص فى سحابةٍ سوداءَ تغطي وجهَ القمر وقال:

– عمي سالم حصد كل كنوز الدنيا والآخرة، بيوت الطواب حفرها الغراب وخطف الكنوز وسابها مليانة بالتراب والجن.

هكذا لخص عبد الستار لأخيه كنوز اليأس التى تعبئ حُفر بيوت الطواب، لم يُعِر أيَّ اهتمامٍ لتخمينات واحتمالات فتحي الوهمية،

مثل البحث فى مقبرة شيخ عبد القرنة أسفل الوادي، أو بيوت اشتراها الطواب ولا يعرفها أحد، لكن تفكيره وهواجسه قد أرشداه إلى فعلٍ جديد، قاداه إلى اتجاه مغايرٍ لِما قام به عمهما. كان ذلك هو الذي شرحه لأخيه فتحي وهُما فى طريقهما إلى البيت.

***

السكون هو وعاء السلام النفسي، فإذا انغمس المرءُ فيه ضَمِن السلامَ النفسي الذى يعينه على التخلص مِن الأحداث التى يمر بها فى يومه وينقيها مِن شوائبها. ربما يكون هذا السلام النفسي مُعينا له على ما يجابهه مِن مصائبَ أو كروب. هناك بعض الناس لا يعنيهم السلام النفسي، أو الانغماس فى وعائه، فيَخرجون مِن مشكلة إلى أخرى دون أن تُخدَش أعصابهم، لا يعترفون بأولئك الذين يبحثون أو يهتمون بالسلام النفسي، الأكثر مِن ذلك يتهمونهم بالجنون.

هكذا تتشظى هذه النفوسُ التي تقترب مِن درجات الصوفية فى رحلتها بحثا عن موطن السلام النفسي.

الدكتور عبد الحكيم هاشم مِن النوع الأول. خَرج مِن باب المعهد بخطواته السندبادية البطيئة المعتادة، مازالت الابتسامة تهتز على وجهه، لكن صور الدكتور زكريا رشدي المختلفة راحت تداهِم السلامَ النفسي الذي حاول استعادتِه بعد خروجه مِن مكامنِ روحه. ذلك السلام لم يكن يراه فى البَشر المحيطين به، يراه فى

كُتُب الآثار، بل فى الآثار نفسها، يجده فى أكوام التراب المتناهية الصغر على جوانبِ الطريق، فكان يغوص فيه بعينه ليريحهما، كان يلعب مع أقرانه فى صِباه على التراب الأرجواني، يرسم عليه طرقا متعرجة ويبني بيوتا وهميةً واهنة، يراه فى القِطط التي تسير بجوار جدران البيوت، وربما وجد هذا السلامَ فى الجدران الطينية، فى جحورها التى تختبئ فيها العقاربُ والثعابين، ومع ذلك فهو يعتبرها مرفأً لسلامه النفسي، كان يبحث عنه فى كل القُرى، فى الأفلام القديمة، بل فى الماضي بكل صوره. لكن إرادته التي تيقظت بداخله تغلبت على الصور المشوهة التي كدَّرت السلامَ النفسي، فمزقتها وألقت بها بجوار طريق الكباش المحفور حديثا. انطلقَ مصوِّبا عينيه للأمام، يثبِّت نظارتَه الطبيةَ رقيقة الإطار، كلما انزلقت على أنفه الرفيع.

4

كانت الساعة تقترب مِن الخامسة مساء، عندما رصدت عيناه لافتاتِ المرشحين لدورة مجلس الشعب الجديدة. لاحظَ هذه الدورة الصورَ العملاقة التى تتصدر الميادين والشوارعَ الرئيسية، لم يكن يميز بوستر قاسم حجازي عن بقية المرشحين، إلا أنه مرشح الحزب الديمقراطي الشعبي، وصورة مرشح الحزب الآخر سيد اسماعيل. رأى صورة الدكتور إبراهيم الإسناوي المستقل، وكذلك

صورة المرشح المستقل علي طايع الصغيرة فابتسمَ ابتسامة صغيرة جدا. انتقلت عيناه إلى صور النساء التى زاد عددهن تلك الدورة، بسبب "كوتة المرأة" التى أقرها البرلمان السابق. تَجهم وجهه عندما رأى سيداتٍ سيئاتِ السمعة مِن بين المرشحات، لما اقتربَ مِن البيوت المتراكمة القريبة مِن البوابة الشرقية لمعبد الكرنك، تغيرت ملامحه إلى النقيض تماما، شَمَّ رائحة التاريخ القديم، لامست عيناه المعبدَ الشاهق، كأنه يربت عليه ويؤكد شموخه، عندئذ خاض وهو مطمئن تماما فى بِركة السلام النفسي.

منزل أحمد الضوي، يتكون مِن طابقين، لونه أبيض، يتميز ذلك البيت بالشرفة الخشبية القديمة ذات اللون الأخضر، تطل مباشرة على المدخل الرئيسي للمعبد. يعرفه كل الناس، ليس لكونه مقابِلا للمعبد، بل لكونه بيت الشيخ الضوي صاحبِ القراءة القرآنية المعالجة لأوجاع الأطفال، التي أخذها مِن المرحوم الشيخ إسماعيل الرزيقي صديقِه الذي كان يجلس معه كثيرا، تَعلَّم منه الكثيرَ فقدْ كان يزوره بصفةٍ أسبوعية فى أرمنت، لم ينقطع عن زيارته إلا عندما توفي. تأتي إليه الأمهاتُ مصطحِباتٍ الأطفالَ المتألمين كلَّ جمعةٍ ليقرأ عليهم ما تَيَسَّر مِن الآيات الشافيات. يعاونه ابنُه الأصغر النوبي، الحاصل على ليسانس شريعة وقانون ولا يعمل، يصاحِب أباه أينما ذهب، فكشف له الكثيرَ مِن

أسرار الشفاء القرآني، حتى يسير على دربه، ويحمل الرسالةَ مِن خلفِه فيكون بيت الضوي نورا وشفاء لكل مَن به داء.

أمَّا ابنُه الأوسط حسن فقدْ حصل على الدبلوم الصناعي، سافَر إلى القاهرة ليعمل فى مجال المعمار، تناقلت أخبارَه نساءُ الكرنك، منهن مَن قالت إنه يعمل ريس أنفار كبير، وأخرى قالت إنه ما يزال يحمل "الجروانة" وينفِق كل ما يكسبه على فتيات الزاوية الحمراء. أمّا الشيخ الضوي فلا يزيد عن جملة واحدة إذا ما سُئل عنه: "سهَّلَ الله له كل أمرٍ عسير". أمّا أُمُّه فلا يستطيع أحد أن يتكهن برأيها، هى لا تتكلم عن أبنائها أمام الغرباء، صمتُها محير، إذا حاولت إحدى النساء الفضوليات استنطاقَها عندما تقابلها فى مأتم، فلا ترد بل تتعجل فى الخروج مِن البيت، والحنقُ يتقاطر مِن وجهها.

***

ظَل سالم الطواب يبحث عن أخيه سيد الطواب أسبوعا كاملا، طَرَق بيوتَ البر الغربي بأسره. بدأ بأقاربه وجيرانه وأصدقائه وانتهى ببيوت الغرباء، الذين استوطنوا الوادي مِن قنا وأرمنت وإسنا، حتى الذين تم تهجيرهم مِن النوبة. لكنهم أعلنوا جميعا أنهم لم يروه منذ شهرين على الأقل.

هامَ سالم فى الوادي، يصل الليلَ بالنهار بحثا وترقبا لعودة أخيه الممكنة، كان يعود إلى أمِّه فيجدها تنتظر أمام عتبة البيت، التفَّتْ حولها النسوة، عندما رأته المرةَ الأخيرة شهقتْ قائلة:

– جيت وحدك ياوَرَدْ، وين أخوك؟

لم يجد ردا فالتزمَ الصمت، لكنها باغتته قائلة:

– جيت مِن غير أخوك ياواكل أبوك؟

هكذا قالت له وهى تعاين وجوهَ النساء، اللاتي يُشِرْن بأصابعهن وخدودهن حيرةً وحزنا.

– دَوَّرتْ عليه فى البر الغربي كله، دَانَا كمان دوَّرت عليه فى لُقْصُر كلها.

– يحليلي، يحليلي .. يمراري، يمراري.

فهيمة السعدى امرأةٌ مستكينة بطبعها مثل الكثيرات مِن نساء البر الغربي، هناك وشمٌ على جبهتها وعلى ذقنها. لا تعرف الصلاة، أو كيف تؤديها، لكنها تصوم رمضانَ لأنه يُدربها على الصبر الذى نشأتْ عليه. تعتنق دينَ الفطرة وموروثَها الاجتماعي، تطيع زوجَها حتى ولو كان فاجرا. تتلاشى أنوثتُها وتتحول إلى رَجلٍ إذا غاب عنها زوجها سنواتٍ طويلة. تستطيع أن تعيش هى وأبناؤها على الخبز الجاف. الموت هو الحدث الوحيد الذى يفجر كُتَل السُّحُب بداخلها، فيحجب عنها أشعةَ الشمس بالنهار وضوءَ القمر بالليل، ربما تحتضن وسائدَ الحزن حتى يحين أجَلُها.

اعتبرت النساءُ غيابَ أخيه مأتما فأتيْن لتقديم العزاء لأمِّه المكلومة، روتْ كل واحدة حكاياتٍ وقصصَ موتى سابقين. راحت كل واحدة منهن تسرد مصيبة قوضتْ حياتها، حكت محضية المديحية عن زوجها عاملِ شركة السكَّر عندما وقع فى صهريج العسل، لما أخرجوه كان العسل المغلي قد مَضغ جِلدَه ولحمَه، فكان أمر تغسيله وجمعه فى الكفن صعبا على المُغسِّل الذى وجد صعوبة بالغة.

سردتْ زوجة العربي أبو عواضة حادثَ سقوطِ زوجها مِن فوق النخلة التى كان يجني بلحَها، وكيف صارع ثعبانا أسودَ إلى أن فَتَك به، فوقَع على الأرض فكُسرت جمجمته. أمَّا محاسن فقد حكت عن زوجها شاكر السرايري الذى أطفأ لهيب جسده فى قيَّالة شهر يوليو فى نهر النيل، فابتلعه ولم يخرج إلا بعد ثلاثة أيام، فتغير لون جثمانه وانتفخ بشكل غريب. ربما وجدتْ أُمّ سيد الطواب عزاءً فى تلك الحكايات، حدَّثتْ نفسَها أثناء المصائب التى تُروى أمامها بأن ما حدث لابنها لن يكون أصعبَ مِن كوارثِ هؤلاء الراحلين، كانت تجبر هواجسَها على رفض أي مكروهٍ يصيب ابنَها، ومحو أي صورةٍ ترسمها لها قصص الموت التي تُسرَد أمامها. الغريبُ أنها كانت تذهب إلى الباب ثم تعود أكثرَ مِن مرة، وهى تعقد يديها خلف ظهرها حزنا وترقبا لحزن، فتلوي كلُّ واحدةٍ مِن الجالسات فمَها حزنا على حزنها.

سُحُب الحزنِ التى خيمتْ على البيت أمطرت عليها كُتَلا فحمية فأمسكتْ برأسها وراحت تهزها يمينا ويسار، همَّتْ بالصراخ، لكن النسوة المقيمات معها اقتربن منها، ورُحن يربتن عليها وشاركنها فى الصراخ، فتفتت كُتَل الحزنِ فعمَّت الوادي.

5

ظَلَّ الشيخ الضوي يبحث عن ابنه حسن عامين أو أكثر فى القاهرة والإسكندرية، كلما يأتيه خبر ما عن مكانه، يسافر على الفور. المرةَ الأخيرة التى جاءته فيها مكالمة هاتفية مِن محافظة بورسعيد، عَرَف أن ابنَه يعمل مرشِدا فى السفن، ركب القطارَ فى اليوم نفسه، عندما وصل إلى الميناء فى الصباح كان قد تبخر، وتبخرت معه أحلامُه وقراءاته التى أفنى أياما ولياليَ فى قراءتها مِن أجله. بعدَها قرر أن يتوقف عن البحث عنه، أو حتى أن يُنصِت لمحاولات زوجته فى الاستمرار. بعد ذلك بعام واحد فقط سمع مِن أحد قيادات الجماعة الاسلامية الذى عاد مِن أفغانستان منذ عامين، أنه رآه فى معسكرات التدريب والإعداد، تحديدا فى كابول، يعمل فى لواء انتحاري يحصل على تعليماته مِن أسامةَ بنِ لادن شخصيا، عندئذ أدرك الشيخ الضوي أن ابنَه فى عِداد الشهداء، أو كما يقول عليهم الغرب الانتحاريين.

ربما كانت الرؤية القديمة هى السبب الحقيقي الذي جعله يلجأ لمعالجة الأطفال بالقرآن، لكن ابنه الأكبر أحمد رجَّح لجوءَه إليها منذ سنوات بسبب الشيخ إسماعيل الرزيقي. الذى زاره لكى يواسيه بسبب غياب ابنه حسن. ساعتَها ظَلا يتجاذبانِ أطرافَ الحديث، تذكَّرا معا أيامَ أن كانا عضويْن فى الإخوان المسلمين فى خمسينيات القرن الماضي، ذكَّرَه الشيخ إسماعيل بأمانة صندوق الجماعة التي كان يتولاها الشيخ الضوي. "هل نسيتَ أمانة الصندوق التي كنتَ مسئولا عنها يا شيخ ضوي؟" لم تكن ضحكاتهما فى الحاضر تشبه ضحكاتهما فى الماضي. "كيف تضحك كثيرا يا شيخ إسماعيل وأنا أحدِّثك عن الزواج؟" هكذا تذكَّر الشيخ الضوي ذلك السؤالَ الذي سأله له فى نهاية شهر ديسمبر عام 1948 وهُما يعبران النيلَ مِن البر الغربي إلى البر الشرقي فى المعدِّية ليقابلا الشيخ حسن البنا فى قنا قبل شهرين مِن اغتياله.

لم تكن الرؤية القديمة الملفوفة فى أقمشة قديمة تذاع بسهولة، فقد كان الشيخ الضوي وامرأتُه يضعانها فى صندوق يحمل مقتنياتِ الماضي. ماذا يعني أن تجرف السيولُ المحمَّلة بالطمي الأسود الناسَ جميعا؟ ربما اختلط الأمر على الشيخ الضوي. حكى هذه الرؤية لابنه أحمد بعدها بعشر سنوات، ذكَّره بقصة سيدنا نوح حينما غرق الناس جميعا. حتى وإنْ كان أحمد الضوي يثق تماما

فى أبيه وفى أحلامه، لكنه لا يتخيل أن تعود أيام سيدِنا نوح مرةً أخرى، بطوفان آخرَ حتى وإنْ أقْسَم أبوه على المصحف الشريف!
البنتانِ متزوجتان، الكبرى اسمها زينب تعيش فى السويس، لا تزور أهلها إلا فى الصيف، لذلك تأتي وتسافر دون أن يذكرها أحدٌ لقِلة كلامها، لأنها عاقر، زاد ذلك مِن انطوائها، وجعل زوجها يتزوج مِن امرأة أخرى. أمَّا قِلة حيلتها وسلبيتها، فكانا عاملين مُهمين فى تطبيع العلاقات مع الزوجة الجديدة.

***

راجح فهمي مرشِدٌ سياحي قديم، له وزن كبير بين المرشدين وشركات السياحة. يحفظ المعابدَ عن ظهر قلب، لدرجة أن تقول إنه مولود فى المعبد. يتقن اللغةَ الانجليزية فتقول إن أمَّه إنجليزية. هو رَجل أسمر إلى حد ما فى بداية الخمسينيات. نحيف لدرجة أنه يبدو أصغرَ مِن ذلك، مما ساعد على تقوية هذا الانطباع ملابسُه، مثل الـ تي شيرت والبنطلون الجينز، والكوتشي الملون، والصبغة التي تغطي كلَّ شَعرةٍ بيضاءَ تَظهر على رأسه. لكن بعد أسبوعين بالضبط من تلك العملية الروتينية يصاب الشَّعر ببهاق يظهر فوق قمة رأسه، ثم يزحف يوما بعد يوم على الجانبين حتى تلاحظه زوجته من خلال ازدحام جدول التشغيل لديه، وانخراطها فى مؤامراتها المدرسية. عندئذ يعيد صبغَ شَعرِه، فيصغر شيئا فشيئا. لأنه محنك يستطيع راجح فهمي أن ينهي

شرحَ معبدٍ كامل مثل معبد الكرنك فى ساعة فقط، بينما يستغرق شرحُ بعضِ المرشدين أربعَ ساعات نظرا لحجم المعبد الكبير، ولكثرة النقوش المحفورة على جدرانه وعلى أعمدته.

ثلْث سكانِ الأقصر ينتمون إلى عائلات معروفة، لها أصول قديمة جدا، اكتسبت أصالتَها مِن تجذّرها، أو مِن خلال انتمائها لبعض الأولياء المشهورين، بعضُ العائلات اكتسبت شهرتها وأهميتَها مِن انتمائها لإقطاعي كان يمتلك أراضيَ شاسعة، لم يؤثر عليه قانون الإصلاح الزراعي كثيرا، فاستفاد أبناؤه مِن بقية الأملاك، اشتروا بعد ذلك الكثيرَ مِن الأراضى وعوَّضوا ما أُخِذ منهم، وبعضها اكتسب أهميةً بعد الانفتاح. توجد أيضا فروع لعائلات من محافظات أخرى تطورت وتشعبت. بعض العائلات تتمتع بسمعةٍ طيبة لكن مستواها المادي والاجتماعي متواضع إلى حد ما، لا يبذل أفرادها جهدا لتحسين مستواهم المادي أو الاجتماعي، لكن مع ذلك تظهر مِن حين لآخر طفرات مثل أنْ تجد مِن بينهم طبيبا أو مهندسا أو صاحبَ توكيل شركة سياحة. هناك عائلات تستمد قوتها مِن انتسابها لعائلات كبيرة مِن خلال المصاهرة أو تبادل المصالح والأعمال المشتركة، لكنها تظل عند مستواها فلا يستطيع أحدهم أن يرفع بصرَه فى وجه شخص آخر مِن هذه العائلة الكبيرة.

هناك عائلات ذات مستوىً اجتماعى متدنٍ جدا، لا يتزوج منهم الآخرون، ولا ينزوجون هُم مِن الغرباء. يعملون كل المهن الحقيرة

مثل ترقيع الأحذية أو بيع النابت أو بيع الجاز، أو قص شعر الحمير وكذلك دفن الموتى، البعض منهم يعمل بالسياحة. يخجل مِن معرفتهم بعضُ الناس، وآخرون يجلونهم، يقطنون أماكنَ نائيةً أو بالقُرب مِن الأسواق أو المقابر، لكنهم عندما أدركوا وضعَهم الدوني بذلوا جهدا كبيرا لتحسين وضعهم المادي ليعوضهم عن هذا العيب الذى لم يفلح معه ترقيع، فمنهم مَن سافر للخارج وعاد ليبني بيتا مِن "المسلَّح"، بعضهم اشتغل بالتجارة مثل بيع الأقمشة والأجهزة الكهربائية، وحقق مالا وفيرا. الكثيرون منهم عملوا بالسياحة فجاءهم رزقٌ كثيرا لم يحلموا به. القليلون الذين نفخ فيهم الواقع من روحه انسلخوا عنهم فقطنوا بعيدا، لكنهم ارتبطوا بهم وجدانيا أو روحيا، بل كانوا يجتمعون معهم حينما يمرون بكرْب مِن الكروب، يساعدونهم ماديا إنِ استطاعوا.

لكن بعد موت الطوَّاب الأكبر بخمسين عام اندمجتْ بعضُ العائلات المتدنية مع عائلاتٍ أعلى شأنا فدَنَّسَتها مثلما يدنس الغسيلُ المتسخ بقيةَ الغسيل النظيف. كان النموذج الأكثر وضوحا لهذا النسيج الجديد الذى غزلته الظروفُ الاجتماعية وتطورُ الزمنِ زواجَ راجح فهمي بآمال عبد السميع.

***

جاء الشيخ الضوي مِن قرية الرزيقات قِبلي، واستوطن الكرنك بجوار بوابة المعبد منذ خمس وأربعين سنة، معه زينب وعائشة

بعد أن ضاقت به سُبُل العيش هناك، ولما توقفت زوجته عن الإنجاب عاميْن. كان فى البداية يبيع الغِلالَ فى نطاق محدود فى سوق الرزيقات. عندما انتقل إلى الأقصر فَتَح دكانا صغيرا لبيع الغلال بجوار البيت، ما لبث أن توسعت تجارته وعيَّنَ صبيانا ليبيعوا بدلا منه. عندئذٍ بدأت بوادر التدين والورع تظهر عليه.

عندما استقر أمام بوابة الكرنك فُتِحت له بوابات الخير والرزق، فأنجبت زوجته أحمدَ، أقام حينئذ احتفالا ظَل ثلاثَ ليالٍ، نَحَر الذبائح وأقام حلقاتِ الذِّكْر، كان أول مَن يأتي بالشيخ عبد الباسط عبد الصمد لكى يقرأ القرآن فى هذا الاحتفال. غنَّى في تلك الليالي المطرب الشعبى سيد أبو الدردير حتى الصباح. بعدها بعامين أنجب حسن. اندمجَ مع الناس وتفاعلَ مع مشكلاتهم وأصبح "شيخَ الكرنك". ثم أنجب النوبي الذى رافقه كظِلِّه فتعلَّم منه الكثيرَ مِن أسرار القرآن.

أمَّا الابنة الأخرى فاسمُها عائشة، متزوجة من إمام جامع بديروط بأسيوط، لا تأتي كثيرا لأهلها لكثرة أبنائها، إذا أتت تُبكِّر فى العودة، وتقطع الزيارةَ بسبب نفور أهلها مِن أبنائها الذين لا يتركون بيتا إلا أصابوا ابنًا مِن أبنائه بإصابة بالغة، لكن علاقة زينبَ وعائشةَ كانت شِبه مقطوعة!

لم تُفلِح محاولاتُ الشيخ الضوي للتقريب بين البنتين، فقد نشأت كل منهما بعيدةً عن الأخرى، فلما كانت زينب فى الإعدادية لم

تحاول أن تقترب مِن أُختِها عائشةَ التي كانت حينذاك فى الصف الخامس الابتدائي.

كان الشيخ الضوي كالكثيرين لا يهتم بصغائر المشكلات بين الأبناء. فكان يتدخل حينها ويفرِّق بينهما إذا اشتبكتا بالأيدي. لكن مشكلة بنتيه الكبيرتين بدأت صغيرة، وكبرت مع الأيام، على الرغم من ذلك كان يقول إن الأبناء تجمعهم الكروب والمصائب.

الابنُ الأكبر أحمد مختلفٌ تماما عن إخوته، ربما أَخذ عن أبيه الحكمةَ، وعن أمِّه قِلة الكلام، فكان إذا تكلَّم أوجز، وإذا تواجد فى مكان به ثرثرة آثَر الانطواء، أمَّا إذا قابل أصدقاءَه فيطول حينئذ النقاش، يحمل فى رأسه حجة الإقناع. هو طويل إلى حد معقول، عيناه واسعتان سوداوان، ذو أنف طويل وفمٍ واسع قليلا، أخذ هذه الملامحَ مِن أبيه ومِن أمِّه، عندما يضحك يتسع فمُه لدرجة تساوِرُك الشكوك عندئذ بأنه لن يتوقف عن الضحك، وربما ساعد ذلك على تَشَكُّل شعورك بالأُلفةِ تجاهه.

6

تحمل ذاكرةُ الإنسانِ فى وعائها اللانهائي أماكنَ بعينها، سواءٌ أكانت كبيرة أم صغيرة، أماكنُ يرتادها المرءُ كلَّ يوم، وأماكنُ يرتادها على فترات بعيدة. فإذا كانت هذه الأماكن قد خلَّفت لديه ذكرى طيبة فإنها تتشبث بكيانه، وتمتزج بتراثه الفكري والنفسي

وتقوم بينها وبينه أُلفة، ربما يحل ذلك المكان مكان الصديق، يأتنس به، يُفضي إليه بأسراره، وربما يشكو إليه أوجاعَه، والأهم مِن كل ذلك يستخرج منه كنوزَ السلام النفسي. مِن المحتمل أن يكون ذلك المكان مصدرَ قلقٍ وحزن فيصير ذكرى سيئة، فى بعض الأحيان يحوِّل الناسُ مكانا ما مِن مكان يهفو الآخرون إليه، إلى مكان تنقبض الأفئدةُ عندما يأتي ذِكْره. يختار البعض من هذه الأماكن مكانين يألفهما "بيت إنس" مِن البشر، و"بيت مِن بيوت الله"، يذهب إليهما دون تفكير، فبيتُ الإنسي يَذهب إليه كنوع من العادة يجد تحت عباءته الراحةَ النفسية، وبيتُ الله تحفُّه فيه الطمأنينةُ والسكون فى كل الأوقات. بالنسبة لعبد الحكيم هاشم حدَّد هذيْن المكانين. ارتاح قلبه وعقله إلى مسجد "أبو الحجاج" فيرتكن إلى مقام السيد فى أوقات غير الصلاة، إذا ذهب فى ميعاد الفرض فإنه يتأخر للفرض الذي يليه، كان يحدث هذا غالبا بين المغرب والعشاء. البيت الثاني منزل صديقة أحمد الضوي. عندما دخل عبد الحكيم هاشم بيتَ الشيخ الضوي شَعَر بالراحة النفسية والأمان، وحفَّته السكينةُ والطمأنينة، لما قابلته أُمّ أحمد الضوي عند المدخل، انحنى قليلا ليصافِحَها، وقالت له بصوت دافئ:

– صاحبك مستنيك فى العلالي.

***

عندما استطال عود راجح فهمي اكتشف أن مهنة أبيه بيع الفول النابت مهنةٌ مخزية، تستطيع أن تفيَ بالكاد ستة أفواه. انتهز الفرصةَ فعمل فى محل لبيع عصير القصب لكى يساعد أباه. لما عَرَف أن السياحة مصدرُ رزقٍ مهم حصل على دبلومة إرشاد سياحي بعد أن حصل على بكالوريوس خدمة اجتماعية من أسوان.

يبدأ راجح فهمي برنامجه السياحى مع المجموعة من البر الغربي، اليوم الأول بعد وصولهم إلى الأقصر فى الصباح قبْلَ شروق الشمس، يقودهم إلى مقابر وادي الملوك والمعابد الجنائزية. نظرًا للصعود والهبوط إلى المقابر ولهيب الشمس التى تفاجئهم هناك، يستبد بهم التعبُ والإجهاد قُرْبَ منتصفِ النهار، ثم يأخذهم إلى مصانع "الألباستر" المنتشرة فى البر الغربي.

– الألباستر هو صناعة التقليد المتقن للتماثيل الحقيقية.

هكذا كان يستهل كلامَه باللغة الانجليزية للمجموعة التي تُنصِت له تماما. وتُذعِن لاقتراحاته.

يقوم بشرح التماثيل المصفوفة بعناية فوق أرفف خشبية، مكتوب تحت كل تمثال اسم صاحبه، وأحيانا نبذة تاريخية عنه، (ربما لا يلتفت إلى التمثال الأصلى نفسه فى المعبد) وبيان أهمية اقتنائه، بل يظل وقتا طويلا محاولا إقناعَ المجموعةِ السياحية بشراء بعضٍ منها. لا يجد السائحون مفرا مِن أن يشتروا ثم يتجهون إلى الأوتوبيس، أمَّا راجح فهمي فينتظر قليلا حتى يأخذ عمولته.

فى اليوم التالي بعد الانتهاء مِن زيارة معبدَي الكرنك والأقصر سريعا، يتناولون طعامَ الغذاء ثم يذهبون إلى معرض البرديات، كما فعل فى مصنع الألباستر يقوم بشرح البرديات التى تتناول تاريخَ بعضِ ملوك الوادي، المكتوبة بالحروف الهيروغليفية. ذاتَ مرةٍ ذهب بهم إلى معرض "كاتي" للبرديات. عندئذ اشترى السائحون كلهم برديات كثيرة، إلا سائحا تردَّد وتأخر قليلا أمام بردية، فاقتربَ منه وقرأ له اسمَ البردية: "رمسيس الثاني فى موقعة قادش" شرح له باختصار موقعة قادش وأهميتَها، عندما رأى التردد مازال يومِض فى عينيه، أخرج مِن جيبه ألف وخمسمائة جنيه، وأعطاها لصاحب المحل كإسهام منه لشراء البردية، فما كان مِن السائح إلا أن أخرج الألف جنية الباقية. فَرِح السائحُ بالبردية كثيرا وهو يطالعها أثناء خروجه مِن المعرض. استعاد راجح فهمي الألف وخمسمائة جنية، علاوة على ذلك حصل على خمسمائة جنية قيمة عمولته.

الترفيه عن المجموعة السياحية مِن أهم أهدافه، فيُمعِن فى وضع برامجَ ترفيهيةٍ لهم، كان يذهب بهم إلى قهوة "أُم كلثوم" فيشيع جو البهجة بينهم، يطلب لهم الشيشة والمشروبات، عندما ينتهون يأخذ عمولته مِن صاحب القهوة. ذاتَ مرةٍ خطرت له فكرة الدخول بالمجموعة السياحية سرادق عزاء، وأخبرهم بأنهم سيدخلون "قرآن بارتي".

– ستدخلون الآن حفلا فريدا مِن نوعه "كورآن بارتي" تستمعون للقرآن وتشربون القهوة فقط بخمسة دولارات للشخص.

دخلت المجموعة السياحية السرادقَ وكأنهم يزورون أحد المعالم الأثرية، يجولون بأعينهم فوق المعزِّين الذين راحوا يرقبونهم بدهشة، وكذلك أخطأ الشيخ أثناء القراءة بسبب تحديقه فيهم.

كان العزاء تحديقا ودهشة، حينئذ فرَّ الخشوع من القلوب ودهسته الأقدام.

***

لم يشأ سالم الطواب أن يدخل البيت، بعد أن شَعَر بالألم يكبِّل ساقيه، امتد إلى ذراعيه، آثَر أن يبتعد عن البيت حتى لا تؤلمه نظراتُ أمِّه الحادة. صعد إلى مرتفع مِن مرتفعات الوادي، ثم استلقى على الرمال المحتفظة بسخونة شمس النهار، الجبل خلفَه يؤنبه، وعيناه متأرجحتان ما بين النوم والاستيقاظ، حاول النهوضَ حين انتقلت السخونة الكامنة فى الرمال إلى جسده، لكنه هبط عليها مرة أخرى بسبب الألم الذى شمل جسده كله. أمَّا عيناه اللتان تغالبان النومَ والإجهاد فلمَحَتا جسدا شفافا يتضخم، ففتح عينيه حتى يفيق عقله الذي ركن للراحة والتبلد قليلا، ضرب بيده على الرمال حتى يتأكد أن ما يراه ليس حُلما، فكان أحيانا يتجلَّى له حُلم سريع حينما يغمِض عينيه.

تحسس عينيه، ثم التفتَ حوله وخلفَه، نَظَر أمامه مرة ثانية، فتأكد مِن أن ما يراه حقيقة. جسد شاهق الارتفاع، يرى مِن خلاله نتوءات الجبل، كان عملاقا لكنه لم يسد مجالَ الرؤية، بل شغل حيزا مِن الفضاء الذى يسبق الجبل. راح يتأمله والارتعاشُ يهز جسدَه، بدءًا مِن قدميه العملاقتين حتى وصل إلى أعلى الساقين، فذراعيه المفتولين، يطاول بقامته الجبلَ الشاهق بل يفوقه، لم ينتظر أكثر مِن التأمل السريع، فولَّى مدبِرا لكنه كان يتعثر كثيرا، الخوف والهلع مِن "الصُنْ" جعله يندفع للأمام دون وعي. سمع وقْعَ أقدام الصُنْ تدك الرمالَ خلفه حتى تعثر فى حَجَر مطمور فانكفأ على وجهه مذعورا، حين رفع رأسه يحاول الالتفاتَ للخلف، وجد الصُنْ ينحني قليلا، يمد له يدَه فاقتربت أصابعه الهائلة مِن وجهه، فزحف للوراء مبتعدا وأصابعُ الصُنْ تقترب منه.

وجه لوجه لأول مرة يرى فيها الصُنْ.

سمع الكثيرَ مِن قبلُ عن قتلى لقوا مصرعهم فخرجت "الصْنَّانة" مِن أجسادهم، أو مِن المكان نفسه الذي قُتِل فيه صاحبها تبحث عن قاتليها، ربما تعرفه إذا كانت الجريمة أخذًا بالثأر، تتربص بالقاتل حتى تفتك به، أو تترك هذه المهمة "لصاحب الثأر". عندما لا تجد قاتلها تطارد المارةَ الذين لم يبحثوا عن القاتل، تحثهم على البحث عنه، إذا وجدت الرعبَ يتملكهم تنتهز الفرصة كى يهلكوا جميعا كما هلك صاحبها. لكن ذلك "الصُنْ" تعامَلَ معه بطريقة غير التي سمع عنها، بل إنه لم يرَ وجهه مخيفا على

هذا النحو الذى يوقف ضرباتِ قلبه، أو يبث الهلعَ فى ساقيه فتلجمهما عن الحركة. الغريبُ فى أمر ذلك الصُنْ أنه بَسَط له يدَه عندما تعثر أثناء هروبِه أمامه.

لم يكن مثل "الصنَّانة" التى تتسم بالجُبن، أحد هؤلاء الصنَّانة يخرج خلال الأربعين يوما التي تَلي مقتلَ صاحبِه، يتسلق الجبل، فيرقص أحيانا رقصة الموت، مراتٍ يجلس فوق قمته تتدلى ساقاه، يبكي بحرقة، قد يصادف مرور أحد الأشخاص الذين لم يسمعوا عن القتيل أو عن مقتله، فيرى المشهدَ النادر لبكاء ذلك الصُنْ، الذي يهرب متبوعا بشلال الدموع التي تغرق جسده الشفاف، فيغرق الوادي كله!

حين وجد سالم الطواب "الصُنْ" يقترب منه، ويمد يد المساعدة التي رآها فى تصرفاته الغريبة، بسط له راحته فساعده على الوقوف، أشار له بإصبعه بأن يتبعه، لم تكن تصرفات الصُنْ الوديعة هي التي جعلته يذعِن لأمره، بل إنه رأى مِن بين هزات الفزع التى انتابته وهو يواجه الصُنْ ولم يستطع الفكاك مِن حصاره، أن ملامح الصُنْ تشبه ملامحَ أخيه سيد الذى يبحث عنه، بل إنها تطابقت تماما مع ملامحه التى تفحصها أثناء زحفه للوراء وهو يمد له يد المساعدة.

عندما وصل سالم خلف الصُنْ إلى معبد الدير البحري، ولم تَغِب عيناه عن مراقبة الجسد العملاق الذي يتقدمه، فرآه يتضاءل وتصغر أعضاؤه شيئا فشيئا، صار كُتلة دخانية، تلتف حول

نفسها، تجمعتْ ودخلت مِن خلال فوهة المقبرة. وقف سالم لبرهة يحاول أن يستوعب الموقف كله، ذوبان الصُنْ وتحوله إلى كتلة دخانية ثم سقوطه فى المقبرة، لم يتقدم خطوةً بسبب الظلام الذى يكتنفها، إنما عاد فى الصباح ومعه شعلة ودخل المقبرة، باحثا عن سيد واجتاز الممريْن والدهليز، وهبط السلم حتى وجده ميتا فى البئر.

7

– عندما طلبوا منِّي الترشحَ لمجلس الشعب ترددتُ كثيرا، ثم رفضت.! لكن ما ذنب الجماهير المطحونة؟ لماذا أحرِم الجماهيرَ مِن كفاءتي وخبرتي فى العمل الوطني؟ الجماهيرُ تحتاج لنائبٍ لا ينام فى المجلس. نائب قوي، صوته يدوي فى البرلمان. نائب يهز كيان الحكومة. الوطن يحتاج لنوابِ برلمان أقوياء، وأنا فداء للوطن. ولَدَتنا أمهاتُنا أحرارا لخدمة الجماهير والوطن.

التصفيقُ الصاخب والهتافات المدوية أثارا حميةَ قاسم حجازي، فأخذ يميل برأسه يمينا ويسارا، ويرفع يدَه امتنانا للتصفيق، يميل على يمينه فيبتسم للدكتور زكريا رشدي أمين الحزب الديمقراطي الشعبي بالأقصر، فيبادله نظرةً محشوة بالإعجاب والتشجيع، وسالم الطواب الذي يرتدي جلابية بيضاءَ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامته المصطنعة التى يَظهر بها دائما، على يساره

جرجس أيوب ببدلة سوداءَ وربطة عنق رمادية، فوق قميص رمادي أيضا، يتابع بعينيه الحشودَ التي أقلَّها بالأوتوبيس السياحي مِن كل القُرى المجاورة. يشير بيده فتنطلق الهتافات التأييدية:

– أبو حجازي يا بلاش.. واحد غيره ما يلزمناش..

كان قاسم حجازي موظفا بسيطا فى شركة سجاد الشرق الأوسط ليميتد. رَجلٌ نحيف فى الثامنة والأربعين. متوسط الطول، قمحي البَشرة. يتميز بأنف طويل إلى حد ما. يرتسم على وجهه وقارٌ مِن نوع غريب. هناك شَعرة رفيعة جدا تفصل ما بين هذا الوقار والمَكْر. يقع البعض فى شِبَاك هذا الوقار حُبا أو طمعا، فيكتشفون عندئذ أن المكْرَ قد ارتدى قناعَ الوقار. تحسبه أحيانا وقارا وأنت حينئذ محِق تماما، وتحسبه فى أوقات أخرى مكْرا وأنت كذلك محِق تماما. كان هذا الوقار أو المكر إنْ شئتَ أن تقول، سببا مباشرا فى نجاحه سواءٌ فى محيط العمل أو فى خِضَم الانتخابات. يراه البعض خبيثا، لذلك يطلِقون عليه لقبَ "السِمَّاوي". تزوج بعد الأربعين وأنجب ثلاثَ بنات.

كان التحاقه بالعمل فى تلك الشركة أمرا مُلغِزا، لم يعرفه أحد حتى الآن، فكيف لخريج دبلوم صنايع أن يعمل فى وظيفة مِن أهم شروطها الحصول على مؤهل عال. ما حدث منذ سنوات، عندما ثار زملاؤه فى القِسم وتجمهروا أمام مكتب مدير الفرع بالأقصر بسبب عدم انتظامه وغيابه المتكرر فى العمل، كان فصلا مِن فصول عجائب قاسم حجازي فى الشركة. كان يحصل على

حوافزَ وعلاواتٍ لا يحصل عليها مَن يعمل فى الشركة بأقدامه وأسنانه، ما أَجَّج نارَ الغضب عند الموظفين وفى أروقة الفرع ترقيتُه فى وقت قصير. الغريبُ أنَّ تجمّهُرَ هؤلاء الموظفين أمام مكتب مدير الفرع قد اتُخِذ بشأنه قرارات كثيرة أهمها: الإبعاد والنقل لعدد منهم، والجزاءات لعدد آخر، والأغرب أن قاسم حجازي قد أصبح رئيسا لقسم العلاقات العامة!

– حبيبكم مين ...؟ أبو حجازي.

– مرشحكم مين ...؟ أبو حجازي.

هكذا هتف أحد الحضور الذى يحمل صورة كبيرة له، كي يقطع السبيلَ عن الرجل الذى وقف محاولا حثَّ قاسم حجازي على توضيح برنامجه الانتخابي، لكن تتابع الهتاف التأييدي أخَّره قليلا فأشار بيده، عندئذ أحاط به أتباعُه واشتد الهتاف، تاهت اعتراضات البعض وسط الأيدي المرفوعة بالبوسترات، لكنه، وهو الرجل المحنَّك، يدرك تماما أن مَن سأل هذا السؤال فلا بد أنه ينتظر الإجابة!

الأمرُ الذي حيَّر الكثيرين هو ترشحه أمام الدكتور إبراهيم الإسناوي، هذه الحيرة لم تكن بسبب أن الدكتور إبراهيم يعمل أستاذا فى كلية الطب، أو لأنه يرأس قِسم الأنف والأُذن والحنجرة بجامعة أسيوط، وأن قاسم حجازي مجرد موظف فى شركة سجاد محدودة، حتى وإنْ كان له تاريخٌ فى المجالس المحلية التي كانت

بالنسبة له البوابةَ الكبرى سواء للرزق أو لدخول عالم السياسة، لكن الحيرة التى بدأت صغيرة جدا فاقت كل شىء.

– القوالب نامت والانصاص قامت!

– ابن الفلاح الأُجَري ينزل الانتخابات قُدام سِيدُه؟

هكذا كانت الشرارة الأولى للحيْرة التى بدأت صغيرة، ثم اشتعلت على ألسنة المقرَّبين مِن الدكتور إبراهيم الإسناوي، تناقلتها كل الألسن إلى أن وصلت إلى قنا وإسنا. لكن بعض الأفاقين الذين استفادوا مِن خدمة قاسم حجازي عندما كان عضوا فى المجلس المحلي فتتوا كُتَل تلك الحيرة قبل أن تتشكل بسنوات، بأن رفعوا مِن شأنه فى كل مكان. راحوا يكذِّبون ما قاله خبثاء الدكتور إبراهيم مِن أن حجازي قَبْلَ أن يكون فلاحا أُجَريا كان "مسلوبا" يبيع الأقمشة على كتفه فى القُرى والنجوع.

***

ولدي سيد روحي وضنايا.
أمَّك تقول صبري عليك مسكينة،
صبر البهيمة تحت السكينة.
أمَّك تقول صبري عليك صبر فلاحة،
صبر البهيمة تحت دبّاحة.

كذلك كانت تُعدِّد فهيمة السعدي على ابنها سيد وهي جالسة بين النساء المتَّشِحات بالسواد، صرختْ صراخا لم تصرخه أُمٌّ على ابنها منذ بدء الخليقة، أهالت الترابَ على رأسها وشالها الأسود ووجهها وذراعيها، ثم خضَّبتْ جسدَها بالطين بعد أن عرفت خبرَ موتِه. كانت النساء يبكين معها بحرقة، تستقبل المعزياتِ القادمات لتوهن بالصراخ الحاد، وحين تُقبِل إحداهن مِن أول الطريق الرملي الصاعد إلى بيتها المرتفع قليلا عن بيوت الوادي تعلن عن نفسها صارخة:

– عَليك يا بوؤي، عَليك يا خيِّبي.

يمتزج صراخها مع صراخهن الذى يؤلف موالا كورسيا حزينا لاستقبال المعزية الحزينة، تدخل مِن خلال الباب، فترتمي فى حضن أمِّه حتى تهدأ ثورة الصراخ، ترتكن المعزية بجانب الأُخريات، وهي تجفف دموعَها المسكوبة بطرحتها، ثم تشترك معهن فى الرد على أمِّه المكلومة:

ياللي عملتي مخدتك رمله.

كنتِ دفنتِ الوَرَدْ بره،

ياللي عملتي مخدتك رمال،

كنتِ دفنتِ الوَرَدْ قُدّام.

تناوبت النساءُ ما بين ترديد العدودة وبين البكاء الساخن، كلما كانت الجالساتُ يَشعرن بطول بقائهن يغادرن على الفور، ثم يمتلئ البيت بغيرهن. أمَّا فهيمة السعدي فقدْ احتقن صوتها،

وامتزج بحشرجة جافة، فأصبحتْ تردِّد عدودتها الحتميةَ بوهن. اختلطت حكايات النساءِ شيئا فشيئا، فقلَّتْ فترات البكاء، لم تكن تعيد النشاطَ لهن إلا كل امرأةٍ تقترب صارخة فيتجاوبن معها. لم تكن العدِيد مِن النساء الباكيات يبكين بشكل خاص على سيد الطواب، وإنما على كل ميت مات لهن منذ فترة وجيزة أو طويلة. الحزن، عكس النظرية التى تقول إن كل مولود صغير يكبر، فهو يولَد كبيرا ويصغر شيئا فشيئا حتى يتلاشى. عندما أوشكت أيام العزاء على الانتهاء تحولت الحكايات مِن قصص الموت لقصص أخرى متنوعة، حكت حميدة زوجة حسن البِس عن زوجها الذى تلقَّى رصاصة عند المطحن القديم وهو يمتطي حمارَه لأنه يشبه شلتوت أبو المجد الذي كان يترقب موتَه فى كل لحظة أخذا بالثأر. لما فرغت حميدة مِن حكايتها، بدأت سيدة أُمّ عوضين الكحيل الذي اكتشف أن أخاه ربطه بالسحر ليلةَ دُخلتِه، حارَ المشايخُ جميعهم لأن الربط تم على نجمٍ بعينه، ولما أتوْا بأخيه معترفا، نسي تماما هذا النجمَ الذى اختفى مِن السماء، فقام العريس بخنقه حتى مات.

***

الغريبُ أن بعض أهالي الأقصر كانوا إذا قابلوا أقاربَ الدكتور إبراهيم الإسناوي وأعضاءَ حمْلتِه الانتخابية، يستمعون لسيرة قاسم، بل يمعنون فى إنزاله إلى الحضيض بمضغ سيرته القديمة

وبصْقِها على جانبَي الطريق. أمَّا إذا قابلوا أقاربَه يمجِّدون إنجازاتِه الواضحةَ تماما فى المدينة مِن خلال المجلس المحلي، يستشهدون بموضوع الميادين، عندما ضغط على المحافظ لكي توضَع تماثيل الكباش المقلدة فى كل ميادين المدينة، والتي استنكرها أهلُ المدينة استنكارا شديدا، ومع ذلك كان هؤلاء يرفعون مِن قدْر أبيه:

– الحاج حجازي عبود رَجل طاهر طاف حول الكعبة، وقبّلَ الحَجر الأسود، مِن البيت للجامع ومِن الجامع للبيت، نستمد منه البَركة!

عندما فطِن قاسم حجازي إلى عيبٍ كبير فى الدكتور إبراهيم الإسناوي، وهو عدم قدرته على الخطابة الجماهيرية، وعدم درايته بالسياسة وفنونها. استغلها استغلالا جيدا، فطّور مِن طريقته فى الكلام والإلقاء الشفاهي. استغل بعض أصدقائه العارفين بأمور السياسة الدولية. عَرَف منهم موضوعَ الحرب الباردة ومخابراتها وطوابيرَها الخامسة، وحربَ الكواكب وأقطابها. عرَف أيضا موضوعَ تفكك الاتحاد السوفيتي إلى دويلات وكيف أثَّر على علاقة أمريكا ببقية العالم. عرَف موضوع حرب الشيشان، وحرب أفغانستان وقضية صناعة أمريكا لأسامة بن لادن. كذلك أهمية غزوها للعراق. تَفَهَّم بصورة هادئة قضيةَ القواعد الأمريكية فى الشرق الأوسط وضرورتها لبعض الدول، والنزاعات الدائرة فيه. لكنه لم ينصت كثيرا أو يهتم بموضوع الجامعة العربية ودورها فى

توطيد الكيان العربي فى منطقة تتجه إليها كل الأنظار، وتوضع على مائدتها كل التحديات.

كان يدرك تماما أن الدكتور إبراهيم الإسناوي لا يعرف هذه الحقائق؛ لأنه لا يجد وقتا لمثل هذه الأمور، فهو إمَّا فى الجامعة يحاضر الطلاب، ويشرف على الرسائل الجامعية مِن ماجستير ودكتوراة، وإمّا فى عيادته الأولى فى أسيوط، أو الثانية فى الأقصر، فمتى يجد الوقتَ ليتكلم فى السياسة أو حتى يعرفها؟

هكذا كان قاسم حجازي يحاول أن يجد نقاط الضعف لدى خصمه المرتقب.

8

فهيمة السعدي هي الزوجة الثالثة للطواب، تختلف عن سابقتيها فى أنها ليست مِن القُرنة، وإنما مِن الريابنة، هناك اختلافات كثيرة فى أُمّ الأولاد، هي ذات الوجه السعيد الذي جاء الخير كله على يديها، فعند زواجه منها فُتحِت مقابر وادي الملوك. لأن طاقة ليلة القدر فُتحِت، فكلما تلِد طفلا تفتح إحدى المقابر مغارتها فتلفظ خيراتها.

عندما ماتت زوجة الطواب الأولى محروقةً قبْل أن تحمل منه، حَزن قليلا، ورضخ لإلحاح أمّه العجوز بأن يتزوج بأخرى حتى ترى أولادَه فى حياتها. لكن زوجته الثانية ماتت مع وليدها أثناء

الولادة فى ليلةٍ سقط فيها القمر خلف الجبل الغربي ولم يظهر إلا بعد أيام، حينئذ اعتكف الطواب فوق تلٍ مِن تلال الوادي لمدة شهرين، لم ينزل منه إلا حينما جاءته أمُّه يامنة العضَّامة تبكي عليه وعلى قَدَرِه ونصيبه، على الرغم مِن ذلك أكدت له أنها حلمت بثلاثة رجال مِن ذرّيتِه يطاولون قامته يخرجون مِن مقابر وادي الملوك.

– تَلَتْ رجاله يسدوا عين الشمس، تلت طوابين واقفين فوق الوادي، يعدُّوا البحر بخطوتين. رجاله يتكلم عنهم الناس فى كل زمان وفى كل أوان.

كما خلق الله آدمَ ونوحا، وعَمّرت ذريتهما الأرضَ،

جاء بعدهما الطوَّاب بقرون، وخرج من صُلبه طوَّابون.

وجعل حبلَ ذريته ممدودا ليوم الدين!

لم تكمِل له الحلم، وإنما حكته لأختها التي عاشت حتى وصل عمرها مائة عام، والتي نقلته بدورها لزوجة "المُغسِّل" المعمّر.

كان المُغسِّل يحكي وهو منهمك فى معالجة جسد أحد الأموات بـ "ليف النخيل والصابون الغشيم" لذويه وهُم يبكون بحرارة وحرقة على مَيِّتهم:

– مَرْتْ الطواب شافت تلت رجاله، واحد فيهم وِشّه منوّر، تحت رجليه عيال وِشّهم زي الطوب الأحمر، والتاني وِشّه مطفي، واقف فوق راسه غراب أسود ينوح كل فَجرية فوق النخيل، والتالت لحيته

غزيرة، تحت رجليه عيال تحوم حواليهم الطريشات والحيَّايا والعقارب، قدامهم بير عميق بلا قاع.

ربما سمع خليفة الطواب عن تلك الحكاية فى ساحة الشيخ البصري بعد أن التحق بها بعامين، لكنه لم يفكر فيها كثيرا، وحسِبَها أحلاما مثل أحلام كل "الحريم الفَقْرية". لكن سالم الطواب عندما سمعها مِن مُغسِّلٍ آخرَ أعطاه مائة جنيه. كان خليفة الطواب يعرف تماما أنهم هُم الثلاثة (وَلْدَهْ كَبَرْ) أنجب أبوه خليفة وسيد بعد أن بلغ الخمسين مِن عمره، أما سالم فقد جاء بعد أن بلغ سن الستين.

يتذكر خليفة الطواب أحيانا لحظة موتِ أبيه، حينما تكدست سقيفة بيتهم بالناس، والموتُ يحوم حول الطواب الذي تيبست أطرافه، مازال صراخ أمِّه وبكاء النساء يتردد فى أُذنيه حتى الآن. كان قد أصيب قبْلها بـ (فوته) جعلت جانبه الأيمن يتوقف تماما عن الحركة، حتى أن شفتيه قد التوتا فلم يعد يستطيع الكلامَ أو البوح بأسراره وكنوزه. ساعتَها قال البعض إن لعنة الفراعنة أصابته، قال آخرون إن المخزن الذى كان يضع فيه التماثيل قد سُرِق. لكن مات الطواب وسره وسر (الفوته) ماتا معه.

لم يذكر سالم الطواب أبدا أن أخاه سيد مات أو سقط فى بئر المقبرة، وإنما أخبر أمَّه وأخاه خليفة والجميع، أنه تدحرج مِن ربوة عالية مِن ربوات الجبل. وأن الجروح والكسور التى اكتشفها طبيب الصحة ساعةَ أن طلب منه تصريحا بالدفن، قد عللها بارتطام

رأسه بحجر أسفل الربوة، لم يناقشه الطبيب كثيرا، وكَتب التصريح على الفور.

ظل سالم طوال تشييع الجنازة يبكي بحرقة شديدة ويردد خلفَه آخرون:

– على ما حكم الله يا خُوى، أمر الله كاين يا خُوي، الدنيا والدوام لله يا خُوي.

طول فترة العزاء ظَل سالم الطواب صامتا، يجهش بالبكاء فى بعض الأحيان، عندما كان يقترب منه أحد الرجال ويسأله عن سبب الوفاة المفاجئة:

– المرحوم كان عيَّان، ولا مات موتة ربنا؟

فكان يرد دائما وهو مغمض العينين:

– وَقَعْ مِن فوق الجبل.

هكذا كان يرد على السؤال نفسه بالإجابة نفسها لكل الفضوليين وهُم كُثر، هي الإجابة نفسها التي اتفق مع أمِّه على ترديدها، لكنها لم تكن ترُد بثباتٍ مثله على أسئلة النساء الأكثر فضولا مِن الرجال، بل كانت ترد ببكاء متقطع، وتكمل كلامَها بترديد العدودة التى تتحمس لها كل الموجودات فى البيت.

لم يقترب أحد مِن خليفة الطواب، فمعروفٌ عنه الانطواء، يبدو لمن لا يعرفه بأنه غير مهتم لموت أخيه، لم يَذرِفْ دمعة واحدة عليه، فكان يقف مثل أخيه وأقاربه عندما يدخل أحد المعُزين المندرة لتقديم واجب العزاء، لا يفرِّق القادمون بينه وبين أخيه

سالم، أو حتى أخيهم الفقيد إلا بصمته المطبِق، بالرغم مِن أنه أكبرهم، لكنه لم يقُم بهذا الدور الذي تُحتِّم عليه الظروف القيامَ به، وهو تَولي مسؤولية "الَمَحَصَرْ"، والمرور بين "الدِكَكْ" لمعاينة الوجوه حتى يعرف مَن قام بالعزاء ومَن لم يأتِ. لكنه كان فردا ككُل الأفراد.كأنه أتى للعزاء لكنه نسي أن يغادر!

***

ربما تشابها فى التكوين الجسدي، فالطول واحد والنحافة تطابقت عليهما، أمَّا اللون فكان مختلفا، فلون أحمد الضوي يميل إلى اللون الخمري، بينما كان بياض الدكتور عبد الحكيم هاشم مِن النوع الشفاف، الذي يتحول سريعا إلى اللون الأحمر كلما غمرته السعادة، ويعود إلى لونه الطبيعى بعد فترة وجيزة، أمَا شَعر الدكتور عبد الحكيم هاشم فأسود تتخلله خصلاتٌ بيضاء، خفيف بطبيعته، يُخيل إليك أن أي ريحٍ حتى ولو كانت ضعيفة يمكن أن تقتلع خصلاتِه، بينما بدا التصحر واضحا على شَعر أحمد، بدءا مِن جبهته حتى نهاية الثلث الأول مِن رأسه.

كلما كانا يتقابلان تتلامس أكتافهما، كأنهما لم يلتقيا منذ زمن بعيد، يربت كل منهما على ظهر الآخر. لم يكن اختلاف الأقسام فى كلية الآداب ليقوِّض صداقتهما، أو ليتسبب فى فتورها منذ أن نبتت قويةً فى نهاية امتحانات الثانوية العامة، وإنما كان عاملا مهما فى توطيدها، فدخول أحمد الضوي قِسمَ التاريخ جاء بناءً

عن اقتناع ورغبة، وعن حُلمٍ حاول تحقيقه منذ صغره، بل كان يتمنى وهو فى الثانوية العامة أن يؤلِّف كتابا عن تاريخ مصرَ على مَر العصور. بدءا مِن التاريخ القديم حتى التاريخ المعاصر، كان عبد الحكيم هاشم، صديقه الذي كتَب فى بطاقة الرغبات قسمَ الآثار، يرى أن القِسميْن هُما توأم لا ينفصل، وهو أيضا أول مَن كان يستمع إلى فقرات تحليلية للكتاب المُتخيَّل.

– عزيزى القارئ.. لا تندهشْ كثيرا عندما تقرأ فى كتاب "التاريخ الجديد لمصر" الذى يتناول أحداثا تاريخية ليس لك عهدُ بها، وهي إنْ كانت غريبةً بعض الشئ، فلا تبعد عن الحقيقة قيْدَ أُنملة. أمّا الشخصيات التاريخية فلنا فيها قولٌ فصل، أهيب بكم أن تتخلوا جميعا عن أي أفكارٍ مسبقة تنحو بكم إلى مَنحىً ليس لى فيه ذنب، وإنما أكتب لكم التاريخَ برؤية جديدة، أحداث جديدة تماما، شخصيات مختلفة، ورؤية تبعد كل البعد عن أي أيديولوجية مسبقة قد تكبِّل قلمَ المؤرخ الذي يتصدى للأحداث التاريخية. تاريخ جديد ينسخ ما قبله...

حينئذ قاطعه عبد الحكيم وقد احمرت وجنتاه:

– مقدمة جديدة، رصينة وبليغة. بالفعل نحن نحتاج لإعادة صياغة التاريخ.

استطرد أحمد وجماهير العرق خرجت على جبهته مستمعة، فقال:

– يُحاسَب كل مَن زوَّرَ التاريخ لصالحه، (فصل كامل لمحاكمة هؤلاء المزوِّرين عبْرَ التاريخ) فإذا راجعتَ عزيزي القارئ كلَّ

الحِقَب التاريخية ستجد أن كل عصر مِن العصور يؤهل ويكيف الحقبةَ التى سبقته لصالحه، وربما يطمر بعضَ الحِقَب كما يطمر الطينُ نقوشَ الجدران القديمة، أو يضع بعض الشخصيات فى الظل لأنها كانت تعارضه فى ذلك الوقت. هؤلاء السَّاسة أو المؤرخون الذين يُطوِّعون قِوامَ التاريخ لصالحهم ماتت ضمائرهم، وانطفأت شعلة أمانتهم. لماذا لم يسلِّط المؤرخون الضوءَ على تاريخ الفتح الاسلامى لشمال وغرب إفريقيا كما ينبغي؟ هل عَرَفوا أن قصة حرق طارق بن زياد لأسطول جيشه بعد غزوه للأندلس، حقيقة أم كانت أسطورة؟ لماذا تَخطَّى المؤرخون حقبةَ ثورة 23 يوليو بعد تولي محمد نجيب، ولم تأخذ حقها مِن السرد التاريخي وتحليلها سوسيولوجيا أو سيكولوجيا؟ نحتاج لكتابة التاريخ مِن منظور آخر، مِن منظور اجتماعي وأنثربولوجي، مِن منظور نفسي. لماذا يأتي كل حاكم ليُظهِر مساوئ مَن سبقه؟ ويجعل المؤرخين (الذين يكتبون التاريخَ وفقا لأهواءهم) يطمرون إنجازاتِه لأن عصره قد انتهى؟ نحتاج لكتابة التاريخ كما هو دون تزييفٍ أو تحايل أو طمر لحقائقَ حدثت بالفعل.

– تحتاج مصر لمؤرخين أكفاء يعملون بشكل محايد. لابد أن تغلف الأمانةُ والصدق صفحاتِ التاريخ.

– بعد حصولي على الليسانس، سيكون الكتاب بين أيدي القُرّاء.

ساعتَها تصبب العرق مِن جبينه، شَعَر بحميةٍ غريبة تنتابه، كأنه يؤلِّف الكتابَ الآن تحت صليل السيوف وهدير المدافع وانفجارات القنابل النووية.

9

لم يكن خليفة الطواب مثلَ أخويه سيد وسالم يهوى الآثار، كان صمتُه يُشعِر الآخرين باللامبالاة نحوهم، يعرف أبوه عددَ رمالِ البر الغربي، أمَّا إذا سألتَ خليفة عن جيرانه فيتردد فى الإجابة.
لم يَعرف أحدٌ سببَ التحاقِ خليفة الطواب بساحة الشيخ البصري بالتحديد، فحسْبَ روايةِ زوجته التي أكدت أنه كان مِن صغره يذهب للساحة فقد كان يحب "مجالس الذِّكْر وولائم المخروط"، وروت لابنها عبد الستار عندما بدأ يعي الأشخاص، أن أباه استيقظ ذاتَ صباح ثائرا على غير عادته، اندهشتْ لثورته وأيقنت أن جانا قد مسه. فى الوقت نفسه أكدت له رواية جَدَّته عندما قالت إنه كان يبيت فى الساحة عدة أيام حينما كان يغيب أبوه مع البعثات الأثرية.
– خليفة الراجل الغلبان الذي لا تبين أسنانه يثور؟
هكذا كان يردد أخوه سالم للآخرين – لينفي كلام زوجته– للذين سمعوا بأن خليفة التحق بالساحة، وترك زوجته تكافح لكي تنفق على أبنائها الثلاثة. لم تتعجب سكينة مرعي كثيرا عندما أهملها

فى الفِراش قبْلَ أن يهاجر مِن البيت الهجرة الكبرى، فقدْ كانت تتوقع ذلك منذ سنوات، كان شجارُها الدائم معه بسبب تكاسله، وعدم مراعاته للبهائم التى يتاجر فيها، فنَفَق الكثير منها.

كان فى صِباه يميل إلى الخلوة، فتجده يعتلي ربوةَ الجبل الغربي، ينظر إلى النيل البعيد الذى يبدو له كمجرى مائي صغير. عندما كان يضغط عليه شقيقاه سيد وسالم بأن يتسابقوا مع بعض الصبية، يوافق على مضض، لذا كان الوحيد الذى يتأخر عنهم، فيتهمونه دائما بالعاجز!

كذلك الحال عندما جاء عليه الدور ليتزوج لم يُبدِ رأيا فى تلك المسألة، وإنما تكفل أبوه بكل شىء، بدءا مِن بناء بيت له على ربوة بالقرب مِن جبانة القرود، حتى اختيار العروس.

لكن عبد الستار سمع مِن آخرين أن أمَّه كانت متسلطة، يهابها أبوه، فيجد ملاذا ومتعةً فى البقاء خارج البيت، عثر على ضالته فى ساحة الشيخ البصري، حيث التمايل فى مجالس الذِّكْر وتناول الطعام والنوم. سمع مِن آخرين أن خلافَ أبيه مع أمِّه بسبب التنقيب عن الآثار، فقد كانت سكينة مرعي تحثه على التنقيب عن الآثار مثل أبيه ذي الباع الطويل فى هذا المجال، لكنه كان يمقت الآثارَ مما سمعه مِن الاتهامات التى كانت تزحف على الرمال كالثعابين مِن أن أباه سَعى لنهب الآثار وتهريبها خارج البلاد.

سالم الطواب قال بعد عشر سنوات لمن كان يقول إن ما أصاب خليفة كان مُحيرا، ووصفه بأنه متردد ولا يعرف ماذا يريد، أكد أنه طلب منه أن ينقبا عن الآثار فى مقابر وادي الملوك، واتفقا أن يذهبا فى الفَجر، لكن خليفة تأخر وعندما ذهب إليه سالم سأله:

– ليه تأخرت يا خليفة عن ميعاد الحفر؟

رد خليفة وهو يحك شَعره ولحيته:

– الآثار للموعودين من البشر، لن أحفر إلا قبري.

لكن المؤكد أن خليفة لم يَحكِ مع أحد حتى الآن عن سبب هجره للبيت وهجرته والتحاقه بالساحة. لم تعوِّلْ سكينة مرعي كثيرا على رحيله، فآثرتْ أن تقود زمام البيت وحدَها.

لما كبر عبد الستار ووصل لسن التاسعة مِن عمره، قال لأمِّه:

– ليه يامّه سبتي أبويا يروح الساحة ويسيبنا إكْده.

لكن سكينة مرعي التي اشتد عودها، وقادت البيت بالأولاد أرادت أن يعرف أبناؤها فى النهاية أنها لم تقصر فى حق أبيهم فقالت له حينئذ:

– رحت لبوك فى ساحة الشيخ البصري واتْرجيتَه، وحبِّيت على رِجلَه عشان يرجع البيت، رفض، بعد إكده دخلت للشيخ البصري بنفسَه، وحكيتلَه عن خليفة اللي همَّلني وهمّل البيت، وجِه الساحة، لكن الشيخ قالّي إن الساحة للموعودين، واللي وهَبه الله للساحة ميطلعوش العبد.

***

– ما أحلى تناول الطعام عند آمون.

هكذا ردد عبد الحكيم هاشم وهو يفرك يديه، عندما فرغ مِن تناول الطعام مع صديقه، سمع زوجة أحمد تردد مِن المطبخ على ضرورة اصطحابه لزوجته فى الأسبوع القادم، فقطب جبينَه على الفور، وارتفع الدم فى شرايينه فاحمر جسده، كل ذلك وهو يخفي وجهه فى صدره، لكن صديقه لاحظ ذلك التغير فغيَّر الحديثَ قائلا:

– هل تتذكر أيامَ الجامعة، ومناقشاتنا بخصوص التخرج وما بعد التخرج، ورؤيتنا وأحلامنا فى المستقبل؟

لم يرد عبد الحكيم وإنما هز رأسه، فتعلقت الابتسامة فوق شفتيه. لكن زوجة أحمد لم يعجبها إحجامه عن الرد عليها، كما إنها أيقنت أن زوجها قد غيَّر الموضوع، فاقتحمت غرفة الجلوس وقالت بصوت حميمي دافئ:

– أخبار مُنى إيه؟

– مُنى مشغولة هذه الأيام مع المشايخ.

أثار رد عبد الحكيم انتباهَ أحمد، ففتح عينيه ثم أغمضهما نافرا مِن زوجته عندما ألقت بحصاه فى الماء الراكد، حاول بذكائه أن يَسحب بساط الحديث الذي وطأته زوجتُه بقدمَيها المتشققتين، نظر مِن خلال النافذة فرأى قليلا مِن السائحين يدخلون مِن خلال البوابة الحديدية المؤدية لمعبد الكرنك فقال:

– يبدو أن موسم السياحة هذا العام سيكون ممتلِئا.

رد عليه عبد الحكيم محاولا الخروجَ ولو بشكل مؤقت مِن الدائرة المظلِمة:

– كل الشركات السياحية متفائلة، لديهم حجوزات حتى شهر أبريل مِن العام القادم، هذا خير للبلد.

لكن هذا الكلام سقط على الأرض قبل أن يصل إلى أُذُن زوجة أحمد بسبب انشغالها بموضوع مُنى، فأوقف كل المحاولات التى يبذلها زوجها لتغيير الموضوع، بينما أدرك عبد الحكيم أنها لن تغادر دون أن تعرف أخبار صديقتها فقال متنهدا:

– مُنى تخلت عن العلاج الطبي، وتبحث عن الإنجاب عن طريق المشايخ ..

ذهبت دُرية زوجة أحمد الضوي منذ أربعة شهور لزيارة مُنى عبد القادر، وتطرقتا لموضوع الإنجاب، وكيف تأخر!

على الرغم مِن أن دُرية مبروك زوجة أحمد الضوي وفى نفس الوقت ابنة خاله لم تحصل على شهادة، فهي لم تكمل الابتدائية، إلا أنها كانت تفهم ما يدور حولها، هي مِن ذلك النوع مِن النساء اللاتي يتعلمن مِن الحياة ما لم يتحصلن عليه مِن التعليم. تعرف كيف تتعامل مع الكبار ومع الصغار. تعرف كيف تتناقش، وكيف تُقنع الآخرين.

أدركتْ دُرية حينئذ حجمَ المأساة التي تعيش فيها مُنى. تناولتا موضوع الأطباء، وراجعتا معا أسماء الأطباء المشهورين فى موضوع تأخر الإنجاب، مثل الدكتور صابر رشاد المتخصص

فى علاج العقم وتأخر الإنجاب. حينئذ صارحها بأن ليس لديها ما يؤخر الحمْل، خصوصا بعد تعرضها للإجهاض ونزول جنين غير مكتمل، مما يرجِّح إمكانية الإنجاب. صارحت مُنى عبد القادر صديقتَها دُرية مبروك بخصوص نيتها للذهاب للمشايخ. لذلك عندما تحدث عبد الحكيم أمامهما لم تندهش، لكنها كانت تنتظر أن ترى رد فعلهما بخصوص هذا الأمر.

أطرق أحمد الضوي ونكست زوجته رأسَها فاستطرد عبد الحكيم قائلا:

– تصوَّر يا أحمد.. أنا تكلمت معها كتيرا، وقلت لها إنها خرافات لا يصِح أن نتبعها فهي مِن أفعال الشيطان، ومريديه مِن القدماء، لكنها تسمع الكلامَ مِن أُذن وتخرجه مِن الأخرى، كانت تردد لى بأننا أفنينا سنواتِ العمر بحثا عن العلاج الطبي.

أدرك أحمد حبالَ الضيق التى التفت حول رقبة صديقه. فحكى له ما اكتشفه فى المدرسة مِن فساد الوكيلة ومدير المديرية فراج خضري الذي تفرغ للسمسرة فى الأراضي، وعلاقاته مع العصابات التى تستولي على الأراضي. كان عاملا مِن عوامل ارتفاع سعر الأراضي، خصوصا بعد خريطة "الإزالات" التى قام بها المحافظ فتشرد معظم السكان. كذلك أطلق أيادي البعض مِن موظفي مديرية التربية والتعليم فى بيع تأشيرته وتأشيرة المحافظ للقبول فوق الكثافة فى مراحل الحضانة والابتدائي.

– أصبح حال المديرية يُرثَى له، كأننا نعيش فى شيكاغو، لا تستطيع أن تنجز شيئا إلا لو دفعتَ المقابل، الرشاوى حق مكتسب، حتى وصل الحال لتبنى مقولة سادت فى كل المصالح الحكومية "الرشاوى للجميع" الفساد هنا يا صديقي عميق ومتجذر، عبارة عن تكتلات وتحالفات، دوائر خاصة جدا تضم أشخاصا لهم مواصفات معينة، إنهم يعرفون ويشمون رائحةَ بعضِهم بعضا. تجد هذه الدائرة فى كل مكان وفى كل مصلحة. هؤلاء الأشخاص مترابطون، يخاف كل عضو منهم على الآخر، ويرفع مِن شأن الآخر. هذه الدائرة هي المسئولة عن مُقدرَّات البلاد، عن كل شيء، بدءا من التعيينات الجديدة، والترقيات، وأحيانا عن الحوافز، وعن تفصيل بعض الوظائف على بعض الأشخاص، كما أنهم يهتمون برؤساء الأقسام وفلسفة اختيارهم فى كل مكان. أيضا مسؤولة عن إنشاء الطرق وكردون المبانى وترخيصها وحدود الأراضى الزراعية. باختصار نحن نعيش فى دولة عميقة.

– ناقِشْ، اعترض، الجأ لمن هو أعلى؟

– تناقش مَن؟ تعترض على مَن؟ إنها دائرة مغلقة كما قلت لك، الشكوى التى ترسلها تسير فى خط معين. يحرسها أعضاء هذه الدائرة، حتى تعود لمن بيده الأمر مرة أخرى للتصرف فيها. مِن السهل معرفة مُرسلها عن طريق عيونهم المنتشرين فى كل مصلحة إذا كان المُرسِل فاعلَ خير، ساعتها تُفعَل بك الأفاعيل. ذات مرة بعثتُ بشكوى للمحافظ، وجاء الرد عن طريقهم، بأنهم

لابد أن يتخذوا قراراتٍ حاسمةً بشأني حتى يُكسِّروا مجاديفي فأوقفوا ترقيتي.

زاد صمت عبد الحكيم هاشم، فتكدس صمتٌ فوق صمت، وحزنٌ يعلوه حزن، ركضت فلول الاكتئاب إلى وجهه، فاعتلته وانقضَّتْ عليه، فأدرك أحمد ما يعتمل بداخله.

أشار إليه بالصعود معه إلى سطح المنزل، وعندما صعدا تنفسا بعمق.

عندئذ تفجرت الموسيقى التصويرية مِن بين بهو أعمدة معبد الكرنك، ومِن تحت أقدام التماثيل العملاقة لتعلن عن بدء عرض الصوت والضوء، فتعلقت أنظارُهما بالمَشاهِد الضوئية المصاحبة لأصوات الممثلين الرخيمة، والموسيقى المدوية فى آن واحد.

10

الحكاياتُ التى كثُرت عن عثور سالم الطواب على كنز أثارت شجونَ سكان الوادي، فتناقلتها الألسن فى الأسواق وفى "المنادر" وأمام البيوت فوق العتبات حيث تجلس النساء بعد المغرب، نقلتها الديدان الحمراء والخنافس جواسيس العقارب، لكل الآفات التى تختبئ فى الجحور ولم تخرج فى هذه الآونة. أمَّا الشباب الذين يعملون بالسياحة، فأخذتهم الحمية وراحوا يحفرون فى بيوتهم فى قلب الصمت. حرَّف البعض فى جنبات السكون مقولةَ الطواب

الأكبر أن الوادي يضع فى بطنه خيراتٍ وكنوزا هائلة وآثارا وذهبا.

لا أحد يعرف حتى الآن المكانَ الذى خبَّأ فيه سالم الطواب الكنوزَ التى نقلها من المقبرة، حتى أن الشرطة فتشتْ بيتَه وبيوت القرنة بأسرها بحثا عنها، عندما أعياهم البحث وضعوا عليه مراقبة مستمرة لعلَّه يتصرف تصرفا ينبئ عن مكان الكنوز. لكن قصص الحفر المتتابعة جعلت المراقبة عليه تفتر بسبب اتجاهها نحو وشايات الحفر الجديدة، فكان كلما يحفر رجلٌ فى بيته تجد شخصا ما يشي به، لكن الحذر الذى تعلموه واكتسبوه من السابقين جعلهم يردمون الحُفر سريعا قبل وصول "بوكس الشرطة". تعلَّم كل واحد مِن الذين يتجرأون على الحفر أن يردم على فمِه ترابا حتى لا يخرج سره فتتلقفه الآذان فوق رمال البر الغربي.

عندما طرح عبد الستار فكرةَ الحفر فى البيت على أخيه فتحى عند "المعدِّية" وجد لديه الهاجس نفسه، بل إنهما راحا يرددان النعيم الذى يعيش فيه عمهما سالم وأولاده بعد عثوره على الكنز. حتى قال عبد الستار بصوت منهَك:

– إحنا ولاد فقر، لو أبويا مكان عمى وهو اللى لقي الكنز، كان حالنا اتغير.

هكذا قال عبد الستار وكأنه يخرج مِن جوفه كنوزا مِن الضيق والهم اللذيْن يُكِنَّهما فى صدره.

رد عليه فتحى والابتسامة متعلقة بفمه:

– خليك متفائل يا عبستار، وحُط فى راسك إن الكنز واللَّقِية للموعودين.

رفع عبد الستار رأسه وطاف بها فوق الجبل، كأنما يبحث عن كنز جاهز يخلصه من آلامه النفسية التى جثمت على أفكاره، ثم قال مستنكرا:

– واحنا ليه ما توعدناش؟ عشان إحنا ولاد فقر، اتخلقنا للفقر وعيشة الفقر.

– يعنى انت كنت عاوز أبوك يدوَّر على كنز زي عمك؟

هكذا قال له فتحي، ليمتص بعضا مِن همومه التى يُكِنّها منذ سنوات.

– أبوك يدوَّر على كنز؟ أبوك اتولد عشان الساحة وحيموت فيها.

أشرق وجه فتحي عندما سمع كلمة الساحة وقال مؤكدا:

– إحنا عايشين ببركة الساحة يا عبستار، كمان أبوك راجل صالح.

رد عليه عبد الستار واتسع فمه قليلا:

– يعني عمك اللي كَفَر؟

– أنا مقلتش كفر، لكن كل واحد وليه نصيب من الدنيا.

أشاح عبد الستار بوجهه صوب جبل القرنة وقال بصوت متحشرج:

– واحنا نصيبنا الفقر!

سار فتحي صوب النهر قليلا، ثم عاد مقتربا منه وقال:

– إحنا ممكن نغير الوضع دا لو حفرنا فى البيت ودوَّرْنا على اللقية.

حكى عبد الستار لفتحي عن وحي الصرخة، ثم دفن نظراتِه فى الرمال التي يقف عليها، كأنه يبحث بنظراته عن اللقية التى ستغير حالهم، بينما تاهت نظرات فتحي فوق صخور الجبل السوداء، انصهرت فوق اللهيب المكتنز به.

صوت "المْعرّف" الذي يقود المعدِّية مِن الشاطئ الغربي إلى الشاطئ الشرقي ارتفع معلِنا الإبحار، فأيقظ عبد الستار وفتحي من الحلم الذى اكتنفهما. عادت جحافل التشاؤم إلى عبد الستار فقال وهو مغمض العينين:

– ما تنساش إن لكل كنز أو لقية ضحية، وعمك سيد كان ضحية الكنز اللى اتمتع بيه عمك سالم.

– دي أقدار يا عبستار، كفياك تشاؤم ياخي، أنت راضع فقر.

العلاقة بين عبد الستار وفتحي كانت كالمد والجذر، فكلما كان عبد الستار يؤجج الأمور، كان فتحي ينثر عليها برودة بكلامه وبحلوله الأكثر منطقية، لذا فكان فتحي هو العقل المفكر فى البيت، وإنْ كان الأصغر، كان فى صغره يساعد أمَّه عندما تذهب لسوق الثلاثاء أو حتى سوق الخميس فى أرمنت. ربما أكسبه ذلك درايةً وخبرة أكثر من عبد الستار الذى يركن إلى للراحة.

– أحسلك تروح عند ابوك فى الساحة، وتاكلوا انتوا لتنين ع البارد.

هكذا كانت تقول له أمُّه عندما تراه بلا عمل، لكنه لم ينسخ أباه، أو حتى أمَّه.

هناك بعض الناس يحبون الراحة، ولا يلجئون للعمل بإرادتهم، لكن عندما يحثهم شخص آخر على العمل، فيقدِمون عليه، وإنْ كرهوا القيام به فى البداية، ثم يصبح عادة لديهم، لكنهم فى الوقت نفسه لا يستخدمون عقولهم، هكذا كان عبد الستار الطواب، فهو لم يرث عن أبيه الاسترخاءَ التام الذى لاذ به فى ساحة الشيخ البصرى، ولم يرث أمَّه فى دأبها المستمر لتوفير نفقات العيش لهم، لكنها استطاعت أن تحث عبد الستار أن يعمل مراكبي لسنوات، عندما كره تلك المهنة، ظل فى البيت لمدة عام دون عمل، إلى أن طلبتْ مِن مكى أبو سكيرم صاحب "الرفاصات" التى تُقِل الركابَ مِن أرمنت إلى الأقصر عبْرَ النيل. فعيَّنَه ليجمع أجرة الركاب فى البر الغربي. لكنه ما لبث أن كرهها بعد شهرين، وإن كانت قائمة على الجلوس وجمع الأجرة دون أدنى جهد

***

إذا قُدِّر لك أن تقابل قاسم حجازي ومحمود العادلي ستكتشف عالما غريبا جدا، سترى جدارا هلاميا رقيقا كالغشاء الذى يغلِّف الجنين، ربما تتيح لك هواجسك بأنهما توأم مع أنهما بعيدان كل

البعد عن هذا الاحتمال، سيقودك هذا الإحساس الخاطئ والحرج الذى انتابك أن تلمس هذا الجدار، لعلَّك تصل إلى كُنهه وطبيعته. لا يمكن أن تراه مِن على بعد، حتى ولو كان معك تلسكوب، أمَّا إذا اقتربتَ وحاولتَ أن تلمس هذا الجدار ستعرف أنه صلْد وفولاذي، لكن إذا بلغ منك الشططُ قدْرا وحاولتَ تمزيق هذا الجدار إذا كنتَ مازلت مُصِرًّا أنه غشاء هلامي هيِّن، ستصاب يدُك بالاحتراق أو بالبرص. عندئذ تصل إلى مرتبة الأولياء الذين لم يصلوا إلى هذه المرتبة عبثا، بل يصِلون إليها بعد معاناة ومكابدة، ستؤمن حينئذ أن الصداقةَ لها معانٍ شديدةُ التعقيد لا يفهمها إلا الصفوة. أمَّا إذا طال بك العمر فسوف ترى تجلياتها عليهما. ستدرك تماما أن معانى الصداقة التى تحدَّث عنها الفلاسفة والكُتَّاب زائفة، وأكبر دليل على ذلك انقطاع حبلها إذا شد أحدهما طرفا.

كان قاسم حجازي يؤمن تماما بأن الوصول إلى أي قمة لا يحتاج إلى قدرات خاصة يتعلمها المرء فى أكاديميات أو دورات تدريبية، بل إلى حاسة يولَد بها، لا تجدها فى كل الناس. هذه الحاسة اكتشفها ذات مرة فى محمود العادلي فى بداية علاقتهما. كانت محلات العطارة البوابةَ التى فتحها محمود لقاسم كي يتقرب بها لمسئولي الحزب فى القاهرة. فى الوقت نفسه يفتحون هذا البابَ أو أي باب آخر لمن يجدون فيه الصفاتِ التى حدَّدَاها منذ سنوات، لم يُعلِنا عن هذه الصفات، لكنك يمكن أن تستشفها إذا

كنتَ شديد الملاحظة، ولن تستطيع أن تقتحم جدارهما كما قُلنا مِن قبل.

كان محمود العادلي عندما يجلس بالليل مع قاسم حجازي وبعض الأصدقاء يؤكد لهم أن الهدايا التي يرسلها للمسئولين لا تعتبر رشوة؛ لأنه لايطلب مقابلها خدمة فى الوقت نفسه، وإنما يقدمها لفتح "حساب جاري" للصداقة، والصداقة ثمينة جدا، كلما تقدِّم الهدايا فإن رصيدك من الصداقة لدى هذا المسئول يزيد، (سيكون أكبرَ مِن تبرعك بدمك أو بعضو من أعضائك لصديقك)، ربما تنتهى فترة وجوده فى الأقصر قبل أن تطلب منه خدمة، لكن إذا واتت الظروف واحتجتَ منه هذه الخدمة فلن يتأخر فى تأديتها، فربما يتوانى عن واجبه من أجل تقديمها. انتشرت هذه المقولة التي اعتبرها أصحاب المصالح من المأثورات، إذا تفلسفتَ فى يوم من الأيام وارتديتَ عباءة الإيمان، وحاولتَ أن تقنع أحدهم بأن ما يفعلونه رشوة فإنك ستخرج مِن بين أيديهم أُميّا لم تفُك الخطَّ فى يوم من الأيام.

محمود العادلي صاحب أشهر محلات الملابس، عنده أكبر دكاكين عطارة فى شارع المنشية. شابٌ فى نهاية الأربعينيات من عمره، قصير إلى حد ما، عندما تراه لا تقول عليه إنه قصير، لكنه عندما يقف مثلا بجوار قاسم حجازي تقول ذلك. يصفه بعض تجار العطارة لمن لا يعرفه بأن "رِبْعَة" أي لا هو طويل ولا قصير، وإنْ كان يميل إلى القِصَر. لون بشرته يميل إلى اللون

الخمري، شعره مجعد، لكنه يعتني به فيضع له "الجيِّلْ" فيظل لامعا حتى آخر النهار.

لا أحد يعرف على وجه التحديد أصلَه، يقول البعض إنه أتى طفلا مِن بني سويف فى منتصف السبعينيات لزيارة مولد "أبو الحجاج "مع أبيه وتاه منه أثناء" الدُورَة". عمل فى مجال العطارة مع أحد كبار العطارين. على الرغم من ذلك فإن علاقاتِه الواسعةَ والألفة التى تشعر بها عندما تقابله تجعلك لا تفكر فى أصله أو عائلته، مثله مثل الكثيرين من الغرباء الذين استوطنوا الأقصرَ منذ سنوات واندمجوا مع أهلها. (لكن عندما يفشل أحد المواطنين الأصليين فى أحد المشاريع يقول البلد بلد الغُرْبْ) أمَّا موضوع العائلة فكان يُذكَر فقط عند الزواج وعند الموت، فيما عدا ذلك "فكل الناس أمَّة واحدة." هكذا كان يقول البعض عندما يُذكَر اسم محمود العادلي، أو عندما يتواجد شخص مهم ليس له أصل معروف. هو مِن النوع الذى إنْ عرَفتَه تكتفي به، لا يترك لك الفرصة للنظر إلى ما وراء الغشاء الهلامي الذى يحيط به.

كان طموحه كبيرا فلم يكن ينفق أجره بل يدَّخره، حلو الكلام، مما جعل للمحل زبائن دائمين، يأتون خصيصا من أجله، عندما أدرك صاحب المحل ذلك، ورأى بعينيه زيادة إيراداته، ترك له المحل وتفرغ لإدارة المحل الجديد بشارع التلفزيون.

هكذا وجد محمود يدير المحل بنفسه، فكان لا يتورع فى أن يُجنِّب لنفسه مكسبا يراه حلالا لا يحتاج لشيخ أو مفتٍ: "إذا كان

المكسب مضاعفا، فلابد مِن اقتسامه." هكذا كان يحلل لنفسه ما يقوم به، ولِمَ لا؟ فالمحل قائم على أكتافه، والكساد الذى كان فيه المحل غارقا، ما كان لينقذه منه حتى ولو خرج "أبو الحجاج" من مقامه، أمَّا الزبائن الذين كثُر عددهم، فله الفضل الأكبر فى استقطابهم، فصاحب المحل كما يقول أهل الأقصر "نِكدي، ووِشه عفش".

11

خرجت الصرخةُ مِن بين أيديهم ومِن خلفهم، فهبَّوا مِن نومهم جميعا مترنحين، كأن كابوسا مفزِعا داهمهم فى وقت واحد، تخبطوا وهُم يهمون بالبحث عن مصدرها، أنار عبد الستار السقيفة، بينما دارت أمُّه حول دائرة واسعة، تابعها فتحي بنظراته، لكن ثريا راحت تبتلع شهقاتها مجاهِدةً أن تتبين صورة الجدران المهتزة. وقفتْ تثَّبت صورة أمِّها وأخويها التى بدت لعينيها كدخان متراكم، اختلطت تلك الصورة الهلامية مع أحلامها، فمزقتها الصرخة التى أوقفتْ كل الخيالات.

توقفت سكينة مرعي عن الدوران الذى لم يفهم عبد الستار سببه، اقتربَ منها، دقت بقدمها، هنا عاد الوعي إليهم جميعا، أدركوا أنه لم يكن كابوسا، وإنما صرخة حقيقية أمسكت بتلابيبهم قسرا، كى يفيقوا لليلة القدْر التى تنتظرهم. دقت بمطرقة الفزع فقاموا

متوجسين، فأصبحت صرخة النوم والتيقظ. صرخة الحلم والحقيقة. فكان موعدهم معها الفَجر، ظلوا حتى الصباح لا يتكلمون وكأنهم ميتون. كان عبد الستار قد حكى لهم عن وحي الصرخة التى سمعها من قبل فى الوادي، لكنهم لم يفهموا معناها أو مغزاها، قالت له أمُّه عندئذ إنها كانت تسمع الصرخة منذ الصغر.

قال الطواب الأكبر للشيوخ الذين أصبحوا حكماءَ ذات مرة إن هذه الصرخة هى إحدى صرخات الأرواح فى مقابر وادي الملوك التى ظلت تهيم أياما قبل أن تعود لأجسادها.

لكن الدكتور عبد الحكيم هاشم قال، وهو يشرح الفصلَ الأول من "كتاب الموتى" والفصل السابع من "كتاب الكهوف" لطلاب الفرقة الثانية فى قسم الآثار بكلية الآداب، إن هذه الصرخة موجودةٌ مِن أيام حتشبسوت عندما جيئ بموكبها من معبد الكرنك فى البر الشرقي وهى محمولة على المحفة، حولها الكهنة وأمامها عذراوات اللوتس وخلفَها خادمات المعبد، ثم تبع هذا الموكبَ مركبٌ به النائحات، حتى وصلوا إلى معبدها الجنائزى، ثم دُفنت فى مقبرتها الخاصة بوادي الملكات. هناك صرخت هؤلاء النائحات صرخاتٍ قويةً ظلت تتردد بين الحين والآخر حتى الآن.

***

تنتاب المرءَ بلاهةٌ فى بعض الأوقات، فعندما ينتهي من عمل مضنٍ، وتمر فى الوقت نفسه به أحداثٌ سيئة، ونقاشات تُبنى على اختلافات أكثر من تقريب وجهات نظر، ثم تَلتحم معها بعض المشكلات الكامنة والراكدة فى البيت سواء أثارتها الزوجة، أو غيرها، فهذا ما يصيب المرءَ بالبلاهة التى تجعله لا يدرك ما يقول أو ما يفعل، وإذا تناول طعاما ما فإنه لا يعرف مذاقه، بل إنه يشعر بمرارة فى طعمه، وإذا تحدَّث فإنه يتكلم بشكل روتيني، وإذا قال حقائق فى ذلك الوقت فإنه يُزيفها دون قصد. تلك اللحظة لا تحتاج من الإنسان أن يتوب أو يُكفّر عنها، فهو عندئذ مسلوب الإرادة، تسوقه البلاهة وكأنه تم تنويمه مغناطيسيا. تلك البلاهة هى جواز مروره من عنق الزجاجة، أو اجتيازه لتلك اللحظة التى قد تتحول إلى كارثة تصيبه بمرض مفاجئ (جلطة مثلا) لو كان واعيا، إلى لحظة أخرى يستمر من خلالها فى الحياة بشكل طبيعي. هذا ما أصاب الدكتور عبد الحكيم هاشم فى تلك اللحظة، فالمحاضرات والنقاشات مع الدكتور زكريا رشدي وموضوع زوجته الشائك قد أدخله رغما عنه فى لحظة البلاهة تلك. جاء عرض الصوت والضوء فلم يستمتع به مثل الأيام الخوالي. وإنما كان عنصرا من العناصر التى تمتزج مع لحظة البلاهة التى يعايشها الآن.

يقطع متابعتهما الروتينيةَ للصوت والضوء من آن لآخر أصواتُ مكبراتِ الصوت المنبعثة من السرادق المقام بالقرب من المعبد،

لتأييد قاسم حجازي مرشح الحزب لمجلس الشعب الذي وقف متحدثا.

***

العلاقات بين طلاب المعهد الإقليمي العالي لترميم الآثار ليست كالعلاقات المتعارف عليها فى الجامعات، فبعض الطلاب لا يذهبون للمعهد بانتظام، لأنهم مِن قُرى أو أماكنَ بعيدةٍ عن المعهد، أو لأنهم يعملون أعمالا أخرى سواء فى الحقول أو فى مِهَن دنيا للإنفاق على أُسَرهم أو حتى على أنفسهم. لذا فقدْ كان الفيس بوك هو الساحة التي يلتقي فيها هؤلاء الشباب، فقد قام أحمد نافع بعمل جروب أسماه "طلبة المعهد الإقليمي العالي لترميم الآثار بالأقصر" قام بإضافة الطلاب إليه، يناقشون المناهج، يبوح كل منهم للآخر من خلال صندوق الشات الخاص. لذا فكان من الطبيعى أن يتقارب البعض منهم على الفيس بوك، وربما لو تقابلوا فى المعهد ماكانت علاقتهم ستكون بتلك المتانة.

Inbox (95) w.nagaawy

* مساء الخير وائل

أحمد نافع

* مساء الخير أحمد

w.nagaawy

* ما أخبار المذاكرة؟

أحمد نافع

* تظن أن هناك مذاكرة فى هذه الظروف الصعبة؟

w.nagaawy

* البلد كلها تعيش فى هذه الظروف منذ سنوات طويلة.

أحمد نافع

* يمكن يأتي يوم وتتغير الظروف؟؟

W.nagaawy

* تنتظر تغيير وهاني جرجس أيوب الأول على الدفعة؟

أحمد نافع

* أبوه بيدفع المقابل.

W.nagaawy

* كل الناس تدفع المقابل، نسيت عمر عبد العاطى وغيره؟

أحمد نافع

* الدكتور عبد الحكيم متشائم، اختنق من حال البلد.

W.nagaawy

* عنده حق يتشائم ويختنق، الرشاوى أصبحت علنا، والوسايط والفساد زاد عن الحد.

أحمد نافع

* التزوير وتهريب الآثار عنوان يومى فى الصحف، والإزالات وهدم البيوت.

W.nagaawy

* الظروف الاجتماعية بقت مستحيلة، تخيل إني أجد صعوبة فى شراء علاج لأمي.

أحمد نافع

* لا بد أن تتغير الدنيا.

W.nagaawy

* فعلا لا بد أن تتغير الدنيا.

أحمد نافع

*.....

*.....

لم يستطع وائل أن ينام، فبعد أن خرج بتوقيعه من على الفيس بوك أغلق جهاز الكمبيوتر، فقد تسرب إليه أنين أمِّه فى الحجرة الأخرى، أسرع ليعطيها المضاد الحيوى. جلس بجوارها حتى هدأت ونامت، ثم تثاقلت قدماه وهو يخطو نحو فراشه، فألقى بنفسه، أغمض عينيه، راح يفكر حتى تلاشت الصور التي تناقلتها شاشات مخيلته.

12

– عرضتُ برنامجي فى أكثر مِن لقاء جماهيري، لن أَمِلَّ أو أكِلّ من تكراره مراتٍ ومرات، لقمة العيش، توفير لقمة العيش للناس الغلابة، الناس المطحونة، وظائف، توفير وظائف جديدة للشباب العاطل، العلاج، أكرر كلمة العلاج وأضع تحتها مليون خط،

استصدار قرارت العلاج على نفقة الدولة لغير القادرين، أنا مع الناس وبين الناس!

لم يكن هذا الكلام مِن بنات أفكار قاسم حجازي، أو ابتكرها له شيطانه الانتخابي، وإنما عبارات يكررها كل مَن ينتمي للحزب الديمقراطى الشعبي، لأن هناك لجنة خاصة فى الحزب لقياس رغبات وآراء الجماهير، توصلتْ هذه اللجنة إلى أن غالبية الناس تطالب بتوفير أدنى مستويات العيش التى تتمثل فى الخبز والأطعمة الشعبية، أيضا وظائف ميري يتمرغ فيها المواطن، حتى ولو كانت مقابل مرتب زهيد. الحق يُقال إن قاسم حجازي صرح للمخلصين من أصدقائه بأنه بعد نجاحه فى هذه الدورة سوف يحصل على مائتَي تصريح لإنشاء أفران للخبز البلدي، لم يهتم كثيرا عندما عرَف أن أصحابها سيبيعون حصص الدقيق، أو على الأقل تَظَاهر بأنه لم يسمع. سيوفر أيضا أكثر من ثلاثمائة وظيفة فى الحكومة، حتى لو ذهبت لأقاربه، يقول بعض الحاقدين إن هذه الوظائف ستكون فوق الحاجة، واستدلوا بقصر ثقافة الأقصر الذى يتكدس فيه الموظفون فى المكاتب، بل يقفون فى الطرقات. لكن المنصفين قالوا إن فائدة هؤلاء الموظفين تظهر عند المؤتمرات والندوات الأدبية فإنهم عندئذ يملأون القاعات، عندما تتاح لك فرصة الحضور فى أحد هذه المؤتمرات تتيقن بل تؤمن تماما بأن الثقافةَ والأدبَ لهما جمهور كبير!

توصلت هذه اللجنة أيضا إلى مطلب مهم تطلبه الجماهير وهو العلاج على نفقة الدولة، فمَرْضى الفشل الكلوي وفيروس سي، ومرْضَى السرطان يتزايدون كل يوم. أكد الجميع أن قاسم حجازي منذ أن كان عضوا فى المجلس المحلي يستصدر قراراتٍ كثيرةً على نفقة الدولة، حتى ولو كان أصحابها مِن أقاربه ومعارفه يستطيعون أن يحصلوا على العلاج بأموالهم، لكنه على الأقل يستطيع أن يوفر هذا البند المهم لجماهير الشعب، فما الحال إذا دخل مجلسَ الشعب فعندئذ سيكون دفتر العلاج فى جيبه!

وهكذا كان حديثه يدور فى هذه المحاور الجماهيرية التي اعتمدها الحزب فى جميع دوائره.

– الشباب الشباب أبو حجازي هو دايما نصير الشباب ...

ضج المخيم بالهتافات المدوية والتصفيق الذى لا ينقطع.

وقف جرجس أيوب فصفق له الحاضرون، فأشار بيده:

– قاسم حجازي هو ابن الأقصر، اتولد على ترابها وشرب من نيلها، عايش وحيموت فيها. خرج من بين صفوف الجماهير، يعني مش نائب باراشوتات، نائب مني ومنك. يعرف وجعك وألمك، نائب يعرف خوفك وأملك. من مكاني هذا أعلن تأييدي ودعمي الكامل لقاسم حجازي.

***

كل الظروف ساعدت كي يعتلي محمود العادلي سلَّم الطموح فارتقاه سريعا، فخلال عامين كان له محل فى شارع المنشية أسماه "عطارة أبو الحجاج" انتقل معه زبائنه، ابتكر أسلوبا جديدا فى البيع، كان يستلم زبونه بضحكة، ثم يدس فى يده حفنة فول سوداني، ويتركه ليكمل مع أحد الزبائن الموجودين من قبل، عندما يُحمله بالأكياس من جميع الأنواع الموجودة بالمحل، يعود للزبون الآخر الذي يكون قد ألقى نظرة بانورامية على البضائع، فيُحمِّله هو الآخر ببضاعة متفردة فى الجودة وفى الكمية.

ذاع اسمه فى الأقصر وفى كل المحافظات، حتى القاهرة، فكانت الرحلات التي تأتي فى إجازة نصف العام، تضع فى برنامجها زيارة محل "عطارة أبو الحجاج"، بل إنه عقد اتفاقاتٍ مع بعض المحلات الموجودة فى السيدة زينب والحسين، ليورِّد لهم البلح خصوصا فى رمضان وبعض مواد العطارة التى اكتسبتْ صيتا كبيرا.

لم يكن غريبا أن يكون له ثلاثة محلات عطارة فى الأقصر، بل إن ذكاءَه قادة لينّوع مصادر دخله، فدخل فى مجال تجارة الملابس بثقله، وكان حظه وفيرا، فشهرته الواسعة فى مجال العطارة لم تجعله يتجشم عناء الدعاية، فكانت مجموعة محلات "kids wear" و"العادلي لأزياء الأُسرة" و"لانجيرى الهوانم" التي أقامها فى شارع الطيب المتفرع من شارع التلفزيون من أشهر

المحلات، فتكتظ فى كل الأيام وخصوصا فى الأعياد وفى موسم المدارس.

لكنه كان يدير تجارة واسعة النشاط خلف تلك التجارة! هكذا كان يقول الفاشلون.

الخلاف الوحيد الذى كان يدب بين قاسم حجازى وبين محمود العادلي مرجعه النساء. فكان محمود يشهق ويسيل لعاب شهوته كلما رأى امرأة جميلة. لم تكن مواد العطارة التي تخرج من المحل والتى يغدق بها على الآخرين يبخل بها على صديقاته اللاتى يأتين من القاهرة فى فصل الشتاء فحسب، بل كان يغدق عليهن بأجهزة المحمول وكروت الشحن. كان يتفرغ تماما لمرافقة إحداهن طوال فترة أقامتها.

– الحريم ح يخربوا بيتك ويودوك فى داهية.

هكذا كان يقول له قاسم حجازي وهو حزين لأنه يمزق غشاء جدار الصداقة.

– الحريم سبب السعادة، سر الحياة.

– اتجوز يا محمود وبَطِّل الظباطة بتاعتك.

– اتجوز ليه، ونا كل شهر أعرف واحدة؟

الفتاة التي اتصلت به فى شهر أبريل الماضي بعد أن غادرت الأقصر، قالت له إنها حامل، تسببت فى تمزيق الجدار الهلامى، انفصل ساعتها عن الحياة وتوقف عقله عن التفكير، لم يكن يتخيل أنها ستأتي بعدها بأسبوع وتهدد بفضحه فى المنشية إذا لم

يتزوجها. كأنه وقع من فوق ربوة عالية، فَقَد توازنَه وشعر بأن الطيور الجارحة قد حطت على كتفيه تحفر فى عينيه. هرع إلى صديقه قاسم الذي عنَّفَه كثيرا، أخبره بأنه حذَّرَه كثيرا من هذه العلاقات التي تعود على صاحبها بالخراب، أكد له مرارا وتكرارا إن هذه العلاقات حرام فى حرام، وذكَّره بنفسه بأنه لا يقرب الحرام فإنه ساء مصيرا، وكل الناس تشهد له بالإيمان والورع.

على الرغم من أن قاسم قد خلَّصَه من هذه الفتاة، لم يعرف هو حتى الآن كيف خلَّصَه منها، فهو على الأقل قد ارتاح من وجع الدماغ، لكنه فى قرارة نفسه حزين جدا بسبب الأوقات الجميلة التي قضاها معها، لأنها لم تُفَجِّر لديه ينابيعَ المتعة فحسب، بل وفرت لديه ديمومتها واستمراريتها. شعر معها بحلاوة الحياة، وأهمية الالتصاق الجسدى. شعر عندئذ أن هذا الالتصاق يعادل فى أهميته جدار الصداقة الهلامي الذي بناه مع قاسم، لكن هذا الجدار الجسدي ليس هلاميا. ذات مرة قال لقاسم "تفوَّقَ المصرى فى البناء الجسدى أكثر مما تفوق فى بناء الأهرامات والمعابد" ساعتها لم يفهم قاسم كلامَه، لكنه بعدَها بثلاث سنوات حينما سمع من الدكتور زكريا، وهما يشهدان تعامد الشمس على وجه رمسيس الثانى فى معبد أبى سمبل، كيف بنى المصرى القديم الأهراماتِ والمعابدَ فَهِم مقصدَه.

فى الوقت نفسه حزن لفقدان التوازن الذى حدث عنده. "هل يستطيع الرجل أن يحافظ على توازنه أمام رغباته؟ هل الرغبة

تفتِّت التوازن؟ أم يستطيع التوازنُ أن يخمد الرغبةَ فوق فراشها أو مهدها؟ (بالنسبة له يحتاج للاثنيْن معا) ماذا عن متعة الالتصاق الجسدى؟ (بعدها بعشر سنوات عندما تعلَّم الكومبيوتر أدرك أن التفكير فى الالتصاق الجسدى ومتعته يكلف المرءَ خمسين جيجا بايت، فماذا تبقى من قوته لبقية شئون الحياة؟) هل يستطيع الإنسان أن يحقق رغباتِه فى ظل قانون التوازن الذى وضعه هو وقاسم؟ استطاع بعد هذا الحادث أن يصنع لنفسه قانونا آخرَ لتحقيق هذه المعادلة، أن يبحث عن المتعة فى سوق أخر، سوق رخيص، فلديه قانون يتفق مع قانون التوازن الذى كَتَب بنودَه فى ليلة قمرية مع قاسم، هذا القانون يعترف باللحظة مقابل المادة، أمَّا ما ينتج عن هذه اللحظة (جنين ناقص أو كامل) أو ما يستجد فلا يعترف به هذا القانون. ربما يسترجع فى خياله هذه المتعةَ فيستلذ بها أكثر، لكن ليس للقانون حيلةٌ فى ذلك.

لم يكن قد مضى شهر على هذا الحادث، التزم فيه بأداء الصلوات الخمس فى مسجد أحمد النجم، بدأ يتقرب إلى "المباديل" الذين يملأون شارع المحطة وشارع المنشية ويطعمهم ويشتري لهم الجلاليبَ كلما مزقوها، أو ركضوا فى الشوارع عرايا. أعلن توبتَه أمام صديقه قاسم عند مقام "أبو الحجاج"، لكنه ما لبث أن شعر برجفة المتعة تجتاحه وكُتَلٍ من الرغبات الموقوتة تحتاج للتفجير، تخلَّفَ شيئا فشيئا عن الصلاة حتى انقطع عنها تماما.

فى البداية لم تكن علاقة محمود العادلي مع قاسم حجازي بنفس قوة علاقته بسالم الطواب التي قويت أواصرُها منذ خمس سنوات عندما كان سالم فى هذه الفترة يتاجر فى العُملة فى السوق السوداء، بل التاجر الوحيد دون منافس. رأى مِن خلال عيونه المتلصصة التى ينشرها على شارع البحر بأن محمود العادلي يتاجر فى العملة بمبالغَ ضخمةٍ، مما جعل حجم تعاملاته البنكية تقِل كثيرا عن العام الذى سبقه.

بالأمس زاره فى بيته القديم خلف ميدان صلاح الدين. ساعتها أدرك أنه ليس التاجرَ الوحيد فى العملة فقد وجد حقائبَ كثيرةً مملوءة بالعملات الأجنبية والعربية، كان هذا المشهد كفيلا بأن يبتلع كلامَه المغموس بتهديد وترغيب جاء مِن أجل أن يقوله، فكيف لتاجر عُملة وصل بتجارته لهذه المبالغ أن يتوقف عن معاملاته بسبب سالم الطواب حتى وإنْ كان كبيرَ تجار العملة فى مصر كلها وليس فى الأقصر فقط؟

بعد أن احتسيا الشاى عرض سالم الطواب على محمود العادلي أن يُقسِّما الأقصرَ إلى منطقتين، وألا يقترب أحدهما من منطقة الآخر، ليس خوفا، ولكن حتى لا يتضارب سعر البيع والشراء بينهما.

خرج سالم الطواب مِن عنده وهو يعرف أن التقسيم فى صالحه فهو قد حصل على البر الغربي كله، بعجائزه الأجنبيات اللاتي أتين بكل مدخراتهن مثل مكافآت نهاية الخدمة، وبيع ممتلكاتهن

فى بلادهن لاستثمارها فى الزواج من فتيان البر الغربي. يعرف أيضا أن شارع البحر الذي يعتبر بورصة السياحة فى الأقصر يدخل ضمن نطاقه، أمَّا نطاق محمود العادلي الذي يضم شارع الفنادق والبنوك فى العوامية وشارع التلفزيون وشارع المحطة فلن يكونوا بحجم تعاملاته مجتمعين. استوعب محمود العادلي ما يفكر فيه سالم الطواب تماما، فوافق على تقليص نطاقه البنكي طواعيةً لأنه لم ينسَ أن سالم الطواب قد تخلى له عن "أنتيكة" نجع الطويل التى عثر عليها منذ ست سنوات فى بيت بائع الجاز، مازال يحتفظ له بهذا الجميل، كما أن علاقتهما بعد هذا التقسيم لم تضعف بل قويت على عكس أي تقسيم يحدث فى أي مجتمع. تضاعفت مصالحهما بعد ذلك بشكل كبير.

13

التحق الدكتور زكريا رشدي بالحزب الديمقراطي الشعبي فى أوائل التسعينيات، بعد أن حصل على الدكتوراة من جامعة رومانيا فى آثار العصر البطلمي فى مصر. عُين فى قسم الآثار بجامعة جنوب الوادي بقنا، ولما افتُتِح المعهد الإقليمي العالي لترميم الآثار بالأقصر، عُين عميدا له. أمَّا عن أمانته للحزب جاءت بعد التوجه العام الذي ساد الحزب، الذى حدث بمقتضاه التخلص من كل شيوخ الحزب القدماء، واستبدالهم بالوجوه الجديدة، الذين

يحمل معظمهم درجةَ الدكتوراة أو على الأقل شهادات عليا، وإفساح المجال لهم للقيام بدورهم الذي ينتظره منهم الوطن. مِن هنا تخلَّص الحزب من عبد الدايم البعيري الذي جثم على مقعد أمانة الحزب لعشرين عاما. لم يقُم بأي دور فى الأقصر سوى أنه كان يحضر المناسبات، ويتوسط فى التعيينات الجديدة فى الفنادق وشركات السياحة.

عندما ظَهَر أمين السياسات خلال المؤتمر العام للحزب، أعلن عن السياسات الجديدة، أهمها زوال العهد القديم بحرسه، كان عليه أن ينفذ ما طُلِب منه. فكان إخلاء مكتب قيادة الحزب فى الأقصر يوما مشهودا، فأقيمت حفلات الربابة، نُحِرت العجول، وطاف الشباب بالدكتور زكريا رشدي الأقصر من العوامية حتى الكرنك كلها بنجوعها، النجع التحتاني والفوقاني وأبو الجود ونجع بدران.

ربما كان تكريم الدكتور زكريا رشدي أو بمعنى آخر تنصيبه أمينا للحزب قد جعل الناسَ تمضغ سيرته بنفور بعد تورطه فى قضية الآثار الكبرى مع تاجر آثار من الهرم، هذه القضية المعروفة إعلاميا بـ "مقاطف الآثار" تم فيها تهريب القطع الأثرية فى مقاطف عن طريق مطار الأقصر. لكنها مثل الكثير من القضايا التى ينساها الناس إذا ما ظهرت فى الوقت نفسه أو بعدها قضيةٌ أخرى تشغل الرأى العام، عندما أُعلن عن ظهور السلعوة فى الأقصر وقنا. ساعتها نسي الجميع تماما قضيةَ مقاطف الآثار

التي ضُبِطت فى مطار الأقصر، وتفرغوا للسلعوة وحكايات الناس عنها. كان الناس حينَها لا يخرجون بعد المغرب، بعد أن تناقلوا حكاية الرجل الذى قضمت السلعوة ساقه، كذلك الطفل الوليد الذى خطفته مِن أمَّه وهى ترضعه فى حوش البهائم. كان كل مَن يختفي عن بيته يقال إن السلعوة عقرته فمات. فى هذه الآونة هرب من القرى الكثيرون الذين يخشون من ثأر قديم، ولم يعودوا حتى الآن. وكذلك هرب بعض المحكوم عليهم فى قضايا جنائية.

إذا سُئِل أي إنسان فى ذلك الوقت عن السلعوة كان يقول:

– والمصحف الشريف شفتها بعيني وكانت خلاص حَتفِجُّ بطني.

وإذا سألتَ الشخص نفسه فى يوم آخر عنها فيقول:

– أنا عمري ما شفتها، لكن كل الناس بتقول إنها شافتها.

لم يعرف أحد حتى الآن سببَ عدم زواج الدكتور زكريا، وبقائه عازبا، يعيش وحيدا فى منزل كبير فى شارع كيلوباترا. المقرَّبون فقط اكتشفوا قصة الحب الفاشلة التي قصمت ظهره، والتى كانت سببا فى عودته إلى الأقصر عشية عيد القيامة المجيد بعد أن عاش فى القاهرة لسنوات. يقولون إن أباه رشدى طانيوس كان يمتلك منزلا ومطبعة "طانيوس للطباعة وتجليد الكتب" فى شارع كيلوباترا فى الخمسينيات، لم يتركهما إلا عندما دعا الأنبا بلامون المسيحيين فى سبعينيات القرن الماضى بالتجمع من كل القرى والنجوع والمدن والتكتل فى مكان واحد بعد سنوات اضطهاد المسلمين لهم، فنزح حينئذ الكثيرون إلى السواقي.

ربما هدأت النارُ التى اتقدت فى صدر قاسم حجازي قليلا عندما زاره الدكتور زكريا رشدي وبعض من أعضاء الحزب فى المستشفى. وربما هدأت النار فى صدر أبيه الراقد فى العناية المركزة. أفاق أبوه بعد ثلاثة أيام، ساعتَها أشاح بوجهه غضبا وأغمض عينيه، لكنه أقسَم له بحياته وبصحته التي تتحسن أن الأفدنة العشرة ستصبح عشرين، وأنه يتكفل بذلك ويتعهد أمامه بما يقوله. لم ينسَ أن يذكِّره بأن كل هذه الأراضي هو الذي اشتراها، وهو وحدَه القادر على تعويضها. عندما رأى ملامح اللين تتراقص على أهداب عينَي أبيه وبدأت الروح تعود لأطرافه، راح يشرح له أهمية بيعهم للأفدنة من أجل مقعد مجلس الشعب الذي سيكون فاتحةَ خيرٍ عليهم، وأنه سيضعهم فى صفوة كبار البلد.

الغريب أن الحاج حجازي قد حرَّك أطرافَه، وتكلم مع الزوار فى الغرفة التى نُقِل إليها فى اليوم التالي لحديثه مع قاسم، الأغرب أن الأطباء قد سمحوا له بمغادرة المستشفى فى آخر اليوم.

ما كادت النار التى اشتعلت فى صدر قاسم بسبب مرض أبيه المفاجئ بخصوص موضوع بيع الأرض تنطفئ، حتى اشتعلت مرة أخرى حينما علِم أن الحزب سوف يدعم الدكتور إبراهيم الإسناوي. حينها ظل مستيقظا حتى الصباح، لم يشأ أن يتصل بأمين الحزب لمعرفة هذا التلاعب الكبير.

– السياسة لعبة قذرة، الدكتور زكريا رجُل محنك وداهية من دواهي الحزب، كيف تقدِر عليه وأنت مازلتَ عضوا نكِرة فى المجلس المحلي؟ أقدِرُ عليه وعلى أبيه، أنا ممكن أقتله وأتاوي جثته. أنا قاسم حجازي، لم يُخلَق بعدُ مَن يضحك علىّ. لكن ربما دفع إبراهيم الإسناوي مبلغا أكبرَ وهذا ما جعلهم يقبَلونه فى الحزب؟

هكذا تلاعبت به الهواجس التي تطايرت مع نسائم الفجر حتى طلعت الشمس، فأذابت بعضَ الخواطر اللزجة من ذهنه. لم تهدأ النار التى أشعلتها هذه الأفكار إلا عندما زار قاسم حجازي الدكتور زكريا رشدي فى المعهد.

– أبيعك؟ كيف أبيعك؟ أنت عمود من أعمدة الحزب فى الأقصر.

– أومّال إزاى تجيبوا الدكتور إبراهيم الإسناوي فى الحزب؟

ضحك الدكتور زكريا رشدي، قام مِن على مكتبه، أخرج سيجارتين وأعطى واحدة لقاسم، وأشعلهما بولاعته ثم قال:

– إنت عملت زى الناس البهايم اللي فاكره إن مقعدك ضد مقعد الدكتور إبراهيم، بالعكس، انت نازل على مقعد العمال وهو نازل على مقعد الفئات. وانت كدا ناجح ناجح، لأنه من الممكن أن يتم تصعيد مقعدين عمال، وليس العكس.

كانت كلمات الدكتور زكريا الرمالَ التي أطفأت النار التي كانت متأججة فى صدر قاسم حجازي منذ ليلة أمس، لكنه مع ذلك راح ينفح بعض الأدخنة التي مازالت تتصاعد من أعماقه!

***

يوم الجمعة هو يوم استقبال الجمهور فى الساحة، يقوم فيه خليفة الطواب قبل الفجر، بعد أن يصلّي خلف الشيخ ويقبِّل يديه يخرج أمام الفناء الذى تتوسطه شجرتان كبيرتان قديمتان جدا، يشير إلى الصبي بأن يرش الماءَ البارد على التراب الذي يستيقظ بسبب برودة الماء فيتصاعد للأعلى متكاسلا، تفوح رائحته فتضفي على المكان عبقَ السكون، الذي يمتزج مع زقزقة العصافير التي استيقظتْ مع خطوات خليفة الأولى نحو الطقوس اليومية. فى تلك الأثناء يظهر القادمون مِن بعيد فيدخل خليفة ويتخذ موضعَ المهابة والخشوع فى صدر الساحة.

عندما وصلت مُنى عبد القادر فى التاسعة صباحا إلى ساحة الشيخ البصري، أُصيبت بالدهشة والرهبة بسبب الجموع الغفيرة المتقاطرة أمام الساحة، لم تستطع أن تقترب، فوقفتْ وهي تتأمل النساءَ المفترشات الأرض، منهن مَن ترضِع طفلَها فى حِجرها، وحولها بقية أطفالها مِن مختلف الأعمار، منهن مَن أتت وحيدة، ومنهن مَن تجلس بجوار زوجها. هناك بعض الدوائر التي كوَّنتها بعض النساء المنهمِكات فى الثرثرة. عند سور الساحة تقف فتيات

جئن وحيدات. مِن على بُعد وقف رجُل يتفحص الوجوهَ المنتظرة، ليختار مَن عليه الدور. كانت الرهبة تنتاب منى عبد القادر، وعيْنَا الرجُل تفتش فى وجوه المنتظرين. أطرقت برأسها فداهمتها محاوراتها الأخيرة مع زوجها:

– لم أعُد أطيق الانتظار، فَشل الطب والأطباء.

هكذا قالت وملامح اليأس تسلقت جبينَها وعينيها.

قال عبد الحكيم هاشم وكأن أنفاسَه الآخيرة تحاول الخروجَ مع رده المتكرر الخاص بذلك الموضوع :

– ليس لدينا خيار آخر؟

قالت له وهي تدور حول نفسها:

– مازلتُ أثق فى المشايخ.

– ذهبتِ للمشايخ مِن قبل، ولم تفلح محاولاتك؟

– الشيخ البصري يختلف عن بقية المشايخ.

هكذا قالت وكأنها وجدتْ الحل السحرى فى الفانوس:

نظر إليها مستنكرا كلامَها فقال:

– الشيخ البصري عنده سر الإنجاب؟

ابتسمتْ وحاولت أن تضفي شيئا من الفكاهة لكلامها:

– الشيخ البصري معه مفتاح الإنجاب.

14

حكتْ سكينة مرعي لأبنائها قصة صالح أبو المجد الذي ظلَّ شهرا يبحث عن شخص يُضحي به مِن أجل لقية عبارة عن "بطيخ من الذهب"، قال له الشيخ حينئذ: الضحية لازم تكون "فَتَايه" لم تبلغ العشرين من عمرها. لم يهتدِ صالح إلى فتاة يضحي بها، إلا أختَه التي غدر بها ووضعها بين يدَي الشيخ الذي ألقمَها للرصد فانهمك بها، عندئذ خرجتْ كُرَات الذهب تتدحرج مِن تحت جدران الجبانة. لكنها لم تحكِ لهم ما حدث بعد ذلك بعشرين عاما ما حدث له ولعائلته، لم تشأ أن تقُص عليهم سنواتِ الثراء التي عاشها هو وأسرته، والتي انتهت بإطلاقه الرصاصَ على أفراد عائلته وعلى نفسه منتحِرا. حينَها قال الجميع إن السبب فيما حدث ذلك النصاب الذي استولى منه على ثروته بعد أن أوهمه بأنه سيبيع له صندلا لنقل البضائع عن طريق نهر النيل.

***

لم تفِق مُنى عبد القادر مِن ذكرياتها إلا حينما سمعتْ صراخَ طفلٍ صغير ذى ساقيْن ملتويتين، تحاول أمُّه أن تسترضيه، لكنه يتملص منها يمينا ويسارا، عندما خرج الرجُل أمام الساحة أشار إلى مُنى بالدخول. شعرتْ بأن الجميع ينظرون إليها، حتى

الأطفال الذين كانوا يبكون لم تسمع صوتهم، وكأنهم كفُّوا عن البكاء لمتابعتها وهي تدخل فى جوف الساحة. كانت تغمض عينيها كلما خطت للداخل، كأنها تخاف مِن شئ ما. ما إنْ وصلتْ إلى صدر الساحة حتى نظرتْ نظرة بانورامية، الأشجار العملاقة تسد أشعة الشمس، أصوات العصافير الصاخبة تشق هدأة السكون الصوفي الذي يعم المكان، اقتربتْ مِن خليفة نقيب الشيخ الذي كان مطرِقا، تُقدِّم ساقا وتؤخر ساق. حينما وقفت أمامه رفع رأسه، وأشار لها بالجلوس على الكنبة المواجهة له، قال لها بصوت مفعَم بالصوفية:

– ما شأن السيدة الفاضلة؟

ترددتْ لبضع ثوانٍ ثم استجمعت قواها وقالت:

– أنا لا أنجب.

قال لها وقد تباطأ فى إخراج الكلمات:

– هل ذهبتِ إلى الأطباء وأجريتِ التحاليل؟

أجابت وقد سرت الطمأنينةُ إلى نفسها:

– نعم، وأفادت التحاليل أنه ليس بى ما يمنع الإنجاب.

كان جدار الثقة قد ارتفع بينهما، قال وهو يرى البساتين المتسامقة خلف هذا الجدار، وفى الوقت نفسه ينتظر إجابة أخرى ليكمل رؤيته العلاجية:

– وزوجك؟

– أجرى التحاليل وفحصه أكبر الأطباء، وأكدوا أن ليس هناك ما يمنعه من الإنجاب.

صمتَ لبرهة وكأنه يحاور كائنا غير مرئي، ثم قال لها:

– منذ متى وأنتما متزوجان؟

– عشرة أعوام.

قام وهو يحمل معه تشخيصَها، دخل غرفة الشيخ وغاب فيها طويلا. لم تكن مُنى تنظر حولها بسبب شعورها بالفراغ، وإنما تحاول أن تقنع نفسها بأن هذا المكان ربما يكون ملاذَها الأخير للإنجاب. لكن هواجسها المنادية بالتشاؤم تسلقت الشجرةَ التي تعلوها فطاردت العصافير المتفائلة بثرثراتها، ثم قفزتْ عليها فجعلتها عصبية، أخذت تنظر حولها، تعود فتنظر إلى باب غرفة الشيخ، يحدوها الأمل بأن يُفتَح الباب، ويخرج النقيب فتكف الهواجس عن مهاجمتها:

– ربما أنبأه الشيخ بفقدان الأمل فى الإنجاب.

هكذا حدَّثَتها الهواجسُ وهى تغيظها بتحريك حاجبيها، لكنها مع ذلك وجدت نفسها ترد ونبرة التسليم بصفعات القدر تفوح مِن كلامها:

– نعم، البوار وعدم الإنجاب هُما عنوان حياتنا أنا وزوجي.

فى تلك اللحظة بالذات تساقَط عليها صوتُ أمِّها القديم ممزوجا بغائط العصافير يقول لها:

– عريس عايش فى الكويت مِن عشر سنين، الفلوس اللي معاه ما تكُلهاش النار، تسيبيه وتوافقي على معيد فى كلية الآداب لسّه فى بداية طريقه؟

حينَها أجابتها بحزم وقد اتخذتْ قرارَها بأن عبد الحكيم هاشم هو العريس المناسب، لم تخبر أمَّها بأنها تكلمتْ معه فى كلية الآداب حينما كانت طالبة فى سنة رابعة جغرافيا، كان هو معيدا فى قسم الآثار. لم تخبرها أيضا بأنهما تواعدا على الزواج. أمَّا أبوها فلقد ترك لها حريةَ الاختيار، إلا أن أمَّها لم تتركه فى حاله، وإنما عنَّفَته كثيرا لأنه لم يضغط على ابنتِه لكي توافق على عريس الكويت الذي أتى بسيارة فارهة تحمل أرقام الجمارك.

15

ما أوقفَ تيارَ التشاؤم الذي أغرق مُنى عبد القادر الممزوج بكلام أمِّها المحبط، خروجُ النقيب خليفة الطواب مِن غرفة الشيخ، وابتسامة باهتة معلَّقة فوق فمِه.

حينما اقترب منها، قال والابتسامة يزيد عرضها على وجهه:

– الشيخ عمل لك حجابين. هذا الحجاب ضعيه تحت رأسك عند النوم. أمَّا ذلك الحجاب فضعيه فى الدولاب، وليرغب كل منكما فى الآخر.

أخذت مُنى الحجابين دون أن تنطق، خرجت من الساحة، وقلبُها وعيناها معلَّقان بالمستقبل الذي تراه أمامها الآن مشرقا.

حاولت مُنى عبد القادر أن تتخذ منحنى جديدا فى حياتها مع زوجها، فراحت تسترضيه بكل السبل، غيرت مِن أسلوبها فى البيت. فبعد ما كانت تتخذ الاكتئابَ فِراشا، والبؤسَ متكئا لها، نبذتهما الأن، فأصبحتْ تستقبله فى كامل زينتها وأناقتها، ابتسامةٌ جديدة تغلِّف وجهها الصبوح. اندهشَ عندما رآها كذلك، يعرف تماما أن الاندهاش قد زاد على حده تلك الأيام، فكل الغرائب التى تحدث فى الحياة اليومية تصيب المرءَ بالاندهاش المتواصل أو تُدخِله فى حالة البلاهة حتى يخلد إلى نومه.

مع ذلك فقد قَبِل هذا الاندهاشَ وشمَّه بل لعقه؛ لأنه يصب فى مصلحتهما معا. لأول مرة ترتسم ابتسامة صادقة على وجهه، فأقبَل نحوها، شَمَّ رحيقَها الجديد الذي يستوي عنده مع الرائحة القديمة التي تباغته عندما يزور مقبرة مِن مقابر وادي الملوك. لكن رحيق امرأته سيساعده على استشراف مستقبل جديد لهما. تلك الليلة ربما تكون قد اقتنصتها بالكامل مِن أبحاثه ومِن غيابه عن الحاضر، لكنها أضافت إلى حياته معنى جديدا، فاق كل المعانى التي تشكل وجدانَه. كان هذا المعنى مرحلة فاصلة فى حياته. هو نفسه يعتبر كل أمل جديد يلوح فى الأفق مولدا جديدا له، فكانت خلاياه تتجدد تلقائيا، كأنه كائن فضائي.

وكذلك تخمرت أفكاره ورؤاه.

***

قابل قاسم حجازي جرجس أيوب عند كوبرى الضبعية منذ سبع سنوات تقريبا فى ليلة معتِمة، تتكتل فيها السحب السوداء، فتحجب الهلالَ الوليد الذي حاول أن يتلصص عليهما، لكن السحب قوضتْ آمالَه، فجثم فى كبد السماء منهكا لا يراه بَشَر بعد منتصف الليل. دار بينهما جدل كبير، وقعتْ بعض الكلمات على الأتربة التي تكسو الأسفلت، لكن لم تجد مَن يلتقطها. حاول كل منهما أن يتمسك برأيه. كان اتفاقهما على ثلاثة ملايين مقابل التمثال، لكن قاسم أصر على أربعة ملايين مما أثار حنقَ جرجس، قال له بصوت هامس:

– ليس معي غير ثلاثة ملايين.

– اكتب لى شيك بالمليون المتبقي.

– يا قاسم هذا أول تعاون مادى بينا، ستعرف غدا مَن هو جرجس أيوب.

– الشغل شغل يا جرجس بيه.

– سأعوضك المرة القادمة.

– سيكون للمرة القادمة ظروف أخرى!

ما كان مِن جرجس أيوب إلا أن كَتب الشيك وسلمه له، استلم التمثالَ ودفنه فى مقبرة سيارته الشيروكي، وانطلق كل منهما فى طريقه.

ظلت الهتافات تشتد، كلما تخفت مِن جانب، تعلو مِن جانب آخر، يرقص المؤيدون، كان حجازي يرفع يده محييا الهتافات،

بينما يرفع جرجس أيوب يدَه مؤيدا ومنفعلا بالهتافات، إلى أن خرج قاسم حجازي مِن خلف المنصة، تبعه جرجس أيوب وسالم الطواب، تطوقهما الجموع وركبوا سياراتهم، خَفت ضجيجُ الناس، وفى الوقت نفسه علا صوت "محمود ياسين" فى الصوت والضوء مناشِدا الإله آمون:

– أمون رع ... يا رب الأرباب، انظرْ إلى معابد الكرنك التي شيدها لك الملوك العظماء، فأقاموا حضارة خالدة مخلدة. لتحفها برحمتك، ولتحرسها بعينيك أبد الآبدين...

دقت الطبول ومزقت الموسيقى هدوءَ الظلام...

انتهى عرض الصوت والضوء. تمدد عبد الحكيم هاشم على الدكة المواجهة للبوابة الشرقية، بينما تمدد أحمد الضوي على الدكَّة الأخرى، ظلا يتكلمان، وصوت سميحة أيوب الحتشبسوتي الممزوج بصوت الناي والقانون والنوم يهمس لهما:

– بنيتُ لكم معبدا فوق ربوة عالية.....

***

جرجس أيوب هو نوع مِن الرجال الناعمين، صوته ناعم وجسده ناعم، لكن عقله غير ناعم. يتمتع بجسد بدين، يتدلى الشحم مِن رقبته فيضفي عليه هيبة ووقارا، فى الخمسين مِن عمره، هو الوحيد لأبيه أيوب منقريوس الذي أتى مِن أسيوط فى الخمسينيات من القرن الماضي، جرَّبَ كلَّ الأعمال الدنيا، مِن تنظيف الشوارع

إلى تنظيف الأحذية أمام محطة سكك حديد الأقصر، إلى أن تعرَّفَ على ميخائيل بطابا الذي أقنعه بالذهاب معه إلى الغرب، حيث منابع الخير، فقدْ بدأ الموسم السياحي منذ شهر وبيع تماثيل الألباستر سينقلهما نقلة كبيرة، هكذا بدأت حالته المادية تنتعش. بعد أربعة أعوام كان له كشك خشبي عند معبد حتشبسوت، يعرض فيه كل أنواع التماثيل، بل إنه استخدم بعض الصبية لترويجها عند مقابر وادي الملوك ووادي الملكات، وعند المعدية، وبالشرق عند كورنيش النيل. كان مِن وقت لآخر يعمل "خريتي" يصطاد السائحين على كورنيش النيل بالشرق، يقنعهم بعمل الزيارات السياحية لهم، ثم يمتص ما تبقى معهم مِن نقود حتى يعودوا لبلادهم.

عندما أصبح جرجس أيوب فى الإعدادية، كان أبوه يمتلك بازارين أحدهما فى العوامية والآخر فى شارع البحر، كلاهما مِن أهم البازارات التي تبيع المشغولات الذهبية.

عندما انتهى جرجس أيوب مِن دراسته فى كلية تجارة أسيوط، كان يمتلك فندقا على شارع البحر، أسفله بازار جديد، وضع صورةَ أبيه الراحل فى صدارته، ليتفاخر بكفاحه وإنجازاته.

أقام علاقاتٍ كثيرةً ووطدها، منها علاقاته القديمة مع خفراء ومفتشي المعابد والمقابر الذين كانوا يهرِّبون له التماثيلَ الصغيرة. شرب بسببهم مرارا لم يتذوقه فى حياته، فقدْ كانوا يرفعون سعر التماثيل فى كل مرة. حتى أنه اضطر أن يقتل أحدهم عند معبد

حتشبسوت فى البر الغربي لأنه تجرأ وهدده بفضحه فى الأقصر كلها. كان يرسل الهدايا الثمينةَ لكل مسئول كبير فى الأقصر، فاكتسب بذلك وضعا كبيرا. فكانت كلمته مسموعة خصوصا مع الأقباط الذى قدم لهم وللدين خدمات جليلة، فلا يُقام مؤتمر شعبي دون دعوته. أمَّا بداية علاقته بقاسم حجازي فكانت فى المجلس المحلي لبندر الأقصر، عندما تلاقت توجهاتهما وتطلعاتهما، فقاسم كان يتمنى الثراءَ السريع، بينما ينظر جرجس إلى مصالحه وحمايتها. كان جرجس يساعد قاسم فى تلبية طلبات المواطنين، بدءا مِن التوسط لإخراج بعض المتهمين من البندر، مرورا بتجارة الأراضي والعُملة وإلحاق العمالة بالفنادق والمراكب السياحية، والتنكيل ببعض الموظفين فى بعض المصالح الحكومية لصالح آخرين إنْ لزم الأمر. أيضا كان المعين الأولَ لكل قبطي يتولى منصب كبير، لذا عندما تولى الدكتور زكريا رشدي منصب أمين الحزب ذلَّل له كل العقبات.

وقف زكريا رشدي منتظِرا انتهاء ترديد الشعارت المؤيدة لقاسم حجازي...

– الحزب الديمقراطي الشعبي يؤيد قاسم حجازي، ولو كنت وطني انتخب قاسم حجازي.

– أبناء الكرنك الكرام.. إن الأستاذ قاسم حجازي قد اختاره حزب الأغلبية، الحزب الديمقراطي الشعبي.. أنتم تعرفون أن قاسم حجازي هو خير مَن يمثلكم فى مجلس الشعب، أفنى سنواتٍ كثيرةً مِن عمره فى العمل الوطنى، والحزب دائما وأبدا يختار

المخلصين مِن جماهير الشعب، وها نحن أولاء قد اخترناه، فهو بحجم مؤسسة إذا انخرط فى العمل العام، وبحجم قنصلية إذا اندمج فى سلك الدبلوماسية.

– قاسم حجازي راجل راجل... هو دا الخبر العاجل.

– فاصل ونواصل.. أبو حجازى راجل واصل.

16

إذا وُجِد تشابه بين اثنين مِن البَشر سواءًا في الملامح، أو فى الأفكار، أو التوجهات أو فى التصرفات فهذا شيء طبيعي، وتجده بكثرة، لكن أن يكون لكل منهما عدو يشبه الآخر فهذا أمر غريب. فعندما كان الدكتور عبد الحكيم هاشم يحكي عن الدكتور زكريا رشدي، وينتقد تصرفاتِه وأفعالَه، كانت عروق رقبته تنتفخ بشدة، فيقاطعه أحمد الضوي ويقول له:

– كأنك تحكي عن أمال عبد السميع.

عندئذ يتناول منه دفة الحديث، تتسع عيناه، يمط شفتيه فتتسعانِ لأقصى درجة، يبدأ فى سرد يومياته معها فى المدرسة، بدءا مِن تصرفاتها الغريبة. ومواطن اختلافه معها الكثيرة، منها أنه عندما يكون يوم الإشراف المدرسي على جماعة الدراسات الاجتماعية، يبذل أقصى جهد فى المحافظة على النظام، فعندما يجد فصلا بدون مدرس يأتي بآخر احتياطي، ويؤكد عليه بأن يقوم بشرح

مادته للفصل، ذلك الأمر أثار حفيظة وكيلة المدرسة أمال عبد السميع.

– أستاذ أحمد أنت ليس لديك حق فى أن تفرض على المدرس الاحتياطي بأن يشرح للفصل مادته.

هكذا قالت له فى الدور الثاني بعد أن طار إليها الخبر.

– يا أستاذة أمال، المفروض أن مدرس الحصة الاحتياطية يشرح للطالبات مادته، ولا يفنيها فى الحكايات واللهو مع البنات.

عندما رأت أن نبرة صوته ارتفعت قليلا، أشارت إليه بأن يذهبا لغرفة الأخصائيات الاجتماعيات. هناك لقنته درسا عنيفا، خرج مِن الغرفة وهو حانق. عرَف بعدَها بيومين أن أصحاب الحصص الأصلية يرفضون أن يقوم المدرس الاحتياطي بالشرح فى فصولهم، حتى لا تتأثر الطالبات بشرحه فيؤثر ذلك سلبا على اقتناعهم بالمدرسين الأساسيين، وبالتالى بدروسهم الخصوصية.

راحت كلمات أمال عبد السميع ترن فى أذنيه كل يوم: "أستاذ أحمد أنت تريد عمل بلبلة فى عقول الطالبات، لما يأتي مدرس ويشرح مادة التاريخ لفصلك، ويتفوق عليك فى المادة، ماذا تقول البنات؟ إنه أفضل منك، النظام هو النظام."

كانت فلسفة أحمد الضوي تتمحور فى أن تكون مجهوداته الفكرية والعلمية ترسخ لمفاهيمَ تربوية، مثل أن تتفتح عقول الطالبات على أساليبَ أخرى فى الشرح، بالتالي تنضج عقولهن، نتيجةً لتلقيهن شرحا مغايرا لمدرس المادة، وأن تكون الحصة الاحتياطية كحصة

المكتبة تستفيد منها الطالبات. لكن لم يضع فى حسبانه "اللوبي" الذي كونته أمال عبد السميع فى المدرسة والذي ترتبط مصالح أعضائه معها. لم يكن يتخيل أن مديرة المدرسة ستكون بتلك السلبية عندما ذهب إليها شاكيا، وكلماتها الساكنة جعلت دمه يفور.

– منظومة التعليم كلها تحتاج للتغيير، أن تنسف تماما. بدءا مِن المناهج الدراسية العقيمة التي تعتمد على النمطية والحفظ، ولا توجد فيها مساحة لإبداع وابتكار الطالب، كما أنها لا تقيس مستوياته العقلية. اكتشفت أنه لا يوجد ضبط وربط يتناسب مع المرحلة التعليمية وأهميتها فأصبحت الفوضى التعليمية عنوانا رئيسيا فى الفصول، يقضى الطلاب يومهم فى الدخول الى الانترنت على أجهزة المحمول. بالإضافة إلى ذلك يقضى المدرسون وقتهم إما فى تحديد مواعيد الدروس الخصوصية، أو فى صراعات جانبية بسبب فقدان أحدهم لمجموعة من المجموعات. على الرغم من ذلك يشعرون بأنهم مقيدون بالأغلال، ينتظرون الفرار من المدرسة للوصول إلى صومعة الدروس الخصوصية. بالإضافة إلى ذلك لا يبذل الطلاب جهدا فى التحصيل الدراسى لأنهم متيقنون من تسريب الامتحانات لهم!

هكذا وقف أحمد الضوى على منصة عالية جدا فوق بيته وبجواره عبد الحكيم هاشم يخطب فى آلاف من البشر، وقفوا أمام معبد الكرنك ورؤوسهم مفرغة تماما. عندما انتهى من خطبته

الحماسية صفقوا له، وتردد صدى التصفيق فى أنحاء المعبد، فخرج الكهنة من قدس الأقداس فزعين، طاردوا الجماهير حتى وصلوا إلى البحيرة المقدسة. تناولوا الرؤوس الجوفاء وغسلوها بالماء المقدس، لكنها كانت قد تفحمت تماما.

أوجد أحمد الضوي والدكتور عبد الحكيم هاشم تشابها أو رابطا مهما بين الدكتور زكريا رشدي وآمال عبد السميع، تشابُه أنجبه المجتمع ومعطياته، ربما لو حاولا أن يفسراه لفشلا فشلا ذريعا. هذه التشابه تجده فى كل عصر وفى كل مكان. والمجتمع لا يبخل على التاريخ بإنجاب هذه النماذج التي تشكل معطيات العصر ويكون لها تأثير غريب على مجريات الأحداث، وفى المجتمع نفسه.

"إذا كان المُصيب له منطقٌ يفسر به تصرفاتِه، فإن المخطئ له ألف منطق!" هذا ما قاله أحمد الضوى فى نهاية كلامهما.

فى خضم هذه التفسيرات تذكر أحمد الضوي مشروعَ الكتابِ الذي كان يحلُم بتأليفه عن التاريخ، وَجد أن الوقت غير مناسب تماما للشروع فى تحقيقه، فالجو العام يسير نحو التزييف والتزوير، فكيف يأتي فى هذا الوقت بالذات، ليهدم هاتين القاعدتين اللتين يقف عليهما المجتمع؟ مَن يسمح له بتقويض هاتين القاعدتين الراسختين حتى ولو قامت ثورة أو ثورتان؟ هل سيتقبل الناس رؤيةً جديدة مغايرة للتاريخ؟ رؤية تفند فيها كل المحاور والأحداث الماضية. رؤية ترسم ملامح جديدة جدا لشخصيات استقرت فى

أذهان الجميع بصورة معينة يصعب معها إعادة تشكيلها، أو محوها وإعادة رسمها مِن جديد. وأيضا استكتاب رؤية جديدة للتاريخ الحديث والمعاصر!

مَن هو حتى يتقبل المجتمع منه فكرةَ تغييرِ التاريخ؟ مَن هو حتى يقوِّض بديهياتِ التاريخ؟ ربما يحسبه الناس مزوِّرا يأتي فى هذا العصر وفى هذا التوقيت بالذات، ليُغيِّر أحداثا انتهت وطَوى التاريخ صفحاتِها. إذا فعل ذلك فسوف يبصق عليه التاريخ، ولن يستطيع بعد ذلك أن يتمسح فى صفحاته مثل القطط التي تتمسح فى الأقدام بحثا عن الآمان.

***

المرة الأخيرة التي قابل فيها قاسم حجازي آمال عبد السميع كانت الثلاثاء الماضي، عندما ذهب إليها فى المدرسة، استقبلته بحفاوة بالغة، ولما فرغ مِن شُرب القهوة قال لها:

– أتيتُ طالبا خدمتين يا أستاذة آمال؟

كان تلاعبه بالألفاظ يؤثر كثيرا على محدِّثه.

– اتفضل يا أستاذ قاسم أنت تؤمر.

– سعاد كمال بت أخويا كمال أنتِ تعرفينها فى فصل تانية خامس.

– نعم أعرفها.

– أتمنى أن تحصل على الدرجات النهائية فى أعمال السنة، لأنها تغيب كتيرا عن المدرسة.

قالت له وهى تشعر بأنها تتحدث مع نفسها:

– مع أن درجات أعمال السنة لعبة المدرسين، لكن الأمر يختلف معك، لن يكون أكبر مِن الذى قُمنا به السنة الماضية، لما رفعناها عشرين درجة وأصبح ترتيبها التانية على المدرسة.

– لم أنسَ يا أُم جمال، قصدي يا أستاذة آمال، وأنا لا أنسى أفضالك علينا، وهو الذي يشجعني على الطلب التاني.

قالت له وهى تحصي بداخلها الخدماتِ التي قدَّمَتها له:

– أؤمر يا أستاذ قاسم؟

– أنا سوف أخوض انتخابات مجلس الشعب كما تعرفين، أتمنى دعمكِ ومسانتدك.

– كلنا معك يا أستاذ قاسم.

كان قاسم حجازي يعرف تماما أنها ستؤيده، وهذا ما كان يعتمد عليه، فإذا كان الدكتور إبراهيم الإسناوى يعتمد على عائلته وما يقدمه للناس فى مستشفيات جامعة أسيوط، فهو يعتمد على أصحاب المصالح، إنهم يعرفون ويبحثون عن بعضهم البعض، تلك الزمرة لديها مقدرة على الحشد الجماهيري، وعمل كل ما يفشل فى عمله الشيطان، لذا عندما خرج مِن عندها بعد ساعة فقط، اتصل به على هاتفه المحمول أكثرُ مِن عشرين شخصا مِن

أماكنَ مختلفةٍ يطلبون منه إعداد مؤتمرات انتخابية له، ويطلبون منه أيضا توكيلات فى بعض اللجان الانتخابية.

17

يوم الأحد الماضي كان تمثال أمنحتب الثالث فاتحةَ خيرٍ للجميع، حتى وإنْ أُرِيقَت الدماءُ تحت قدميه، بعد مرور خمس سنوات على حادث حتشبسوت الدامي الذى قُتِل فيه عددٌ كبير من السائحين. سمع سالم الطواب أن خفير الآثار العزب الجهلان يحفر فى وادي الملوك، بحثا عن تمثال قِيل إنه راقدٌ تحت بيته. أرسل عيونَه عند الصخرة المحدبة القريبة مِن بيت الخفير، عرَف عندئذ أن جرجس أيوب قتله قبل وصولهم بعشر دقائق، بعد أن اختلفا على سعر تمثال. لكن الخبر زحف فوق الرمال وتلقفته آذان المتلصصين مِن رجال سالم الطواب وقاسم حجازي، فكانا يساومانِه فى بعض الأوقات مقابلَ الاحتفاظِ بذلك السر، الحق يقال إنه لم يبخل عليهما، وإنما فتح خزائنه بصورة لا تجعل العين تستحي فقط بل تُصاب بالعمى.

***

تسللت الشمسُ مِن خلال البوص والوقيد وجريد النخل فوق البؤر الشمسية على عيونهم، وهم جالسون حول دائرة الصرخة.

– اللقية مدفونة هِينا فى السقيفة.

هكذا همستْ سكينة مرعي مشيرةً بإصبعها إلى مكان الدائرة، ثم تقدمت خطوتين للأمام ودقت بقدمها، تابعتها أعينهم، متفحصين مكان القَدم.

– أيوه اللقية هينا يامه.

كذلك دق فتحي بقدمه بجوار قَدم أُمّه، هو أيضا حدد المكان نفسه، عندئذ قام عبد الستار ولفَّ حولهما واحتضنهما ثم همس قائلا:

– خلاص إحنا نحفر بالليل.

قاطعته أُمّه محاوِلةَ خفضَ نبراتِ صوتها.

– اللقية يحرسها رصد.

بُهت عبد الستار وفتحي، وثريا التي اقتربت بعد أن فكت طلاسم الكابوس الذي كان يؤرقها بالليل، فعرفت أن البِركة التي كانت تخوض فيها، وبها أسماك ميتة قد ردمتها الصرخة. حتى أُمّها المعروف عنها بدرايتها بتفسير الأحلام قد فشلت فى معرفة مغزى البِركة والأسماك. ذات مرةٍ جاءتها محاسن زوجة شاكر السرايري تحكي لها عن ضرسها الذي تهشم، حينئذ راوغت سكينة مرعي، ولم تشأ أن تفسر لها هذا الحلم، لكن محاسن ركضت خلفها، حتى أمسكت بها عند منحنى موضوعات أخرى لكيلا تنبئها بالخبر المبين. عندئذ صمتت لبرهة، وقالت لها الضرس المكسور فى الحلم معناه "شخص عزيز يموت ميته شينه". لذا عندما

هرول إليها "أبو الكامل" بائع النابت الذي جاءها بأخبار الغراب الذي يقف فوق نخيلها ناعقا، ويحمل فى صوته أنباء عن موتٍ وشيك لمن يتمعن فى نعيقه، صرخت محاسن وقالت: "يا ضرسي اللي اتكسر". بعدها بأسبوع شطر قطار البضائع جسد إبن محاسن عند مزلقان "أبو الجود".

وضعتْ يدَها على فمها، لما ابتعدوا للوراء قليلا، تقدمتهم أمّهم خطوةً للأمام ثم قالت:

– إحنا لازم نلجِّم الرصد الأول.

صاحت ثريا ثم أدركت علوَ صوتِها ثم قالت:

– مين ح يلجمه يامّه.

ردت الأم والثقة تختلط بكلامها:

– الشيخ مرزوق أبو مسعود المغربي.

رددوا خلفها بصوت واحد كأنهم كورس مسرحي:

– الشيخ مرزوق أبو مسعود.

سادهم صمت خرج لتوه مِن حُفَر الصمت الموجودة بداخلهم، اختبأت ألسنتُهم فلم ينبِسوا بكلمة، ثم قام فتحي ورسم دائرة بعود سسبان. رسمتها أعينهم قبْل ذلك، وحفظتها قلوبهم، بدأ كل منهم يرسم بخياله ما تحتها وما سوف يتحقق لهم.

جلستْ سكينة مرعي عند السقيفة تحفر بعينيها الحفرة، تخوض فى الطين اللزج، فتصطدم بالأحجار ذات الجذور القديمة، وجدت اللقية التي وُعِدوا بها، غرفت بيديها الذهبَ بمشغولاته الفرعونية،

والتماثيل والأواني. ثم وجدت نفسها فى قصرٍ مشيد، تطل مِن شرفته بالدور الثالث على الشاطئ الغربي للنهر، تطالع بعينيها بهو أعمدة معبد الأقصر التي ترسم نفسها فوق مياه النيل الرائقة، تتفجر المياة فجأة فتمسح مِن فوق صفحتها صورة بهو الأعمدة، عندئذ تشهق سكينة مرعي، فتجد ثريا تصرخ بجوارها تقول:

– يامَه أنا أتكلم معاكي. أنا ليَّا ساعة أنادي عليكي.

لم تكن تلك هى المرة الأولى التي تغوص فيها سكينة مرعي بأحلام اليقظة هكذا، فمنذ أن هَجر زوجُها خليفة الطواب البيتِ، ووهبَ نفسه لساحة الشيخ البصري، وهي تجد نفسها فى حال أخرى غير هذه الحال، كانت تضع نفسها كثيرا مكان حسانية زوجة سالم الطواب التي أصبحت هانم تعيش فى عمارة شاهقة فى ميدان التجارة فى الأقصر.

– نعم يا ثريا، أتقولي إيه.

هكذا قالت لها وعيناها زائغتان.

أدركتْ أن أمّها تفكر فى اللقية، فزادت الحيرة لديها ففتحي وعبد الستار غادرا، ومِن المؤكد أنهما يتحاوران الآن معا بشأنها، أمّا هي موجودة مع أُمها فى البيت، لكن أمّها خاضت بقدميها فى الحفرة المنيعة، فمع مَن تتكلم. "مين يكلمني، يا ربي، لو أبويا موجود معانا فى البيت، كان فَهَّمنى حنعمل إيه، مكانش سابني إكده حيرانه." هكذا حدَّثتْ نفسَها، لكن الغريب أنها تلك المرة وجدت نفسها تنزل بقدميها فوق السلم الخشبي، تطالع بعينيها

الكنوز التي يعيشون فوقها، لمستْ بيديها قطعَ الذهبِ والعملاتِ الذهبيةَ والأساورَ والتماثيل، فشعرت بقشعريرة تسري فى جسدها، شمت رائحةَ الذهبِ القديم، وما إنْ رفعتْ رأسَها حتى وجدت فتى يافعا مبتسما يقف فوق مركب شراعي عند الشاطئ الشرقي، فاقترب بقاربه من الحفرة، ومد لها يده فركبت، مازالت قدماها مخضبتين بالطين، لامست جسده. حملت معها صندوقا من الذهب، وعبرا معا النيل حتى الشاطئ الشرقي، ثم تزوجا وعاشا فى عمارة تتكون من خمسة أدوار فى شارع التلفزيون.

***

جمال راجح فهمي نحيف، وجهه ضئيل، له أذنان منفرجتان، يميل لونه إلى لون أبيه الأسود، لكنه أخذ مِن أمّه العينين الواسعتين، وكذلك البياض الذي يخفف مِن درجة اللون الغامق التي أخذها عن أبيه، يكبر فتحي الطواب بيوم واحد. تربى على تعاليم أبيه وأفكاره وشرب منه تطلعاته، نسخ منه عنصر تحديد الهدف، بذل الجهد لتحقيقه بكل السبل، تعلم منه اعتماده على نفسه، كما كان أبوه يحب المال، أصبح هو محبا شرها للمال، يمكنك أن تقول إنه تفوق عليه (بشكل نظري حتى الآن) فى هذا المضمار. لم يكن الوجه الآخر للعُملة فى البيت مختلفا عن الوجه الأول بل كان متطابقا، فكان جمال إفرازا طبيعيا لقطبَي البيت.

أُمُّه هي أمال عبد السميع وكيلة مدرسة الأقصر الثانوية التجريبية للبنات. ومَن لا يعرفها؟ امرأة تلامس الخمسين مِن عمرها، ممتلئة القوام، بيضاء، عيناها واسعتان، يضفي الحجابُ عليها الوقارَ والحكمة. هي امرأة يهابها الجميع، بدءا مِن أكبر مدرس إلى أصغر طالبة، مرورا بالإداريين والعمال، حتى أن مديرة المدرسة نفسها لا تُجري قَلَما فى ورقة دون استشارتها بعد عودتها من إعارتها فى عمان، تحديدا كانت هي المسئولة الفعلية فى المدرسة، ولا يصدر قرار دون موافقتها.

امرأة مِن طراز خاص، وقفتْ ضد أبيها وأمّها عندما تقدَّمَ إليها راجح فهمي. ساعتَها وضع أبوها صورتَه فى الطين وراح يدهسها بقَدَمِه، أشار إلى عينيه اللتين لا تستحيان، لكنها مع ذلك أصرت عليه. أكدت لهم أن المنبت الطيب ليس كل شئ فى الزواج، ضربت لهم أمثالا كثيرة لحالات زواج مِن عائلات لها أصل كبير ومع ذلك فشلت، منها ابنة عمها فايزة، وابنة خالتها هند اللتان مازالتا تعانيان مِن زواج تعيس. ذكرَّتهم بأنه مرشد سياحي، سيوفر لها معيشة مريحة. ربما عرفت بعد ذلك أن كلام أبيها وعمها كان صحيحا مائة فى المائة، لكنها كالكثيرات من النساء اللاتي يتخذن قرارا يغاير قرار أُسَرهن بشأن زواجهن، ورغم ذلك فإنهن يتحملن قسوة ما يحدث لهن بسبب سوء اختيارهن، ربما ينفضن أي غبار يلحق بصورة أزواجهن أمام الآخرين. لم تشأ أمال عبد السميع أن تحكي لأمِّها ثاني يوم مِن زواجها عن

صورته الحقيقة التي اكتشفتها، رأت وجها آخر مختلفا تماما. لم تقدِر على مصارحتهم بالتصرفات التى تُظهر النقص فى شخصيته. على أى حال استطاعت كل تلك السنوات أن تتحمل لزوجةَ الطين الذي يدنس شخصيته، وأن تكتم كل نفور أو ضيق يحيق بها. لم تنجب سِوى ابنٍ واحد كانت تعتبره غلطة لن تتكرر. عندما وانتها فرصة الإعارة لعمان لم تتأخر، سافرتْ وادخرت كل قرش فيها لنفسها، أو على الأقل لترتاح مِن رؤية وجهه "الكِلح" كما كانت تقول فى نفسها.

– المدرسة هى البوتقة التي تنصهر فيها كل الأخلاقيات، مِن هنا يأتى دورنا في الثناء على الجيد، وإظهاره ودعمه بكل السبل، وتقويم السيئ، إذا كانت البيئات هي التي تنجب وتورد لنا الكثير مِن الفتيات اللاتي لم يتخلقن بالسلوكيات التي تربَّيْنا عليها، فإننا بهذا الصدد نضرب بيدٍ مِن حديد. أمّا عن المدرسين الذين ينسون دورهم التربوي والتعليمي فلنا فى كسر الرقاب تاريخ طويل.

هكذا كانت تردد بين الحين والآخر فى طابور المدرسة لكي تثبت للجميع أن دورها فى المدرسة حيوي، وأن الجميع بمن فيهم مديرة المدرسة حتى أصغر طالبة يدينون لها بالولاء. هذا الولاء لم ينبع مِن كونها وكيل المدرسة والمنوط بها حفظ النظام وتسيير العملية التعليمية كما ينبغي، ولكن لأنها تفهم تماما دور كل فرد وسيكولوجيته فى المجتمع. ربما استفادت كثيرا مِن خبرات الأخريات ممن سبقنها، فهي لم تكن صارمة تماما فتتحول هذه

الصرامة إلى عدو يضر بصاحبه مثلما حدث مع سميحة أبو العزم التي نُقلِت إلى عملٍ إداري بالإدارة، ولم تكن لينة العريكة تماما مثل هُدى الإسناوي ابنة عم الدكتور إبراهيم الإسناوي فكثرت فى عهدها المشكلات وتفاقمت.

جاءت آمال عبد السميع لتمسك العصى مِن النصف، ترتدي ثوب الصرامة عندما يحتاج الموقف إلى الشدة، وتضع قناع المرونة حينما يطرق شخص ما على حديد المشكلة وهو ساخن. وضعتْ لنفسها إطارا يجعلها تمسك بزمام الأمور، لكي تضمن تحقيق هذا الدور. كلفت الأخصائيات بالتنصت على المدرسين والمدرسات، وكذلك الطالبات. أمّا المدرسون فعيَّنَت مدرسَ الرسم الذي راح يتنقل طوال اليوم الدراسي، حتى يسمع ويرسم قدْرا كبيرا مِن الأحاديت الجانبية.

18

"اتَّجِهْ صوبَ الغرب إلى بلد الأبرار، إن نساء السفينة يبكين كثيرا جدا، فى سلام إلى الغرب أيها الملك، تعالَ فى سلام، فإذا أدركنا يوم الخلود فإننا سوف نراك ثانية، لأنك ذاهب إلى البلد الذي يختلط فيه الجميع."

توقف الدكتور عبد الحكيم هاشم قليلا، وهو يقرأ مقتطفاتٍ مِن "كتاب الموتى" فى القاعة التي احتشد فيها طلاب الفرقة الرابعة

فى المعهد الإقليمي العالي لترميم الآثار، نَظَر أمامه وكأنه يحتضر. تقدَّم للأمام بين الصفوف، وراح يكمل المحاضرة:

"كان موكب تشييع الجنازة يتم فى قارب، يتوسطه تابوتٌ تتكدس حوله الزهور، تعلوه مظلة ذات أعمدة رفيعة، يجلس بجوار الجثمان نسوة متشحاتٌ بالسواد من العائلة الملكية، يندبن ويولوِلن على حين يقوم الكاهن الجنائزي بتقديم القربان وحرق البخور أمام المومياء."

الحالة التي انتابت الدكتور عبد الحكيم هاشم بعد انتهائه من المحاضرة لم يعرف سببها، وإنْ كانت مرتبطة بموضوع المحاضرة، فأثناء الخاتمة شَعَر بدموع ساخنة مخبوءة فى مقلتيه، ربما حبسها لفترة طويلة فأثَّرتْ على صوته الذي احتقن، لم يشعر بأنفاسه إلا حينما سعل.

ما حقيقة الموت؟ هل الموت هو نهاية حتمية لكل إنسان؟ هل الموت هو راحة للإنسان مِن آلامه، ومِن الآخرين، أو مِن الدنيا كلها؟ كل تلك التساؤلات دارت فى خَلَده وهو يجاهد لالتقاط أنفاسه، حينما رفع جفنه رأى وجوها هلامية تتراقص أمامه. تشابكت هذه الصور وامتزجت ألوانها، وتصارعت فيما بينها حتى وصلت إلى مقدمة رأسه فأصيب بصداع شديد تسبب فى تثاقل جفنيه.

راحت الحُفَر الاجتماعية تتسع فى مخيلته، بدءا مِن علاقاته مع الدكتور زكريا رشدي، وعلاقته المتوترة دائما مع زوجته، مع

ذكرياته القديمة وخلافاته مع عمه وأبناء عمه، وما يحدث على الساحة السياسية وأحوال البلد. كل تلك الحفر تعانقت مع حفر طريق الكباش، وزادتها عمقا، سقطت نظراته فيها واختلطت بالأتربة القديمة جدا، عندما عاد إليه الوعي وجد نفسه أمام السنترال الرئيسي، منزله الكائن فى شارع السوق قد اقترب بشدة مِن طريق الكباش، لكنه استمر فى طريقه وآثِر أن يؤجل عودته، ويذهب إلى مسجد " أبو الحجاج" ويغسل همومه التي لم يستطع دفنَها فى طريق الكباش.

***

اعتادت أمال عبد السميع على الحصول على عشر جنيهات عن كل عارضة تحتسبها للمدرس، وعشرين جنيها ليوقِّع المدرس فى اليوم التالي ليثبت حضوره فى اليوم السابق. أمَّا شكوى أولياء الأمور مِن المدرسين الذين يجبِرون الطالباتِ على الدروس الخصوصية، فكانت تساوم المدرس على الشكوى، فتمزيقها بخمسين جنيها، ذلك إذا كان ولي أمرِ الطالبة مِن عامة الشعب، أمّا إذا كان ولي أمرِها شخصية معروفة فمائة جنيها قليلة على تمزيقها. أمّا إذا رفض المدرس الرضوخَ، فالتنكيل به مِن أيسر الأمور التي تقوم بها. ربما تحيله إلى التحقيق لينال خصما عشرة أيام مِن راتبه، أو يُرفَع أمرُه إلى مدير الإدارة الذي ينقله إلى قُرى الأقصر النائية كالزينية بحري أو المدامود. أمّا مدير الإدارة فراج

خضري فله حصة مِن تلك الأموال التي تحصّلها مِن المدرسين، وكذلك أموال الأنشطة العارفة- هي- بخباياها تماما.

هكذا كان راجح فهمي وآمال عبد السميع المَثَل الأعلى لجمال فى معرفة حقائق الحياة، كانا يحاسبانه حسابا عسيرا على بذخه الذي يراه هو بدوره أقل مما يحصل عليه زملاؤه. لذا تعوَّد على سرقتهما. كان يريد أن يتميز عن أصدقائه، إذا اكتشفا تلك السرقة ينصبان له المحكمة العليا، يظلان حتى الصباح يلقِّنانِه أهميةَ الشرف والنزاهة فى حياة الفرد فى المجتمع، وأن السرقة مِن الكبائر، لذا على المجتمع أن يبتر العناصرَ السيئة فيه. آخر مرة اكتشفتْ أُمّه سرقتَه لها عندما كان فى الثانوية العامة، لما أراد أن يشترى ملابس جديدة، حينها جلست آمال عبد السميع على الأرض تصفق بيديها وتلطم على وجهها.

ظنتْ أن الله يعاقبها على ذنب كبير اقترفته، لكنها فتشت فى سيرتها فلم تجد هذا الذنب، فلماذا يكون ابنُها لِصّا؟ هي تتقي الله فى عملها وفى بيتها. تؤدي الرسالةَ كما يقول الكتاب.

ظن أبوه وهو يبحث مندهشا فى سجله الاجتماعي عن جُرمٍ ارتكبه فى حق أي إنسان، فلم يجد جرما واحدا يستحق أن يُعاقَب عليه فى ابنِه. لكنهما على الرغم مِن ذلك استطاعا أن يتجاوزا هذه المحنةَ التي يختبر الله من خلالها المؤمنين من البشر، والصابرين على الابتلاء. "المؤمن مُبتلَى" هكذا كانا يقولان. فى اليوم التالي لا يتذكران هذه الملحمة، إنما يفتعلان نوباتٍ مرحٍ

لكي يخرج النكد والحسد وخلفهما الشيطان الرجيم مِن الشبَّاك. يدركانِ أن فعلتَه "طيش شباب، وعندما يكبر سيتزن وسيدرك الخطأ مِن الصواب" هكذا كان يطمئنان نفسيهما ليعودا إلى كفاحهما الطبيعي فى الحياة.

***

هناك شخصان إذا رأيتَ كلَّ واحدٍ منهما على حِدة، تشعر بأن هناك رابطا ما بينهما، أو ملمحا مِن الملامح أو حتى شَبَها ما حتى وإنِ اختلفا فى كل شيء. إذا رأيتهما معا فإنك تبتسم فى داخلك، وتشعر عندئذ بالفخر على حدسك ونفاذ بصيرتك. عندما تفكر مليًّا فى تلك الفكرة تجد أن أصحاب المصالح بالفعل يتشابهون، ربما يُلقى ذلك الشبه عليهم بسبب التوجه الواحد، أو المصلحة الواحدة. هذا ما حدث بالضبط بين قاسم حجازي والدكتور زكريا رشدي. فهُما مختلفان تماما، فالأخير حاصل على دكتوراة، حتى وإن كانت مِن رومانيا، لكنها مع ذلك دكتوراة. قال البعض إنه حصل عليها بالتحايل، وقال آخرون إنه دفع للمشرِف مبلغا كبيرا من المال.

أمَّا قاسم حجازي فقد كان خريج دبلوم صنايع، حتى وإن نجح "بالغش مقابل الطعام"، فكان أول مَن يبتكر طهي الطعام للمراقبين فى المدرسة بعد جمع الأموال مِن الطلاب. لكنه استطاع ببعض القدرات أن يذيب تلك الفوارق، فبدأها منذ أن كان

عضوا فى المجلس المحلي. العجيب أن طموحاتِه فى خوض انتخابات مجلس الشعب واكبت التغييراتِ التي حدثت فى الحزب، مما جعله يلعب على أوتار التغيير، حتى تنامى إلى مسامع الدكتور زكريا رشدي آراءُ قاسم حجازي فى التغيير، هنا تلاقت أفكارهما، وحظي كل منهما بشبه الآخر فى ليلة القَدْر. لو أُتيح لك أن تراهما فى اللقاء الأول الذي جمعهما فى كافيه "حبيبة" تحت جناح كوبري الأقصر العلوي وهُما يحتسيان المشروبات لوجدتَ أنهما مِن عائلة واحدة، أو أن صداقتَهما قديمةٌ قِدَم الآثار نفسها.

الاجتماعات التي كان يديرها الدكتور زكريا رشدي فى منزله بالمنشية لأعضاء الحزب كانت مثمِرة، فجَمَع كل الأعضاء السابقين، والذين أدركوا أن نجاحهم فى انتخابات مجلس الشعب مرهون بدعم الحزب، فتلك الاجتماعات تتناول سياسة الحزب فى المرحلة الراهنة والمرحلة المقبلة، لذا فقدْ وقف الدكتور زكريا رشدي وقال:

– إن السياسات الجديدة التي انتهجها الحزب فى الآونة الأخيرة، تشمل تطلعات كل الأعضاء الطامحين فى تحقيق ذواتهم مِن خلال أجندة الحزب، وقد وضع آليات وضوابط مِن شأنها أن تضع الحزب فى مكانة رفيعة المستوى، ليفِي بمتطلبات وأحلام الجماهير العريضة مِن الشعب، لذا سيكون اختيارنا لمن يمثل

الحزب فى تلك الدائرة، ولمن لديه قدرات متميزة، وإيمان عميق بالحزب وبتوجهاته، ويعمل على ترسيخ أفكاره لدى الجماهير.

صفَّق الحاضرون، وراح كل واحد يهز رأسه علامةً على الاستحسان، نهض قاسم حجازي وهو يضبط ربطة عنقه ويحرك كتفيه لاستجماع قوة التأثير بداخله وقال:

– إيماننا بالحزب لا يقل عن إيماننا بالوطن، فالحزب هو الوطن، والوطن هو الحزب. تعلمنا على أيدى فقهاء الحزب، أن العمل الوطني فى البلاد هو أساس دستور الحزب الذي أسسه الرئيس الراحل، كلكم تعرفون مَن هو الرئيس الراحل؟ وكلكم تعرفون المرحوم جمال الصاوي الذي أفنى عمره مدافعا عن الحزب وسياساته.. وصلاح عبد التواب ورفقي صبحي، ذكرت لكم تلك الرموز الوطنية، كي تعرفوا أن الحزب باق، ونحن زائلون، لكن لدى كل واحد منا فرصة، كى يُخلِّد نفسه من خلال أجندة الحزب، لذا فإن إيماني لا يتزعزع من أن الحزب، لن يتخلى عني فى اختياره لكي أمثله وشكرا لكم.

19

لم يدرِك أحمد الضوي سببَ دعوةِ وكيلة المدرسة إلى بيتها، وإنْ راح يحلل بعض الأحداث الأخيرة التي كانت سببا فى الشقاق بينهما، بالذات موضوع فصل بعض الطالبات لمدة أسبوع:

قال لها وقد بدأ فمُه فى الاتساع، بعد حبس انفعاله فى حنجرته:

– يا أستاذة أمال البنات لم يقترفن ذنبا.

انتظرت آمال عبد السميع ثانيةً قبل أن ترد، لأنها كانت تنتظر أن يكلمها بنبرة أكثر حدة تدفعه لها دفعا:

– كيف تقول إنهن لم يقترفن ذنبا؟ رفعن أصواتهن على مدرس الرياضيات.

فى تلك اللحظة عرفتْ تماما أنه لن ينفجر منفعلا، مما جعلها تستمر فى الضغط عليه، وعدم إتاحة الفرصة له.

– لم يرفعن أصواتهن، بل كان هو الذي يجبرهن على الدروس الخصوصية.

هكذا قال لها، وإنْ بدأ يخفض مِن حدة نبراته، ويغمسها فى أوانى المرونة من أجل الوصول إلى حل، عندما قرأ فى عينيها مكرا تخبئه فى هامش حديثها.

– لم يحدث هذا يا أستاذ أحمد.

– بل، حدث يا أستاذة آمال.

وضع يده على عينيه، وكأن الحوار قد تدفق فأغرقهما معا، كانت نتيجة ذلك أن حولته للتحقيق. يومها قال لها:

– أنا موافق على التحقيق، وسأقول كل شئ يحدث فى المدرسة.

عندئذ وصلت حدة الخلاف أقصى درجاتها، غلت على موقد معبأ بزيت قديم لا ينتظر أن يشتعل فحسب، ولكن لينفجر فى وجه الجميع.

ربما كانت تلك هى المرة الوحيدة التي تستقبل فيها مدرسا فى بيتها، فمعروف عنها أنها تحسم كل المشكلات التي تستجد تِباعا فى مكتبها، لكن فى تلك المرة دعته لبيتها بعد أن فشلت ثلاث مرات فى احتواء غضبه فى مكتبها.

ذات مرة ذهبت آمال عبد السميع إلى أحمد الضوي فى المكتبة، فهى تعرف أنه يكون فى أحسن حالاته وهو يقرأ، فى الوقت نفسه تدرك أنه لا يحب أن يقاطعه أحد أثناء القراءة، لكنها على الأقل تستغل حالة السلام النفسي التى يغوص فيها، والتى انتقلت إليه من صديقه عبد الحكيم هاشم.

جلستْ بجواره بعد أن التقطت كتاب "المؤامرات فى الدولة العباسية". كانت قد أشارت لأمينة المكتبة التي همَّتْ باستقبالها بحفاوة بأن تسكت وتظل مكانها، حتى لا تزعج القُرَّاء فى المكتبة، ولكي تحافظ فى الوقت نفسه على فلسفة الهدوء الذي يحف المكان، لكنها فى قرارة نفسها تريد أن تفاجئ أحمد بجلوسها بجواره حتى ينمو جدار الألفة الذي تهدَّم تماما بينهما مرة أخرى.

شعرتْ بنجاحها فقط وعيناها اللتان تخطوان مِن نتوءات "مؤامرات الدولة العباسية" الذي تقرأه، إلى سهول كتاب "أسس دولة العدل" الذي يطالعه أحمد، فى الوقت نفسه ترصدان مِن الجانب الأيسر لمقلتيهما اللحظة التي يشعر بوجودها. التقطتْ عيناها احتفاظَ أحمد بهدوئه حينما لاحظها، تأكدتْ مِن ذلك عندما أومأ لها

وابتسامة باهتة جاهد فى إخراجها مِن خديه المبطنين بجدار الضيق والنفور منها.

أمَّا هو فقدْ أدرك فى قرارة نفسه أن كلامه معها فى مكتبها قد هزها بشدة فى عليائها، وأن الأمر يحتاج إلى وقت. لذا فقدْ وجدها فرصة مناسبة حينما وجدها بجواره فى المكتبة أن يفتح بابا جديدا فى الجدار الذي بدأ يعلو هذا اليوم بينهما، حتى ولو كانت ابتسامةً يجاهد فى استخراجها مِن أعماقه.

ما لم يره أو سمعه أحمد الضوي هو أن آمال عبد السميع قَد استدعتْ الأستاذ كيرلس شنودة مدرس الرياضيات والأستاذ فرج فتوح مدرس العلوم قبْل شم النسيم الماضي بثلاثة أيام، ناقشتْ معهما ما حدث مع أحمد الضوي، كأنها تتوِّه فى البداية لتحويله للتحقيق، وأن يتخلصوا منه بعدَها فى أقرب فرصة، لكنها كررتْ لهما ما هدد به، هنا تصنَّعَا الهدوءَ وبداخلهما غليان شديد، إلى أن استقروا جميعا أن تلجأ الوكيلة إلى أسلوبٍ ناعم معه حتى لا يثير الماءَ الراكد.

فى تلك اللحظة المحتومة جاء زوجها راجح فهمي الذي كان يعرف بأمر الزيارة التى جعلتهما يفكران قبْلَها فى الليلتين السابقتين عما سيحدث، فى الأسلوب الأمثل معه، والحلول التي اقترحاها فى حالة إذا فشلت معه المفاوضات. قال متوددا:

- ابن مَن يا أستاذ أحمد؟ أقصد مَن أبوك؟

- أنا ابن الشيخ الضوي زاهر.

– إنت ابن الشيخ الضوي زاهر؟

هكذا قال راجح فهمي وابتسامةٌ مولودة تخرج منه، فى الوقت نفسه اعتلت الدهشةُ جبينَه، ثم أردف قائلا:

– يا رجل، أبوك شيخ بَرَكة، المرحوم أبي كان يتبارك به، ياه. أنظرْ، كم أن الدنيا صغيرة؟

ابتسم أحمد ولم ينطق، إنما راح يجول بعينيه فى الغرفة وما بها مِن آثاث غالٍ، كيف يفِر مِن الرجل الذي طارده بنظراته؟ غاب عنه كلام راجح فهمي الذي نظر إلى حركات شفتيه الهلاميتين، وأطرق مفكِّرا، حتى جاءت آمال عبد السميع معلِنةً أن العشاء جاهز. فمدَّ أحمد الضوي يدَه معترضا، لكنهما بذلا معه جهدا كبيرا لم يقوما به فى حياتهما، إلا مرة واحدة عندما اختلف معها مدير الإدارة السابق حينئذ اضطرت أن تدعوه على وجبة عشاء.

اضطر أحمد الضوي للوقوف والذهاب إلى مائدة العشاء وقلبه وعقله يرفضان الإذعان.

مأدبة العشاء السياسي التي أعدتها آمال عبد السميع، يمكن أن تكون قد أزالت الفجوة التي حدثت بينها وبين أحمد الضوي، ربما تسببت فى إطفاء النار التي اشتعلت فى قلبيهما، لكنها على الأقل صنعت حالة من الترقيع الاجتماعي التي تجيز لهما– على الأقل– قبولَ كلام الآخر، أو تصد الآخرين الذين يؤجِّجون النارَ الكامنة فى قلب كل منهما. هكذا كان حال كل الناس فى البر الشرقي لنهر النيل، فيقال "اطعم الفم تستحي العين."

ما جعل مسألة الترقيع بينهما أمرا واقعيا، هو اشتراكها فى المؤتمر الشعبي الثاني الذي أقامه قاسم حجازي فى الكرنك، نظرا لما تمثله أصوات الكرنك مِن ثِقَل لدى المرشح، ومحاولة منه لسكب الماء البارد على الوجوه الغاضبة منه ومن الحكومة، بسبب تترية الإزالات التي قامت بها. استغلت آمال عبد السميع هذا المؤتمرَ لتكسب أحمد الضوي فى صفها تجاه أي قرارات تتخذها فى المدرسة، ولكي يقوم هو وأبوه بتأييد قاسم حجازي لما يمثلانه مِن أهمية بين نجوع "الكرانك" لسمعتهما الطيبة ولتفانيهما فى عمل الخير.

ما تسبب فى نجاح المؤتمر هو جلوس الشيخ الضوي فى المنصة بجوار قاسم حجازي وآمال عبد السميع ونائب مدير الأمن، فكان ذلك سببا مباشرا فى امتلاء السرادق الذي أقيم بجوار بيت الشيخ.

بعد انتهاء المؤتمر الشعبي استقر فى وجدان قاسم حجازي أنه وضع فى جيبِه الآن فقط أصواتَ "الكرانك" كلها بجميع نجوعها وعائلاتها، وربما يكون ذلك هو الفارق بينه وبين بقية المرشحين.

***

صفَّقَ الحاضرون، وقف الدكتور زكريا رشدي، أشار للجميع لينظروا إلى شعارات الحزب الجديدة، ثم قرأها لهم "الحزب الديمقراطي الشعبي رؤية للحاضر واستشراف المستقبل"، "الحزب الديمقراطي الشعبي نبض الأمة وضميرها"، "الحزب الديمقراطي

الشعبي أجيال من العمل الوطني" .. صفق الجميع وأشار الدكتور زكريا رشدي لهم بيديه امتنانا، ثم جلس وابتسامته طويلة ماتزال متعلقة بشفتيه وبالتجاعيد التي نبتت حديثا. هنا قام سيد اسماعيل المرشح القديم وقال:

– يسعدني أن أكون فى مقر الحزب متمنيا دعمه لي، وإني عازم على السير على درب الحزب وقياداته، وجدت نفسي مدفوعا بمواصلة مشواري بعد كل تلك السنوات من العمل الوطني، الدورات السابقة فى البرلمان أنفقت فيها الغالي والنفيس من أجل الدفاع عن فلسفة الحزب وتوجهاته الراسخة، وكذلك رغبة مني لخدمة أبناء دائرتي، لذا أتيت اليوم طالبا دعم الحزب لي وشكرا لكم.

استمر التصفيق وراح كل واحد مِن الحاضرين ينظر فيمَن يليه، دارت حوارات جانبية. ثم وقف الدكتور زكريا رشدي، فوقف الجميع، حاول كل واحد الوقوفَ بالقرب منه، فجأة أطلَقَ ضحكة مدوية وقال لهم وهو يضمِر فى أحشائه أكثرَ مما يعلِن: الحزب يدعم الوطنيين فى كل مكان.

الأزمة الصحية التي انتابت الحاج حجازي عبود، والتي نُقِل على إثرها إلى المستشفى الدولي فى منتصف الليل أدهشت الجميع، فكل مَن كان يسمع عنه كان يقول: "قابلته وهو خارج مِن الجامع بعد صلاة العصر." ويقول آخر: "قابلته فى الحَضْرة اللي عملها وَرْد أبو حسين." لكن الذي لا يعرفه أهل البلد أن الحاج حجازي

تشاجَر مع ابنه قاسم عندما سمع أنه باع عشرة فدادين لينفق على حملته الانتخابية.

– لما سمع أبويا خبر بيع العشر فدادين زعَّق لقاسم وبعد كدا مقدرِش يسند نفسه، ووقع على الأرض، قمت صرخت، راح قاسم كتم صرختي.

هكذا باحت صباح أختُه المطلَّقة لابن خالتِها مهدي الذي ارتكن إلى جدار العناية المركزة. لكن ظل قاسم واقفا، يحاول أن يتماسك، يبرر لكل مَن أتى مهرولا خلفهم أن الانزلاق الغضروفي آلمه بشدة. إلا أن صباح كانت تعض على شفتيها كلما سمعته يقول ذلك.

20

كانت العلاقة بين فتحي الطواب وجمال راجح وهُما فى كلية تجارة أسيوط كالرياح الموسمية، يلتقيان فى أوقات متباعدة ثابتة، فى الحفلات العامة أو فى الامتحانات، لم يبحث أحدهما عن الآخر، ظلت علاقتهما فى السنوات الثلاث الأولى فى الجامعة مثلما كانت فى الثانوية العسكرية، الفتور واللامبالاة هُما عنصراها، ربما كان كل منهما يشعر فى قرارة نفسه بالنفور مِن الآخر، لأنه يراه أقل منه، كانت هذه العلاقة مثلَ أثرٍ غير مكتشف يتكدس التراب عليه كل يوم، لكنه مع ذلك موجود،

يحتاج لمن ينفض عنه هذا التراب. ربما يُكتَشف فى يوم من الأيام. قُدِّر لهذا الأثر أن ينفضا هُما الاثنانِ الترابَ عنه ويعلنان اكتشافه، وأن تنمو هذه العلاقة فى العام الأخير. كان كل منهما يعرف أن هناك جانبا مضيئا فى شخصية الآخر، وربما كان هذا الجانب عاملا كبيرا فى تقوية العلاقة بينهما، أدرك جمال أن فتحي حفيد الطواب الأكبر، وأن القرب منه سيكون له سبعُ فوائد، أهمها الدخول معهم فى دائرة البحث عن الآثار.

عندما عبَر النيل إلى البر الغربي قبل شهر رمضان الماضي بثلاثة أيام لزيارة فتحي بعد حصوله على الإعفاء من الجيش رأى أختَه ثريا، أدهشته روعةُ وجهِها ذي اللون الفسفوري الخلاب، انتابه شعور غريب وجاذبية شديدة نحوها. ربما لم تكن جميلةً بمقياس فتيات الجامعة، لكن جمالها يتلخص فى بِكريَّتِها وعُذريتِها، فى نقاء وجهها الذي لم يقربه مسحوق تجميل، هذا الانجذاب يشبه انجذابَ المرء لقطعة الآثار الأصلية التي لا يستطيع أي بَشر مهما كان محترفا أن يقلدها، ربما لا يجد مثيلا لها.

عندما فُتِح الباب المؤدي إلى السقيفة الداخلية رأته ثريا فى أقل مِن دقيقة، أُصيبت بالارتباك، فتدفقت الدماء إلى وجهها، للمرة الأولى تنتابها دفقاتٌ شعورية نحو شخص غريب، حاولتْ أن تبتعد عن مجال رؤيته، لكنها فشلت، إلا أن إرادتها المتبقية حرَّكَتها لكي تبتعد.

بعد عيد الفطر مباشرة هاتَفَ فتحي الطواب الشيخَ مرزوق بو مسعود فى المغرب، فعرَف منه أدواتِ ترويض وكبح جماح الرصد الذي يحرس اللقية. لما عرَف ثمنها أصيب بـ(لتَّه) فى لسانه، شعَر بتنميلٍ ثم ثِقَل لسانِه عن الكلام. ظل يتنقل مِن البر الغربي إلى الشرقي يعبُر مِن حيْرة إلى أخرى. يبحث عن مموِّل مناسب فى وجوه المارة بعد أن فشل فى العثور عليه فى الوجوه التي يعرفها.

***

ربما كانت حمْلة الدكتور إبراهيم الإسناوي تختلف كثيرا عن حمْلة قاسم حجازي. فقدْ انتهَج أسلوبا هادئا ومتزنا، فعندما يذهب لمؤتمر انتخابي كان يجِد مَن يقوم بعمل السرادق ودعوة الجماهير نظرا لشهرة عائلته وعلاقات النسب التي تربطه بالآخرين، أو لأنه خدم بعض الناس فى مستشفيات جامعة أسيوط، وربما لأن الناس يرون فيه الشخصَ المناسب، فهو لا يحتاج للمال فقدْ ورث مالا وأراضي وعقاراتٍ ليس لها حد، ويرون أنه لن يتورط فى عمل غير مناسب فى يوم من الأيام بسبب شهوة عضوية مجلس الشعب.

ذات مرةٍ ذهبَ لمؤتمر انتخابي فى شارع السوق، تجرأ شخص مِن الحاضرين وقال له: "نحن نؤيد قاسم حجازي" ضجت المندرة همهمةً وضيقا مِن هذا الرجل. اقترب أحد أنصاره وهمس فى أذُنِه

أن هذا الشخص يدْعَى حساني فايز، كان يعمل أمين مخازن فى فندق إيتاب ونهبَه، ثم طردوه. لكن الدكتور نظر إليه نظرة ذاتَ معانٍ عميقة، لم يشأ أن يَفضحه على الحضور، تجاهله تماما، وأكمل رؤيته الخاصة بالمرحلة المقبِلة.

ربما اضطر أن يدفع للحزب حتى يدعمه، ولِمَ لا؟ فالجميع يدفعون، لا حرج فى أن ألقِم هذه الأفواهَ النهِمة للمال فى سبيل الدخول فى زوارقِ السياسة، هكذا كانت تتردد بداخله الخواطر وتتأطر. منذ سنوات وضع لنفسه أهدافا لدخول الانتخابات أولها: تدعيم علاقاته الجامعية والوصول إلى أعلى المناصب مثل رئيس جامعة أو وزير تعليم عال. ثانيا: تعضيد أواصر عائلته وإكساب صفة التاريخ السياسي لها. ثالثا: حتى لا يُقال إن قاسم حجازي أخذ منه المقعد وهو على قيد الحياة. سمع أيضا بعض المشايخ فى القنوات الفضائية يُبيحون للمواطن دفعَ الرشوةِ للحصول على حقه.

***

لم يتقابل جمال راجح فهمي مع فتحي الطواب منذ أن استلم وظيفتَه فى البنك الوطني المتحد، كان يعمل منذ التاسعة صباحا حتى الخامسة مساء، انقلبت حياته رأسا على عقب. المسؤلية التي وجدها فى الحسابات والأرقام الكبيرة المتداولة يوميا، جعلته يفقد اتزانَه فى البداية، لكنه وضع نفسه فى مضمار التحدي فعليه

أن يثبت جدارته، كان مثابِرا، حاول أن يتعلم ويفهم كل صغيرة وكبيرة. عمل فى كل الأقسام، بدءا مِن الأرشيف، والحسابات الحكومية والقروض والفيزا كارد إلى الحسابات الجارية.

يوم السبت، راحته الأسبوعية، تقابلا على الكورنيش أمام معبد الأقصر، تذكَّرا الأيامَ التي قضياها معا فى كلية تجارة أسيوط، حكى فتحي عن أحلامه فى الثراء السريع سواءٌ بعثورِه على تمثال يبيعه بالملايين، أو بزواجه مِن امرأة سبعينية يحصل على كل ما لديها. تمنى أن يعيش فى منطقة "الفيروز" (أرقى منطقة فى الأقصر) التى أنشأتها نساء أجنبيات عجائز لشباب من البر الغربى، وأن تبنى له واحدة منهن عمارة تتكون من عشرة طوابق. حينئذ لن يقل شأنه عن أسعد النِوَرِى الذى تزوج برجُل هولندى (gay) عالج له أمه المريضة فى مستشفى استثمارى، وبنى عمارة تتكون من أحد عشر طابقا، كتب على صدرها "هذا من فضل ربى".

ناقش فتحى وجمال هذين الأمرين فى العام الأخير بعد حالة التطبيع التي دخلا فيها.

تذكَّرا اليومَ الذي كانا عائديْن فيه فى القطار حينما تناقشا بخصوص استخراج اللقايا، ساعتَها أبدى جمال رغبتَه فى العثور على لقية، لكن فتحي كان يحاوره وكأنه لم يسمع يوما عن هذه الموضوعات، أمَّا جمال فحاول أن يزيح الستار الذي يختبئ وراءَه فتحي فلم يستطع!

ماء النيل الذي امتص اللون الذهبي مِن الشمس العائدة فى نهاية اليوم لتستقر خلف الجبل الغربي، يغسل وهو ينساب للشمال شوائب البُغض التي كانت مترسبة فى وجدان كل منهما، عندئذ أزاح فتحي عن الستار نفسه، فخرج مِن ورائه مشروع اللقية.

– تكاليف استخراجها تحتاج لمبلغ كبير.

– كم يا طواب؟

– مائتان وثمانون ألف جنيه يا طواب.

– .....

– رأيك إيه؟

الأسماك الصغيرة التي ظلت تسبح تحت سطح الماء أمامهما فى صمت، تشبه الأفكارَ ذات الزعانف الصغيرة التي سبحت داخل كل منهما، على الرغم مِن أن هذه الأسماكَ متباينة لكنها فى النهاية تسير فى كل اتجاه بسرعة شديدة.

21

المحاولات التي بذلها قاسم حجازي فى اختراق البرامج الانتخابية للمرشحين المستقلين كانت غير مسبوقة، فكان يستقطب كل الأشخاص المؤثرين فى العائلات، أو يبحث عن مناطقِ الخزي والعار فى هؤلاء المرشحين، ويقوم أحدٌ مِن أنصاره بمساومة الآخرين.

ذات مرة ذهبَ إلى أحد المرشحين الجدد بعد الثانية صباحا ليساومه، كان يعرف أنه سيحصد أصواتا كثيرة، وستؤثر حتما على نصيبه من الأصوات. لكن هذا المرشح يعرف تماما أن زيارة قاسم حجازي ليست رخيصة فكان عليه أن يخرج منها بمكاسبَ كثيرةٍ. لذا فلم يفلح معه عرض الشقة فى مدينة طيبة الجديدة، أو فدان أرض فى الحبيل. لكن عندما تحدَّث معه عن ماضيه منذ عشرين عاما، ابتلعه كأنما يبلتع دواءا مُرًّا لمرض خبيث، لم ينبس بكلمة، هكذا خرج قاسم منتصرا.

– انت فاكر لما سرقت عشرين عجل من بيت فزاع الديناري. انت فاكر إنك نفدت من السرقة دي، دا تليفون صغير مِن مجهول، وحتلقى جثتك فى ترعة البياضية.

هكذا رنت فى أُذنيه تلك الكلمات التي قالها للمرشح، جعلته يخرج مِن عنده مرفوعَ الرأس.

لم يتوانَ قاسم حجازي فى بذل الجهد فى حملته الانتخابية، فقد زار مع سالم الطواب ومحمود العادلي وكذلك أعضاء حملته القُرى والنجوعَ، وأقام المؤتمراتِ الشعبية، زار كل "المنادر" وخَطَب عندما كان يرى أهمية للخُطبة، يتحدث عندما يستدعي الأمرُ حديثا، يخوض فى مناقشات عندما يكون فى المكان مثقفون. الجديد الذي قام به، وانتشر بين الناس هو زيارته الشهيرة لأهل شابٍ مات غريقا فى النيل، رأى أهله أن يدفنوه فى الصباح

عندما يصل أبوه مِن كوم امبو. فَسهِر معهم حتى الصباح، وشارك فى تشييع الجنازة لجبانة الساحة الرضوانية.

لذا انتهز الفرصة فى يوم الدفن، وصلَّى الجمعةَ فى الساحة الرضوانية، بعدَها استأذن مِن الشيخ وأمسك الميكرفون، خَطَب فى ألفيْن مِن المصلِّين. عندما عرِف النتيجة التي أتت ثمارها فى اليوم نفسه، والتي كانت على شكل هتافات خارج الساحة، قرر أن يزور ساحة الشيخ البصري فى البر الغربي الجمعة القادمة.

***

الخميس، الذي سَبَق يومَ الجمعة الذي ذهبتْ فيه مُنى عبد القادر لخليفة الطواب، هو يوم الولائم فى ساحة الشيخ البصري، يتوافد المريدون والزوَّار مِن كل المدن والقُرى. يجلس الشيخ فى صدر الساحة يستقبل الزائرين الذين ينحنون لتقبيل يدِه فى خشوع، ثم يتخذ كلُّ زائرٍ مكانا له فوق "الدِكَكْ" المصطفة بنظام أسبقية الدخول. القائمون على إطعام الناس لهم رؤية فى ذلك، فقد أعدوا مائدة خاصة لكبار الزوَّار لا يقربها الفقراء. أمَّا المائدة الخاصة فهي تضم صفوةَ المجتمع، وإنِ اختلف نوع الطعام فهو بَرَكة الساحة، فيكفي للزائر المحِب أن يأكل مِن طعامٍ قد قرأ عليه الشيخ فحفَّته البَركة.

لم يكن غريبا أن يأتي قاسم حجازي إلى الساحة، فهو يتردد على الساحات بشكل منتظم. يَعرف فى الوقت نفسه أن تأثير الشيخ

البصري على أهالي الغرب ليس له حدود، فهُم يثقون فيه ثقة عمياء، ولِمَ لا؟ فكل كارثة تحيق بهم يتصدَّى لها، يمد يدَ العونِ للفقراء مِن خيرات الله.

تعانقا عناقا حارا لفَت الأنظار، هذا ما كان يريده، أن يتأكد الجميع أن صِلتَه بالشيخ قوية للغاية. وأن يعرفوا أيضا أن بينهما "عيش وملح" بعد أن جلسا على مائدة كبار الزوَّار لتناول الطعام، تطرقا إلى موضوعات كثيرة أهمها الانتخابات، طلب فيها دعمَ الشيخ، فعائلات كثيرة فى الأقصر تتمنى أن تقدم للشيخ خدمة أو طلبا.

– بَركاتك يا مولانا فى الانتخابات.

رد الشيخ وهو يمضغ الطعام:

– الله المستعان.

ربما شعر بأن رد الشيخ مطاطي، فكرر السؤال بصيغة أخرى:

– محتاجين دعمك ودعواتك يا سيدنا الشيخ فى الانتخابات.

ضحك الشيخ ثم رشف الماءَ مِن "كوز الماء" وقال:

– أنا فاهم يا سيادة النائب.

ضحك قاسم حجازي مشاركا الشيخَ الذي تمادى فى الضحك، عَرَف أن الشيخ لا يقول كلاما مؤكدا إذا كان الأمر متعلقا بالمتنافسين، لما نَظَر إلى الشيخ الذي مال للوراء قليلا وجد أن الابتسامة لم تفارقْ وجنتيه. بعد أن احتسيا الشاي، وقف وشكر

الشيخ على الطعام المبارك، واستأذن فى المغادرة لمقابلة بعض المعارف بجوار وادي الملوك.

22

فى يوم السبت الذي قابل فيه جمال راجح فتحي الطواب على الكورنيش، ضُبِط خفيرُ آثارٍ وهو يسرق تمثالا مِن معبد الأقصر. اعتدل الدكتور عبد الحكيم هاشم عندما ظهر هذا الخفير فى تلفزيون القناة الثامنة، عيناه الواسعتان تدوران فى كل جانب، والشَّعر الأشيب الذي يغطي رأسه به بُقَع غريبة اللون. كلامه غير مترابط.

ساعتَها سأله المذيع الأسمر الشهير منصور قناوي: إنت مِن وين يا عمي؟

رد عليه قائلا: أنا مِن البعيرات.

سأله: ليه سرقت التمثال يا عمي؟

هز رأسه وأغمض عينيه فجأة وقال بصوت عال: التمثال دا مِلكي أنا ربِّيته فى المعبد.

ثم سأله بمكر أسواني: معاك عيال تانية مربِّيها فى المعبد؟

قال الخفير: أيوه كل عيل يكبر أطلّعه مِن المعبد.

بُهِتَ المذيع منصور قناوي ولم ينطق بعد أن فَجَّر ذلك الخفير القنبلةَ التي فجَّرها فى مديرية أمن الأقصر قبْلَها بيومين، فجعلت

ضباطَ المباحثِ يخوضون فى دخانها الكثيف. عُرِض على شاشة الثامنة فيديو تسجيلي يعرض مناظرَ داخل معبد الأقصر، حتى قُطِع فجأة وظهر المذيع وهو غارق فى لُجة المفاجأة، يحاول أن يبتسم فظهرتْ مِن بين أسنانه البيضاء ابتسامةٌ مغموسة بدهشة مريرة حتى قال:

– معنا اتصال مِن الدكتور يحيى الشهاوي أستاذ الطب النفسي بالقصر العيني. أهلا بك يا دكتور يحيى على شاشة القناة الثامنة بأسوان. حضرتك شاهدتَ معنا قضية الآثار الكبرى التي حدثت منذ يومين؟

رد الدكتور يحي: نعم.

استطرد منصور قائلا: معنا بطلها الخفير الذي اعترف منذ لحظة بسرقته لتماثيلَ أخرى غير تمثال "حورس". بدأ الدكتور يحيى الشهاوى فى الكلام فامتزج صوته بصوت صُفَّارة، فقاطعة المذيع قائلا: لو سمحت يا دكتور يحيى ممكن توطي صوت التلفزيون شويه. فغاب الدكتور إلى أن قال: الحالة التي نراها الآن هي خلل عقلي شديد، نتيجة لظروف قاسية عاشها الخفير، ثم عمله بالمعابد يؤدي إلى عدم اتزان فى الخلايا الدماغة مما قد يؤثر على تفكيره وتصرفاته، مِن المؤكد أن هذه الحالة التي يعاني منها متوارَثة. هُنا قاطَعه المذيع قائلا: نعم يادكتور يحي، قال لنا رئيس المباحث إن أخاه يقبضون عليه كلما زار الرئيسُ أو قرينته الأقصر. ثم قال المذيع: اتفضل يا دكتور أكمل. صمت الدكتور

يحيى فجأة ثم قال: لكن الخفير مسئول عن أفعاله، وهو يدرك ذلك تماما، لكنه يحتاج إلى ملاحظة دقيقة، ومِن المؤكد أن أولاده يعانون مِن نفس المرض.

***

حينما يدخل الدكتور عبد الحكيم هاشم جوفَ المحاضرة يأخذ الطلاب مِن القاعة وتنشق بهم الأرض، يذهب بهم للماضي، فقدْ يشق بهم البوابةَ الهلامية إلى الماضي فيجتازون ممراتٍ ودهاليزَ حتى يصِلون إلى الأُسرة الثامنة عشرة، يقابلون ملوكَها وكهنتَها، قدْ يذهب بهم إلى الدولة الوسطى، يستمعون إلى أفراد الشعب وهُم يُهمِلون واجباتِهم وأعمالَهم، كما أنهم يرصدون وقائع أيام قديمة جدا، لكنها واضحة تماما، شخصياتها متجسدة أمامَهم، ولما تشابكت وتواصلت الأزمان والأجيال قال:

– أنتم الآن فى حضرة رمسيس الثاني فهل مِن متحدِّث يحدِّثه؟

وقف أحمد نافع محاوِلا أن يبتلع ريقِه دهشة:

– لماذا كنتم تورِّثون الحُكمَ فى مُلك مصر؟

رد رمسيس الثاني على سذاجة السؤال والسائل:

– لأن الشعب ليس لديه فكرةٌ عن الحاكم والحكم، ولكن لديه فكرة عن المحكوم.

وقف وائل النجعاوي قائلا:

– إذاً علِّموا الشعبَ أن يحكم، وأتيحوا له الفرصة ليختار مَن يحكمه.

رد رمسيس الثاني بثقة شديدة:

– ربما يتعلم الشعب وحدَه فى يوم مِن الأيام كيف يملك زمامَ الأمور!

***

جلس أمين الطواب تحت الإطار الحديدي على شاطئ النهر الغربي باسطا يدَه لجمع أُجرة المعدِّية، لا ينظر إلى الوجوه، بل يتفحص الربع جنيه الذي يدسه الراكب فى يده، لا يسمح لأى شخص بالمرور دون أن يدفع. أمّا أخوه الأصغر مفتاح الطواب فيجلس تحت الإطار الحديدي فى الشاطئ المقابل له، يجمع أجرة المعدِّية الأخرى التي تعود للبر الغربي، يَظلان هكذا حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل حتى تمتلئ سيَّالَتا جلبابهما مما جمعاه مِن حصيلة عبور النهر.

أمين ومفتاح الطواب هُما ابنا سالم الطواب، يشبهانه تماما، العينان السوداوان، الأنف الأفطس (عن الأُم)، الطول الفارع، يختلف أمين عن مفتاح فى اللون فقط، فأمين أبيض قليلا عن مفتاح، لأنه ورِث اللونَ فقط مِن أُمِّه المريسية. يرتديان جلبابين مقلَّمين. يختلف مفتاح عن أمين أيضا مِن حيث الدهاء، فهو صاحب فكرة بناء شقق سكنية لتأجيرها للأجنبيات المقيمات والتي

تدر عليهم مبالغ طائلة. أمَّا مشروع بناء كوبري فوق نهر النيل فقدْ عطله لسنوات، فكان يدفع الرشاوى للمسئولين ليرفضوا فكرة المشروع، فكان يَصدُر قرار بذلك مشفوعا بتبرير:

– مشروع بناء كوبري فوق نهر النيل يؤثر تأثيرا مباشرا على الآثار، معبد الأقصر ومعبد الكرنك مِن ناحية الشرق وآثار الغرب ووادي الملوك والملكات مِن ناحية الغرب. وهذا ما قاله أيضا وزير الثقافة عندئذ عندما زار الأقصر.

كان سالم الطواب يردد دائما أن مشروع المعدِّية هو عِبَارة عن "حنفية فلوس"، لذا كان متمسكا بها لأقصى حد.

***

قبْلَ يوم الانتخابات بأسبوع لم تغمض أجفان قاسم حجازي وسالم الطواب ومحمود العادلي وجرجس أيوب، قسَّمَهم زكريا رشدي على المناطق. ذَهَبَ قاسم حجازي ومعه سالم الطواب إلى نجع الطويل بعد أن سمع بأن عائلة شهبون تنوي أن تغيِّر مِن موقفها المؤيد له، لكنه بحنكته السياسية تناقَش معهم، أذاب المخاوفَ التي بثها أحد المثقفين فيهم بأنه لن يقف معهم إذا أزال المحافظ منازلهم. قال لهم بالحرف الواحد: " أنا أول واحد حوقَف أمام اللودر، وخلِّيه يدهسني علشان أكون ضحيت بنفسي عشانكم." ربما كان هذا التأكيد هو الذي طمأنهم قليلا فوعدوه بأصواتهم جميعا، هنا اطمأن واستأذن منهم ومعه جرجس أيوب للذهاب إلى

العديسات التي تقف على جمرة ملتهبة بين المسيحيين والمسلمين، يقف بعض المسيحيين أمام فوهة الأزمة، ويصرون أن يحوِّلوا منزل الكاهن بيشوي الذي تنيَّحَ منذ شهر إلى كنيسة، عندئذ انتهز قاسم حجازي تلك الفرصة، وصل إلى هناك فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل وتحاور معهم بمساعدة جرجس أيوب، وعَدَهم بحل المشكة بعد حصوله على العضوية، وأكد لهم بأنه سيأتيهم بتصريح ببناء الكنيسة مِن الرئيس نفسه، ابتسم الحاضرون وتساقطت الأمطار الباردة عليهم فغشيتهم السكينة، وأعلنوا تأييده فى الانتخابات.

أما فى يوم الانتخابات نفسِه فقدْ شَعَر قاسم حجازي بأنه مجنَّح بالثقة والغرور، فالدكتور زكريا رشدي يجوب القرى والنجوع لمعرفة قوة الحزب، قام بتعيين بعض الأفراد فى كل اللجان لإحصاء نسبة الأصوات التي تذهب لمرشحي الحزب أولا بأول حتى ينقلها لقيادة الحزب فى القاهرة التي أقامت غرفةَ عملياتٍ موسعة. ما قام به قاسم حجازي فى ذلك اليوم لم يحدث مِن قبل فأتى بالموتى ليصوِّتوا. حَصَر تلك الأسماءَ فوصلت إلى ثلاثة آلاف صوت. أُعجِب الدكتور زكريا رشدي بهذه الفكرة، وقام بنقلها لحلمي الطريفي أمين عام الحزب فى القاهرة. عندما ناقش تلك الفكرةَ فى غرفة العمليات أمَرَ بتنفيذها فى الدوائر التي ليس عليها إقبال مِن الناخبين، أو التي يكون فيها المستقلّون متقدمين، وخصوصا مرشحي الإخوان المسلمين الذين وضعوا خطة شاملة

لمرشحيهم على مستوى الجمهورية، بعد أن نالوا ثقة الجميع بأنهم سيقضون على الفساد فى المجتمع. هكذا وَجَد حلمي الطريفي فى فكرة قاسم حجازي المَخرَج الوحيد لدحر زحف الإخوان نحو مجلس الشعب. هذا ما أبلغه الدكتور زكريا رشدي لقاسم حجازي، فردَّ قائلا: هذا مِن بعض ما عندكم يا دكتور.

23

الصقر فوق الجبل والطير حايِّم عليه،
أحفادكم وجينا حداكم اترحبوا بينا،
يا مرحبا يا أهالينا يا شرف لينا.

هكذا أشار وقال الشيخ مرزوق بومسعود بعصاه القديمة حول الدائرة، تلا نشيده مرة ثانية، كان كلما يشير بعصاه لمركز الدائرة يلف ممسكا طرف جلابيته، ثم يتوقف رافعا عصاه لأعلى ويقبض بيده اليسرى على لحيته البيضاء. اهتز جسدُه فجأة فتوقف وتدلى شاشُه الأبيض. أغمض عينيه. رجع عبد الستار وفتحي الطواب للوراء، بينما انكمشت أختهما ثريا خلف أمِّها عند باب حجرتها.

أفاق الشيخ مرزوق مِن غفوته الرصدية بعد ساعة، والتي فسَّرَها بعد ذلك بأنها محاولة منه لترويض الرصد القابع فى أعماق

الأرض، كان الرصد يزأر كلما اقتربت منه روح الشيخ الترويضية. حينما فتح الشيخ عينيه الحمراوين اللتين بدأتا تقطران دموعا، بُهِت مَن حوله، وبهتوا أكثر عندما تحوَّل صوته إلى فحيح مخيف.

أحضرَ فتحي كوزا مملوءا بالماء للشيخ الذي وضع فيه إصبعَه، بدأ يقرأ فى سره بعضا مِن التراتيل المبهَمة، ظَل على هذه الحال نصفَ ساعة ثم شرب منه، أعطى الباقي لفتحي وأشار له بتوزيعه على أخيه وأُمِّه وأخته.

أمر الشيخ مرزوق فتحي وعبد الستار بالحفر فى مكان الدائرة، ثم ابتعد قليلا، استلم فتحي الفأسَ وضرب الأرضَ بقوةٍ فى اتجاه الجنوب كما أمره الشيخ، انشطرت الطينة الصفراء، بينما وقف عبد الستار يجر بفأسه الطين بعيدا، ويكوِّمه بجانب الجدار. ظَلا هكذا حتى الصباح، وصل العمق إلى متر، توقفا تماما حينما سقطت أشعة الشمس فوق أعواد البوص.

طرقت باب الرصد قال مَن الطارق؟

قلت مفتون لانا ناهب ولا سارق.

هكذا بدأ الشيخ مرزوق إنشادَه الحتمي فى الليل وهو يدور حول الدائرة، مشيرا بعصاه لمنتصفها وأردف منشِدا :

عيني اللي كنت أرعاكم بيها باتت،
ترعى النجوم وبالتسهيد اقتاتت.

رفع عصاه بكلتا يديه منتشيا وقفز مرتين، ثم أسندهما إلى الجدار وأمسك بالكوز المملوء بالماء والمخلوط بملح النطرون والمذاب بسن التمساح الذي ظل منقوعا بجلْد الكوبرا ثلاثة أيام، نَثَره على كميةٍ مِن نشارة الخشب، ثم قطر عليها قطراتٍ مِن الراتينج السائل، فوق الطَفْش المغربي المطحون. كل تلك المواد هي محاولة منه لترويض الرصد بتهيئة الجو الذي يعيش فيه. الحَفْر يتسبب فى تبخر أجوائه التي تجعله ساكنا، فيهب مذعورا ليفتك بكل مَن يقترب منه، لأنه يحرس الكنوزَ الذهبية والتماثيلية التي تؤنِس الميتَ عندما يُبعَث مِن جديد.
عندما انتهى الشيخ مرزوق مِن رش السائل الرصدي أغمَض عينيه، أمَّا عبد الستار وفتحي قد ارتكنا بجوار أمِّهما وأختهما داخل الحجرة الداخلية عندما شَعَرا بتنميل يسري فى جسديهما، كأنهما أصيبا بمس جنِّي، عندما أيقنت أمهما بأنهما مذعوران بشكل كبير سألتْ عبد الستار:
– فيه إيه يا عبد الستار ليه أتتنفض إكده ياوِرِدي؟
– اللي شفته يامّه يخوِّف النمور والصنِّانة.
– شفت إيه ياورد بطني؟
– شفت الحيِّايا والعقارب طالعة مِن بطن الأرض.

ردَّ فتحي وهو يحاول أن يتماسك:

–الحيايا كانت ح تبلعَنا يامّه، والعقارب كانت غليضة مصوبة أذنابها.

– غليضة كيه ياوِرِدي؟

– يعني العقرب الواحد كد الخروف.

– يحليلي، يمراري، يحليلي ...

راحت تضرب على رأسها براحتيْها، تتفحص ابنيها وتميل برأسها لمعاينة ما يخرج مِن الحفرة. هدأتْ أنفاسُها قليلا ثم قالت:

– راحت وين الحيِّايا والعقارب؟

هَمَّ فتحي بالكلام لكن عبد الستار قاطعه قائلا:

– الشيخ مرزوق الله يباركلُه أبطل مفعولهم، رفع عصايته وجهها ناحيتهم، قال كلام مش مفهوم واختفت كل الحيايا والعقارب.

سكت ليلتقط أنفاسَه ثم أردف قائلا:

– الشيخ قال إن الحيايا والعقارب دول خُدّام الرصد, ونا قضيت عليهم .. باقي الرصد نفسه وناح اقضي عليه.

24

وصَل الدكتور عبد الحكيم هاشم إلى الصرح الشاهق، راح يدوِّن بقلمِه بعضَ الملاحظات، إلى أن وصل إلى فناء أساطين أمنحتب الثالث، وهو بهو الأعمدة الذي ينتهي بزهرة اللوتس،

وقف بالضبط أمام المقاصير الثلاث للثالوث المقدَّس، المكان الذي يتوقف فيه مع طلاب الفِرقة الثانية فى المعهد الإقليمي العالي لترميم الآثار ليشرَح لهم عمليةَ تشييد المعبد وإعادة بنائه عبْرَ العصور الفرعونية القديمة. استدار يسارا قليلا إلى أن وصل إلى فناء رمسيس الثاني والذي سجَّل فيه ملاحظاتِه الجديدة عنه. فقدْ كان ذلك المعبد هو موضوع رسالة الماجستير بعنوان "معبد آمون وموت وخنسو بين الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة". ظن طلاب الفرقة الثانية عندما ركز على موضوع رمسيس الثانى وتسجيل اسمه على ذلك الفناء الذي أقامه بحجارة اغتصبها مِن مقاصير لحتشبسوت وتحتمس الثالث، بأن هذا الجزء سيخرج منه سؤالٌ فى امتحان آخر العام.

وصَل بمسيرته البطيئة حتى وصل إلى المقصورة الوسطى للزورق المقدّس للإله آمون رع، فنفذ بصعوبة بسبب تكدس السائحين حول المقصورة الشرقية للزورق المقدس للابن الإله خنسو، إله القمر. وصَل إلى المخزن، فبدأ بتسجيل خطوات بحثِه الذي تأخر كثيرا على حد تعبيره، كما قال لبعض طلاب الفرقة الثالثة فى كلية الآداب عندما سألوه عن آخر أبحاثه فأجابهم بثقة شديدة:

– خبيئة معبد آمون وموت وخنسو، أو كما عُرِفتْ إعلاميا بخبيئة معبد الأقصر.

هكذا انتهج الدكتور عبد الحكيم هاشم فِكرا جديدا فى حياته الوظيفية، عمل أبحاثا جديدة غير مسبوقة، تضع اسمه بين علماء الآثار الذين يبحثون دائما عن الجديد فى أروقة التاريخ القديم، ويقدِّمون رؤية جديدة لأحداث قديمة جدا.

***

الأصوات التي حصل عليها قاسم حجازي فى انتخابات مجلس الشعب كانت كبيرة، لدرجة أن العارفين بأمور الانتخابات أكدوا أنه اكتسح الجميعَ بشكل لم يحدث مِن قبل. لذا أقام سرادقا كبيرا فى شارع المحطة، يكاد يشغل نصفَ الشارع الذي مُنِعتْ السيارات مِن المرور فيه. وقف قاسم حجازي ببدلة جديدة وعليها عباءة بُنيّة فخمة جديدة أهداها له محمود العادلي مِن محلاته، بجواره الدكتور زكريا رشدي الذي كان وجهه يعكس أشعة ذهبية. أمّا جرجس أيوب فقدْ أهداه سيارة جديدة من طراز حديث جدا، حصلتْ على رقم 20 مِن المرور. أمّا سالم الطواب فقدْ أهداه شقةً جديدة فى عمارته التي تطل على ساحة "أبو الحجاج".

توافد المهنِّئون إلى السرادق. وقف قاسم حجازي وابتسامةٌ مرسومة على وجهه، يشير مِن آن لآخر لمحمود العادلي الذي وقف أول السرادق مِن الناحية الأخرى.

السيارات المسبوقة بسيارات حراسة وموتوسيكلات المرور أضافت للسرادق هيبةً ووقارا. فجاء رئيس المباحث، ثم الحكمدار، لما

وصَل مدير الأمن قطعت الشرطةُ الشارعَ أمام المارة. أمّا وصول المحافِظ فلم يكن يحتاج إلى تنظيم أو زيادة فى إجراءات أمن، فلقد كان الأمن مهيئا لزيارة أي مسئول حتى ولو كان رئيس الجمهورية.

بدأ الاحتفال بأنْ قرأ الشيخ محمود صديق المنشاوي أياتٍ مِن الذِّكْر الحكيم، سبَّحَ أثناءَها قاسم حجازي وسالم الطواب فى بركة الإيمان، بينما انشغل جرجس أيوب بالقادمين، سواءٌ أكان يعرفهم أم لا يعرفهم. لكن محمود العادلي كان يشعر بالزهو، فصديقُه أصبح عضوا فى مجلس الشعب، وبالتالى ارتدى عباءة الحصانة منذ إعلان النتيجة، هذه العباءة لن يرتديها هو وحدَه، بل إن قاسم حجازي سوف يقوم بتفصيل ثلاث عباءات لهم. على الرغم مِن أن أموالهم كانت تمنح لهم هذه الحصانة، إلا أن حصانة مجلس الشعب ليست مكلِّفة مثل حصانة الأموال.

أمَّا جرجس أيوب الذي يستمع للقرآن متصنعا الخشوع، كان يفكر فى أمور أخرى. فهو مِن النوع الذي لا يتوقف عن التفكير، تماما مثلما قال عنه المحافِظ السابق: "جرجس أيوب يفكر فى كل وقت، حتى أنه يفكر وهو نائم."

"بماذا سيعود علىَّ نجاح قاسم حجازي؟" هكذا كانت الخواطر تلامس عقله الذي يجول فى وجوه الحاضرين، لم يضع يدَه على هذه الخواطر كي تهدأ، إلا حينما اختتم الشيخ الربعَ الأول مِن القرآن. قام بعدَها قاسم حجازي ليصافح الحاضرين. جلس مع

مدير الأمن يتحدث معه، حتى وصَل المحافِظ فهَبَّ الجميع واقفين، تقدم إليه قاسم منحنيا يسلِّم عليه، خلفَه جرجس أيوب وسالم الطواب، ثم محمود العادلي. ظَل المحافِظ عشرَ دقائق، ثم اتجه إلى البياضية لتهنئة الدكتور إبراهيم الإسناوي.

***

لم يكن يتخيل أحمد الضوي أن الإعارة سوف تأتيه أبدا، على الرغم مِن إنه كان يبحث عن اسمه مِن بين كل المقبولين للإعارة للدول العربية كل عام. سأل عن اسمه منذ عشر سنوات ولم يجد اسمَه عندئذ أُصيبَ بحالة غريبة، حالة تصيب المرءَ الذي ينتظر شيئا مصيريا تتأطَّر عليه كل حياته. ظَل أسبوعا وظلالُ الاكتئابِ تغطيه أينما مشى. كان يرى فوق جدران بيتِه سُحُبَ اليأسِ والقنوط، التي أكملتْ لديه منظومةَ الظلام، بعد أن استطاعت آمال عبد السميع أن تكسبه فى صفها قسرا، فلم يستطع بعدَها أن يتكلم عن مساوئ المدْرَسة ومَن فيها، أو حتى التعليم بشكل عام. ساعتَها تحدَّثَ مع صديقه الدكتور عبد الحكيم هاشم فنصَحه بأن يفكر جِدِّيا فى الإعارة.

قال له:

– كل عام أتقدم باسمي، ولا يصيبني الدور.

– تقدَّمْ هذه المرة وربنا كريم.

– تقدمت كثيرا.

– لا تعرف متى يأتي الخير.

ربما وضع تصورا واسعا لحياته بعد العودة مِن الإعارة، أولها البحث عن منزل آخرَ يعيش فيه، مكان أوسع بعد أن أنجبت زوجته الابنَ الرابع، فى الوقت نفسه يصنع التحدياتِ التاريخية. التحدي الأول قَدْ وضعه لنفسه منذ أن عُيِّنَ مدرِّسا وهو ألا يعطي دروسا خصوصية مهْما كانت المغريات. (صادَفَ مصاعبَ ومشكلاتٍ فى سبيل تحقيق هذا التحدي.) والسبب فى ذلك أنه لم يكن يرفض إعطاء الدروس الخصوصية فحسب، بل كان يحارب زملاءَه الذين يتكالبون عليها، مما جعله يدخل فى صراعات ليست لها نهاية، وهذا هو التحدي الثاني. كان يعتبر الدروس الخصوصية جُرما فى حق المدرس الذي يتكاسل فى الشرح فى المدرسة، لكنه يمعن فى إظهار قدراته التعليمية فى بيتِه أو فى بيوت الطلاب.

– الإعارة جاتني.

هكذا قال أثناء دخوله البيت، والفرحةُ تكسو وجهه، لكن هذه الفرحة قطَعها السكون الذي كان يخيِّم على الموجودين. شَعَر عندئذ أن هذه الفرحة التي صاحبته مِن عند مديرية التربية والتعليم فى العواميّة إلى الكرنك كانت استثنائية. عندما تَذكَّرَ هذه اللحظةَ بعد سنتين وهو قابع فى غرفته ضَم شفتيه ضيقا. قرأ اسمه فى الكشوف وأمام خانة الدولة وجَدَها الإمارات. "إذا كانت الفرحة تعني لحظةً واحدة فقدْ عشتها." هكذا قال فى نفسه، وهو

محِق فى الخواطر التي كان يستدعيها ليهدئ مِن شطحات نفسه، نَعمْ وقَف أمام لوحة الإعلانات بالمديرية وجميع المدرسين يهنِّئونه. كانت كلمات التهئنة متباينةً فى معظمها، لكن العبارة التي كانت تَلي هذه التهنئة واحدة: "صُبرت ونُلت." مسحتْ هذه العبارة كلَّ سنوات الشقاء وتحمَّلَ مواردَه القليلة فى سبيل تصدير فِكرِه الذي أفنى قِسطا كبيرا مِن عمره مدافِعا عنه وهو محاربة الدروس الخصوصية. كان يعرف تماما أن تصدير الفكر للآخرين يسبقه اعتناقه. بالفعل اعتنق هذا الفكرَ وأقام شعائره، لكنه فى سبيل تصديره للآخرين داس بأقدامه على الأشواك.

– ماله أبويا، فى إيه؟ تعبان مِن إيه؟

هكذا سأل بعد أن أزاح الفرحة التي كانت تمتطي كتفيه، أوقعها على الأرض. لم ينتظر ردا وإنما كَشَف عن أبيه الغطاء، فوجد وجهه قد قَلَّ حجمُه، يتنفس بصعوبة بالغة. أجابته زوجته وأُمّه فى الوقت نفسه أن أباه قد وقع فجأة أمام الباب، لكن المشكلة فى المفاجأة والتي جاءت مباشرة فى وقت ينتظره الجميع، حتى أبوه الذي لا يعي شيئا مما يدور حوله الآن.

– مبروك يا احمد الإعارة، هذا جزاء الصابرين. صُبرت ونُلت.

هكذا قال له أبوه أيضا وهو يحتضنه أمام الباب. عندما خرج أحمد فى الصباح لكي يبحث عن اسمه فى كشوف المقبولين فى الإعارة، ظَل أبوه أمام البيت ينتظره.

هكذا تخيَّلَ نفسَه وقد عاد مِن المديرية يحمل خبرَ فوزِه بإعارة لدولة الإمارات العربية المتحدة، وأبوه ينتظره أمام البيت ويقول له هاتين العبارتين. لكنه لم يقُلْ شيئا، بل كان ممددا على فراش المرض!

25

اعتزم عبد الستار الطواب أن يسافر إلى القاهرة لمقابلة الشيخ مرزوق بو مسعود الذي وصَل مِن المغرب إلى القاهرة بعد المكالمة التليفونية التي أجراها معه فتحي. ساعتَها شَعَر بأن اللقية أصبحت بين يديه، فها هو الشيخ وصَل إلى القاهرة، إنْ هي إلا ساعات ويكون بين يديه.

عندما وقف عبد الستار منذ ثلاثة شهور فى محطة الأقصر ومعه أخوه فتحي كان مرتبِكا إلى حدٍ ما، حاوَل فتحي أن يهدئ مِن روعِه، قال له: "قلت لك أسافر أنا علشان أقابل الشيخ. لكن إنت أصرّيت." لكن عبد الستار ربما حاول بمبادرةٍ منه أن يكون له السبقُ فى اتخاذ الخطوات التنفيذية للمشروع الكبير.

فتحي نفسه شَعر بذلك.

لم يكن موضوع المبادرة فى تنفيذ مشروع العمر هو السبب الوحيد الذي جعله يصر على الذهاب ومقابلة الشيخ مرزوق. لكن السبب الأهم هو أنه هو الأكبر.

عندما قال لهم قبْلَ سفره بأسبوع إنه سوف يسافر لمقابلة الشيخ، اندهشوا جميعا، قالت أمُّه فى نفسها: "أخيرا عرفت أنك الكبير؟" فى الوقت نفسه لم يشأ فتحي أن يبين له أنه المتعلِّم، وأن هذا الموضوع يحتاج لشخص مستنير. ربما أدرك فتحي عندئذ أن الكنز فى حد ذاته إذا كان بمقدوره أن يحول الفقيرَ المعدم إلى ثري، فإنه مِن باب أولى أن يحول الجاهلَ إلى متعلم، عليم بشوارع القاهرة، وبدروبها وحواريها إنِ استدعى الأمر. كانت أُمّهما تعرف تماما لخبرتها فى الحياة أن انتظارَ المالِ فى حد ذاته يفجِّر الطاقاتِ لدى البَشر، فإذا وعدتَ شخصا بأن هناك مبلغا مِن المال فى القاهرة فإنه يكون على استعداد لأن يسافر مشيا على قدميه. ربما كانت هذه العوامل هي التي حفَّزتْ عبد الستار على القيام بهذه الرحلة.

هو الأكبر، وهو الذي استقبَل نداءَ اللقية ووحيها وهو يهيم على وجهه فى وادي الملوك، يجب أن يسافر لمقابلة الرجل الغريب. ركب عبد الستار القطارَ الذي جاء مِن أسوان، تحرَّكَ به، شَعر فى تلك اللحظة بضآلة جسم أخيه، باغتَه شعورٌ غريب لم يحس به مِن قبل، هل السبب فى ذلك القطارُ وسرعته؟ يتوالد لدى المرءِ شعورٌ بالقوة والعظمة؟ هكذا حدَّثَته نفسُه وهو جالس فى القطار المكيَّف. الزراعات الشاسعة الضئيلة تطير للخلف، الفلاحون ضئيلون للغاية ويطيرون معها أيضا. أمّا السيارات وعربات النقل الضخمة التي تدك الأرضَ هي أيضا صغيرة، أصغرُ مِن عقلة

الإصبع ويستطيع أن يطيح بها جميعا فى وقت واحد بإصبعه مِن وراء زجاج القطار السميك. هذا هو المكسب الأكبر فقدْ فرحَ لاكتشافه بأنه يحس ويفكر ويحلل الأمورَ للمرة الأولى.

كانت المسافة مِن الأقصر إلى القاهرة والتي استغرقت عشرَ ساعات هي نقطة التحول لديه. تتابعت أمامَه مراحلُ السلبيةِ والخمول التي نشأ عليها. شَعر فى الوقت نفسه بكراهية شديدة لأبيه، ربما تمنَّى فى تلك اللحظة أن يموت، وأن يقف فى العزاء دون أن يذرف دمعةً عليه، وألا يبدو عليه التأثر. فى الوقت نفسه يتمنى لو يعود القطار إلى الأقصر فقط ليقبِّل يدَ أُمِّه، ويعتذر لها عن السنوات التي كانت فيها هي تنفِق عليه وعلى إخوته. أن يُقسِم لها بالقطار الذي ينهب الأرضَ نهبا أنه سيكون شخصا جديدا، سيكون على قدْر المسئولية، وأن يكون هو الكبير الذي يدير شئون الحياة.

عندما نزل الشيخ مرزوق بو مسعود إلى ردهة الفندق فى صباح اليوم التالي عَرَف عبد الستار على الفور، ربما لأن لونَه أسمرُ قليلا عن الموجودين فى الردهة، أو لأن طريقتَه فى ارتداء القميص والبنطلون لم تكن قاهرية. أو لأن الشيخ له حاسة خاصة يستشِف بها، أوربما لأن الأرضيين الذين يتصلون به قد أبلغوه وهُم يضحكون، أمّا عبد الستار فقد كانت عيناه زائغتين، ينظر فى كل الوجوه، يتوقع في كل مَن تقع عليه عيناه بأنه هو الشيخ، ما خلَّصَه مِن حيرته وقوفُ الشيخِ أمامَه وهو يمد يده ليصافحه،

حينها انتفض واقفا وغشِيَته قشعريرةٌ لا يعرف كنهها، وإنْ رجَّحَ سببَها بعد ذلك وهُما عائدان فى القطار إلى وصول الشيخ لأعلى مراتب الروحية. كان الشيخ أثناء الرحلة يحاول أن يفك حصارَ الرهبةِ الذي وضعه عبد الستار حول نفسه.

لم يخرج الشيخ مرزوق مِن محطة الأقصر إلا عندما أخذ مبلغ مائتين وثمانين ألف جنيه مِن فتحي الذي كان فى انتظارهما، وسلَّمَه الكيسَ الذي يحتوي على البخور الهندي وسن التمساح وجلْد الكوبرا وزجاجة صغيرة تحتوي على رُبع جرام زئبق أحمر، وكذلك رُبع جرام مِن الطَقْش المغربي.

ربما كان هذا الاختبار هو الذي جعل عبد الستار يبني لنفسه جدارَ الثقة الذي كان عِبارة عن أرض صحراوية غير مستصلَحة. لكنه كان يعرف تماما أن تلك الثقة يمكن أن تضيع فى ثوانٍ، فما سيقومون به معلَّق على حبل سوء الحظ والفشل. فمنذ أن عَرَف أن جميع سكان البر الغربي يعرفون أن الشيخ مرزوق هو قاهِر الرصد، تَسرَّبَ الخوف لديه أيضا، فراح الخوف والثقة يتنازعانِ بداخله. فربما يكون هناك آخرون يراقبونهم، مِن المحتمل أن تكون القرنة كلها تعلَم بالأمر، أولهم عمُّه سالم الطواب. فعندما تخرج اللقية مِن جوف الأرض ستكون رؤوس أهالي القرنة كلها تشاهد عملية تصعيد اللقية مِن باطن الأرض. لكنه شَعر فى النهاية أنه قام بعمل كبير ومسئول. فإذا فشل الأمر كله فهو

مقتنع بأنه أدَّى ما عليه، وربما لن تنظر أُمّه إليه تلك النظرةَ التي كانت تَسلخ بها جلْدَ وجهِه.

***

أحيانا عندما يكون المسئول قبطيا تجد الكثيرين مِن المسلمين يتقربون إليه، يمعِنون فى محبتهم لإخوانهم الأقباط الذين يعملون معهم، بل إنهم يتخلون عن بعض الطقوس التي تعودوا عليها مثل سماع القرآن، أو الصلاة فى مكان العمل، حتى تذوب الفوارقُ الدينية تماما، تجدهم يهاجمون بشدة أيَّ شخصٍ يقول رأيا دينيا، أو آية قرآنية فيها أهوال يوم القيامة تخص غير المسلمين. مِن مظاهر أو طقوس التقرب التي يقوم بها هذا الشخص إذا اضطر أن يسمع قرآنا فى كاسيت أو كمبيوتر فإنه يقوم بتشغيل سورة "مريم" لأنه يعلَم تماما أنهم يحبونها. ربما يستخدمون بعضا مِن مفرداتهم اليومية مثل "نشكر الرب" و"صدِّقني". وإذا تغيَّرَ هذا المسئول بآخر مسلِم، فإن الشخصَ نفسه أو مَن هُم على شاكلتِه يدين العصر السابق لأن المسئول كان قبطيا، ثم يمعِن أيضا فى تشغيل آياتِ الترهيب والترغيب فى يوم القيامة، قَد يصِل به الأمر إلى تشغيل أحاديث الشيخ كِشْك النارية، فوق كل ذلك يترك مكان العمل ليصلِّي فى المسجد. تجده ينفر مِن أولئك الذين كان يتقرب إليهم بالأمس. هذا ما حدث تماما عندما عُيِّنَ الدكتور زكريا رشدي عميدا للمعهد الإقليمي العالي لترميم الآثار،

فتقرَّبَ إليه الكثيرون منهم الدكتور عبد المنطلب عَوِّيره مدرِّس الآثار الفرعونية القديمة، والدكتور حفني أبو فريجة مدرِّس الآثار الإسلامية بالمعهد. كان الدكتور عبد الحكيم هاشم شاهِدا على تلك الأفعال، عندما سأل ذات يوم الدكتور عبد المنطلب عويره عما فعله ثالث يوم يصِل فيه الدكتور زكريا رشدي:

– ما حال المواطَنة التي تتلفح بها تلك الأيام يا دكتور؟

لم يجِبْ فى الحال، وإنما قطب جبينَه وقال:

– هذا واجبنا والتزامنا تجاه أصحاب الكِتاب.

قال له الدكتور عبد الحكيم وهو يثني حافة خده الأيمن:

– لم يكن هكذا رأيك أيام عمادة الدكتور درويش أمين.

ردَّ بثقة وكأن كلامَه معروف ويحفظه الجميع:

– هذا هو رأيي دائما، المواطَنة هي أصلح فلسفة للمجتمع المصري.

أمَّا الدكتور حفني أبو فريجة، فلم يكن يتحدث كثيرا فكانت أفعاله أقوى مِن كلماته، فعندما وصَل الدكتور زكريا رشدي حاوَلَ بشتَّى السبل أن يعرف اتجاهاتِه، وميوله ورغباته فلم يفلح، فاتخذ سبيلا آخر فراح يتقرب إلى المدرسين والإداريين والطلاب الأقباط. بل إنه لم يتوانَ فى التنكيل بالمسلمين تقربا وحبًّا فى الدكتور زكريا رشدي.

عندما تحدُث فتنةٌ طائفية بين المسلمين والمسيحيين تجد فئةً مِن المتشددين مِن الطرفين يقفون على فوهة الجحيم، تحاول كل

منهما أن تدفع بالطرف الآخر فى أعماقها السحيقة، وهناك فئة ثانية مِن الطرفين أيضا هُم سلبيون لا يفعلون شيئا، لكنهم فى قرارة أنفسهم يتمنون رؤية الطرف الأخر يُلقَى فى الجحيم أيضا وهُم فى بيوتهم يشاهدون الأخبار. هناك فئة ثالثة مِن الطرفين مِن عيِّنة الدكتور عبد المنطلب عويره والدكتور حفني أبو فريجة وأمثالهما مِن المسيحيين يقومون بعمل توازن بين الطرفين، فيقومون بالثناء على الطرف الآخر (بسبب وجود مدير أو رئيس شركة أو بسبب علاقات الجيرة) وربما يخطُبون على المنابر والكنائس، أو يقومون بمبادرات دبلوماسية لرأب الصدع أو رتق أقمشة الفتنة إذا حدثتْ، فيحدث توازن اجتماعي يقضي على الفتنة أو يوئِدُها فى مهدها، هذا التوازن هو الذي يعيد وأد الفتنة كلما بُعِثتْ مِن قبرها.

الغريب أن الدكتور زكريا رشدي لم يضع كل هذه الأمور فى حسبانه. حتى أنه لم يعلن عن اسمه بالكامل إلا بعد استلامه للعمل بأسبوع، لكن مسألة أنه قبطي عرَفها الإداريون وبعض المدرسين فى وقتها. هو متوسط الطول، يصبغ شَعرَه بحيث لا تكتشف ذلك إلا إذا كنتَ دقيقَ النظر، ترى الشَّعرَ فى نهاية الأسبوع الذي بدأ به بصباغة شَعرِه. وجهه قمحي كسائر المسلمين، لذا ظن الكثيرون أنه مسلِم. لم يتحدثْ يوما ما عن المسيحية أو الإسلام. لم يلحَظ أحدٌ ممن يعرفونه الصليبَ المرسوم على يده. ولم يفرِّق بينهم فى المعاملة.

26

نوح فى السفينة،
محمد جوَّه المدينة.
الله يحمينا،
مِن كل دبيبة،
أو حيَّة تؤذينا.

كانت سكينة مرعي تدور حول جدران المنزل وهي ممسكة باللمبة الجاز تردِّد ذلك النشيد، عيناها تنتقلان بين الجحور المتناثرة هنا وهناك، تقوم بتلك الطقوس كل يوم عندما يهبط الظلام مِن السماء، هي الآن تخطو بكل ثبات، ترى الخنافسَ تعود أدراجَها إلى الجحور مذعورة، لأنها جواسيس العقارب وعيونها، تخرج فى طلعات استكشافية مِن مخابئها متوجسةً فى ساحة البيت. عندما ترجع فيكون ذلك بمثابة تقرير آمان، تخرج على إثره العقاربُ مشرِعةً أذنابَها. إذا صادفتْ آدميا فى طريقها فإنها تعتبره عدوا خرج ليفتك بها، لذ يكون لزاما عليها أن تغرس ذنْبَها فى قدَمِه أو في أي جزء مِن جسده، فتُفرِغ سُمَّها وتنتصر للعقارب التي نفقتْ على أيدي الآدميين منذ بدء الخليقة.
أمَّا الثعابين فقد أنِست لبيت سكينة مرعي منذ سنوات طويلة، تخرج ليلا عندما تسمع غطيط أصحاب البيت فتمتطي جريدَ

النخل المستعرض وتتمسح بالحوائط اللبنية، لكنها مثل العقارب إذا اضطرتْ أن تبخ سُمَّها فى وجه آدمي فتطفئ نور عينيه، فلن تتوانى عن ذلك، أو أن تزحف على حين غِرة فتنشب أسنانها فى جسده فإنها عندئذ غيرُ ملومة.

العقارب والثعابين فى ذلك اليوم لم تكن عادية، فلونها قاتم، تتسم بكبر الحجم، لذا لما رأتْ سكينة مرعي قطيعَ العقارب المهولة الحجم و"الحيَّايا" الطويلة، فزعتْ ورجعت للوراء فتيبست أطرافُها، لكنها ما لبثت أن استعادت رباطةَ جأشِها، وأنشدت نشيدَها بقوة وخشوع، كررته مرتين، عندئذ تراجَعَ القطيع وتوقف عن التقدم، ابتلعت الحفرةُ العقاربَ تباعا فى مشهد خيالي، ثم التفت الثعابين حول نفسها وغرزتْ رؤوسَها فى الطين، انزلقت مِن بين ثناياه. تنفَّسَتْ سكينة مرعي الصُّعَداء، ارتكنت إلى الجدار وأنفاسُها تتلاحق. لم تَرضَ أن توقِظ أبناءَها حتى لا يروعهم منظرُ العقارب والحيَّايا، وإنما واجهتْ ذلك الموقفَ بمفردِها، كما رأت أُمَّها وهي تصرفهم بنشيدها عند مقام الشيخ أبو حطب فى أرمنت، فهو نشيد الأولياء لدرء أخطار الطبيعة. أيضا تعلَّمَتْ على يديها تضميدَ الجراح وتجبير المكسورين.

***

Inbox;

From: dr.farouksallam@gmail.com

To: abdelhakim-hashem56@hotmail.com

Subj.re:Luxor Tepmple treasure

الدكتور عبد الحكيم هاشم

لكم التحية والتقدير

لقد قرأت باهتمام بالغ بحثكم التاريخي عن خبيئة معبد آمون وموت وخنسو، إنه بحث تاريخي موثق، تشع المتعة والتوثيقية من بين ثناياه، الصور التي دعمته بها زادته موضوعية، وأكسبته مصداقية. وإني إذ أشيد بجهد جهيد قد قضيتموه فى إتمام البحث التاريخي الجديد غير المسبوق، فإني من موقع مسئوليتي قد أصدرت التعليمات لكلية الآثار بنشر هذا البحث فى مجلتها الفصلية "مجلة الآثار" وتوزيعه على مكتبات الجامعات المصرية الحكومية والخاصة، كما أن بحثكم سوف يُقدم فى مسابقة الأبحاث التي تقيمها الكلية. وأتوقع فوزكم بالجائزة الأولى.

لكم التحية والأمنيات بالتقدم والازدهار.

دكتور فاروق عبد المنعم سلام

وكيل كلية الآثار لشؤون البحث العلمى

جامعة القاهرة

بعد أن قرأ الدكتور عبد الحكيم هاشم أولَ رسالةٍ فى وارِد بريدِه الإلكتروني، تقافزت ضربات قلبِه فرَحا. يعتبر إطراءَ الدكتور سلام على بحثه هو أكبر جائزة له، أنسته تلك الرسالة الإلكترونية أن يقرأ بقية الرسائل الواردة، وقبل أن يُغلِق جهازَ الكومبيوتر طبَعَ العشرات مِن تلك الرسالة ووزَّعَها على الطلاب فى اليوم التالي، سمح لهم بقراءتها، وتابَعَ نظراتِ الانبهار التي ملأت وجوهَهم. هكذا ضجت القاعةُ بكلمات الاستحسان والتصفيق وصرخات الطالبات. خَلَق ضجيجُ الطلاب نوعا مِن الاحتفال الارتجالي والفوري الطازج الذي يتمناه أي أستاذ جامعي، فكان مثل الممثل المسرحي المجيد الذي يصفق له الجمهور وهو يعتلي خشبة المسرح، شَعر كما يشعر الممثلِون الذين يشعرون بالخجل خلف عباءة الفرحة، عندما يستمر الهتاف لهم وهُم يؤدّون دورا رائعا فى مسرحية, فبدأ وجهه يتلون باللون الأحمر، يلقي بنظراته على الأرض خجلا.

تماما مثلما فَعَل يوسف إدريس وهو موجود فى الصفوف الأخيرة أثناء عرض مسرحية البهلوان، فقدْ انتقلَ التصفيق والهتاف مِن خشبة المسرح إلى الصفوف الأخيرة، حينما نظَر الجمهور للخلف وصار المسرح حيا، اشتعلت الحمرة فى وجهه خجلا، فى القاعة التي أصبحت فى حالة تمسرح، أو تفاعل الجمهور مع الممثل. عندما هدأت ثورة الاحتفال بدأ يشرح لهم الخطواتِ المنهجيةَ التي اتبَّعَها فى بحثه، وصَفَ لهم التماثيل، وما انتهى إليه مِن نتائجَ.

راح يتحرك لأول مرة مِن منصة التدريس إلى المدرجات صاعدا وهابطا. عاش الطلاب معه أجواء بحثية مسرحية. أعلن لهم فى غمرة الفرحة أن البحث سيقرَّر عليهم هذا العام كمادة أعمال السنة فضجت القاعة بالتصفيق والهتاف له.

27

عندما وصلت المعدِّية إلى شاطئ النهر الشرقي، صعدتْ ثريا الطواب درجاتِ السلم الحجرية فوجدت جمال راجح منتظرا فوق أمام معبد الأقصر.

كانت شفتاها تتمتمان بكلمات غير مفهومة، إذا رآها أي إنسان عادي فى هذه اللحظة، فسوف يرى على وجهها علاماتِ الكدَر والضيق، لكن إذا كان مِن الأولياء الأنقياء أو كان رومانسيا يغوص فى لجَّة العشق فسوف يبصِر أنها تتربع على جبل مِن السعادة، ويترجِم اختلاجاتِها وكلماتِها غير المفهومة إلى الأغنية التي كانت تغنِّيها فى هذه اللحظة:

آه يا ليل يا ليل، ياما طال الليل،
ع البحر ع البحر وشاورلي بمنديله يا ليل،
آه يا ليل يا ليل، ياما طال الليل..

سارا بمحاذاة سور المعبد يتبادلان عبارات الشوق واللهفة على اللقاء، فامتزجت تلك المشاعر بالخوف مِن أن يراهما أحد، كانت كلما يقترب منها تتقدم أو تتأخر فى السير، يقف كي ينتظرها عندما تتباطأ خطواتها، يهرول كلما سبقته. عندما لمحتْ أحدَ أقاربها يسير فى اتجاه المعدِّية ضربتْ يدَها على وجهها، قالت وهي تكتم فمَها:

– إبعد عني. وَرْد عمي شافنا.

نظر جمال للوراء فى اتجاه المعدِّية فوجد كل السائرين ينظرون أمامهم فى تتابع آلي، إلا الأطفال الذين ينظرون فى جميع الاتجاهات. استخدم محاولاتِه اللولبية لجذب انتباهها، لكنها كانت مشتتة. ذكَّرَها وهُما يسيران فى شارع رمسيس برؤيته لها حينما انفرج لهما الباب عندما زار أخاها فتحي، وكيف التقت عيناهما. ساعتَها وخزت المشاعرُ قلبَها، كأنها إبرةٌ مغموسة بالعسل، هكذا أكدت له بعد ذلك. قالت له ما لم يتخيله، إنها تفحصته تماما خلال هذه الدقيقة، وأُعجِبت بشكله. أمّا هو فقدْ لعب على تلك الدفقة الشعورية التي رآها فى عينيها، فانتظرها فى اليوم التالي عند المعدِّية وحاول أن يجذب انتباهها مِن بين الجموع التي تلفظها المعدِّية عند وصولها للبر الشرقي. كانت المشاعر المولودة معينَهما على التلاقي.

تِكرَّر لقاؤهما يوميا ما عدا يوم الثلاثاء فهو يوم السوق، يلتحم فيه البَرَّان، غربه بشرقه، البيع والشراء. ذلك اليوم يتواجد فيه أهل

الغرب بكثافة فى الشرق، ربما يراهما أحد، لذا توخَّيَا الحذر واتفقا على ألا يتقابلا فى ذلك اليوم.

الأربعاء الأخير فى علاقتهما السرية كان يوما فاصلا، فقدْ أخبرها أنه يريد أن يكلِّمها فى قرار مصيري بشأن علاقتهما. توَجَّهَا إلى معبد الكرنك الذي سيحفهما بفضل جدرانه وأعمدته برعايته، ويكونان بمأمن مِن عيونٍ قَد تقطع عليهما سُبُلَ التواصل والشوق. خلْفَ المسلة راحت تروغ منه وهو يحاول أن يمسك بها، فركضتْ واختبأت خلف تمثال رمسيس الثاني تحتمي به، لكنه وجد أن الشوق قد بلغ منه أكثر مبلغ، فلم يتمالك نفسه وهو يقبِّلُها بنهَمٍ شديد، فأفلتتْ مِن صمغية شفتيه بصعوبة شديدة. أسرعتْ بالركض بين بهو الأعمدة عائدة، لم تفلح محاولاتُه عن إثنائها عن عزمها بالمغادرة إلا عندما رأت الرغبةَ تنطفئ فى عينيه. توقفتْ وجلسا عند البحيرة المقدَّسة. قطعتْ رأسَه ووضعته فى الماء تغسله لتنقيه مِن الذنوب والدنس، ثم أعادته إلى رقبته التي مازالت الدماء تنفر مِن عروقها، راح يهيل عليها كلماتِ الاعتذار عن جموحه، فمالت بجذعها لتتفادى أتربة الشوق، أبدى رغبتَه فى الارتباط بها ففزت الفرحة مِن جنباتها، كادت تَسقط فى ماء البحيرة المقدّسة العشبي. تعانقا لكنها انتشلت نفسَها مِن جسده الصمغي وأفلتت منه. وضعتْ متاريس المماليك وجدارا عازلا وقلاع الأُسرة الثامنة عشرة أمامه لتصد نزواتِه المغولية.

***

ظَهَر اتجاه ثقافي جديد بين الطلاب فى المعهد الإقليمي العالي لترميم الآثار، فكَمَا أنشأ كل طالبٍ لنفسه "أكَّاونت على الفيس بوك"، بدأ البعض منهم يقوم بإنشاء مدونات على الإنترنت. أول مَن كان له السبق فى المدونات الطالب حسين عياد الذي أنشأ مدونة سمَّاها "الدين والمجتمع". قام بدعوة الكثيرين مِن زملائه بالدخول إليها وقراءة موضوعاتها، خلالها كان يهاجم الساسةَ، والفسادَ فى المجتمع، وغلاء الأسعار والبطالة، ورجال الأعمال الذين أطلقت الدولةُ أيديَهم فى اللعب بالسلع التموينية وما يحتاجه المواطِن، كذلك الأراضي التي حصلوا عليها مِن الوزراء. كَتَب ذات مرة فى صدر المدونة عنوانا متحركا كان سببا فيما حدث له "الفساد المنظَّم فى دولة الفوضى" تكلَّمَ فيه بشكل صريح عن الأوضاع بشكل عام، حذَّرَ مِن الغضب الذي يفور داخلَ المواطنين. دعا إلى طرح هذا الموضوع فى مجلس الشعب. فى اليوم الثالث لنشر هذا المقال قَبَضت مباحث أمن الدولة على حسين عياد.

أشارت أصابع الخيانة إلى الدكتور زكريا رشدي، لكنه استنكر هذا الفعل، فليس مِن طبعه التنكيلُ بطلاب المعهد، هكذا قال لكل الموجودين، وأقسَمَ بالعذراء والمسيح الحي على براءته مِن هذا الفعل. لذا قام بالاتصال بأمن الدولة أمام الدكتور عبد الحكيم هاشم الذي أصر أن يعرف لماذا قُبِض على حسين عياد؟ ومَن الذي أبلغ عنه؟

- صباح الخير يا شكري بك.

- .....

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك فى تلك الساعة، لكن لي طلب عند حضرتك.

- .....

- قمتم بالقبض على الطالب حسين عياد، ما الذي اقترفه؟

- .....

- شكرا يا شكري بك، مع السلامة.

-.....

وضع الدكتور زكريا رشدي سماعةَ الهاتف، أطرق قليلا، ثم قال:

- يقول شكري بك إن موضوع حسين عياد قضية أمن دولة، ولا يستطيع أن يتحدث فيها مع أحد.

لبسَ الموجودون قناعَ الوجوم، وسقطوا فى شِبَاك الحيرة. خرج الطلاب مع الدكتور عبد الحكيم هاشم، لكن وائل النجعاوي سمع الدكتور عبد المنطلب عويره والدكتور حفني أبو فريجة يتكلمان فى فناء المعهد عن مدونة حسين عياد، ثم تحول حديثهما بعد ذلك إلى همس. هُنا قال الدكتور عبد الحكيم هاشم فى نفسه: "فعلها الغرابان المشوهَّان، تقرَّبا مِن الغراب ذي الرائحة النتنة."

***

لم يكن عبد الحكيم هاشم يظن أن العلاقةَ بينه وبين زوجته ستتحول إلى مسخ منفر، وأن الحب الذي تذوقا حلاوتَه سيذوب يوما فى الدنيا ومراوغتها، هُما اللذان عقدا اتفاقا ضمنيا أن يحافظا عليه حتى آخر العمر. كان يعتبر أن الحب مروجٌ خضراء يلهو فيها العاشقان، أدرَكَ أن المشاعر الرومانسيةَ تذوب أو تتلاشى عندما تبرز الحياة أنيابَها للزوجين. اكتشفَ أن الحياة لها معطياتٌ جديدة. فحاوَل أن يفني وقتَه فى البحث والقراءة، لذا كان لقاؤهما الخاص روتينيا لأقصى حد، بل أمعَنا فى المراوغة، هي تدَّعي النومَ إذا جاء إلى البيت متأخرا. أمّا هو فيجلس إلى مكتبِه بالساعات إذا كانت مستيقظة، حينما يباغته النوم كان يتصنع الإجهاد.

الفتور الذي وضع بينهما حدودا لم يستطيعا أن يهدماه، أو يوقفا ارتفاعه. كان موضوع الإنجاب سببا مباشرا فى نشوء ذلك الفتور. ما قوَّى نسيج هذا الفتور العزف المنفرد الذي شرَعَ فيه كل منهما. كان جسد مُنى عبد القادر قد ذاق كل أنواع العلاج الطبي، أصبح كالأرض المالحة التي لا تنبت فيها نبتةٌ مهْمَا وُضِع لها مِن أسمدة، لم يَتبَق أمامَها سِوى خطوةٍ واحدة قبْل أن تستقر فى بوتقة اليأس والقنوط. على الرغم مِن أنها كانت معبَّأة بمكابيلَ مِن الأمل قبل أن تخطو بقدميها نحو الساحة، لكنها وهي ماثلة أمام نقيب الشيخ البصري باغتها شعورٌ غريب، لم ينتَبْها مِن قبل، عِبارة عن خاطرة سوداءَ تمر أمام عينيها جعلتها تتفحصه فشعرتْ

بضآلته: "هل هذا الرجل يستطيع أن يفعل ما عجز عنه الطب؟" كانت تسخر فى قرارة نفسها مِن جلبابه الذي اتسخت أطرافه، هذه السخرية امتزجت بأجوبتها فصارت كماء البِركة يكاد يفقد كينونتَه بسبب الفطريات والطحالب التي تفوقت على نسبة الماء فيها. ربما كان النقيب ما هو إلا جهاز أشعة تلفزيونية يصوِّر ويقرأ عِلة المريض، لكن الطبيب هو الذي يشخِّص ويعطي الدواء، هكذا سيقت لها خاطرةٌ أخرى تدحض خاطرة الفطريات والطحالب. هذا ما جعلها تنتظر بعد أن عصفتْ بها رغبةٌ داخلية بالخروج مِن هذه البِركة. لقَّنَتها صورتها الأخرى القابعة فى أعماقها أن اختفاء الشيخ عن الأعين هو دوامة الوهم الذي يعيش فيه المرء سنواتٍ متلفِحا برداء الأمل. الدليل على ذلك بعد مرور ثلاثة شهور على زيارتها للشيخ لم تشعر بالغثيان أو بالدوخة، ولم يتحرك الجنين فى أحشائها

لم تحمِل جنينا بشريا، لكنها حملت أجنَّة اليأس التي تحركت فى أحشائها. لقحها الأطباء الذين فشلوا فى إعداد رحمِها لاستقبال جنين يرعى فى مروج الحياة، سقاها النقيب الذي تَصدَّر الساحةَ وكأنه ولي حميد، وشيخه الذي يقبِّل يديه العبادُ. على الرغم مِن ذلك ظهر لها مِن بعيد بصيصُ نورٍ ممزوج بموروثها الديني والاجتماعي، اتكأت على نخلة غير مورقة، لم تهزها، ولم يسَّاقط عليها رطبا جنيا، اقتربَ منها متوهجا فصفعها مِن الأسفل وتقاطرت منها الدماء، فأجهضها.

هكذا نزلت منها أجنة اليأس والقنوط.

بدأتْ تستعيد توازنها شيئا فشيئا، ترعَى زوجَها الذي يهيم فى تيه الآثار وحيدا، عادت إلى مدرستها التي لم تظل بها أكثر مِن شهر بعد تعيينها.

28

الترقيةُ التي حَصل عليها جمال راجح فهمي فى البنك الوطني المتَّحِد بعد عامين مِن تعيينه رَفعت مِن معنوياته، لم يكن يتخيل يوما أنه سوف يحصل عليها بتلك السرعة، فقدْ اجتَهد منذ اليوم الأول لعمله، كانت الثقة مبتورةً تماما لديه، يخاف مِن أخطائه مما جعله يراجع المستنداتِ الماليةَ والشيكات المصرفيةَ أكثرَ مِن ثلاث مرات، يسأل كثيرا فى كل صغيرة وكبيرة، مما مكَّنَه مِن معرفة خبايا كثيرة، خَلق هذا الوضع المعرفى لديه حالةً مِن الفضول، فاطَّلَع على حسابات العملاء، اندهش عندما اكتشف ثرواتٍ طائلةً لأشخاص يعرفهم، فبدأ منذ ذلك اليوم فى ترقب دخول هؤلاء الأشخاص، ثم الدخول إلى حساباتهم الجارية، لمعرفة الحركات التي تتم على الحساب. بدأ يفكر فى مَصادر ثرواتهم، عَرَف بالصدفة وحدَها ثروةَ عضوِ مجلس الشعب قاسم حجازي والتي وصلت إلى مائة وعشرين مليون جنيه.

– مائة وعشرون مليون يا قاسم ..! يخرب بيتك وبيت أمِّك. انت كنت شحات، لم يكن معك غير بدلتين مثل بِدَل المدرسين بتوع زمان.

هكذا حدَّثَ نفسه، وعيناه متسعتان مِن أثر المفاجأة، هز رأسه عندما رأى الثلاثين ألف التي دفعها أبوه لقاسم مودَعةً فى خزينة ذاكرته.

بالأمس انتظر أباه الذي عاد مِن مرافقة مجموعة سياحية شاهدت العرضَ الانجليزى للصوت والضوء، فوجئ راجح فهمي بابنِه يقول له:

– أنتظرُك منذ ساعتين.

التقط راجح فهمي أنفاسَه سريعا وحملق بعينه قائلا:

– تنتظرني؟ خير؟

صَمَت جمال لبرهة، يحاول أن يترك الفرصة لأبيه لالتقاط الأنفاس، وفرصةً لنفسه ليستجمع قواه التي خارت بعد وصول أبيه للمنزل فقال:

– أريد أن أتكلم معك فى موضوع.

جلس راجح فهمي وهو يرقب وجه ابنِه، كي يستكشف الموضوع الذي سيكلِّمه ابنُه بشأنه مِن خلال ملامحه، لكنه لم يجد أية ملامحَ تدل على الموضوع مما زاد مِن فضوله فقال:

– قوُل، موضوع إيه يا ولدي؟

لكن جمال راح يؤخِّر استهلال الموضوع، لعل أباه يتيح له الفرصة ليتحدث بهدوء، أو أن يستشف هو الموضوع فيُقصر عليه طريق الإحراج الذي عرج إليه، ثم قال:

– سأقول لك يا أبي.

– ....

– صاحبي فتحي عاوز يستلف مبلغ.

– ما شأني أنا؟

هكذا قال راجح فهمي وقد اتكأ للوراء، بعد أن عرَف أن الموضوع لا يستحق أن يسمعه، أو أن يبذل جهدا فى استنتاجه أثناء تلكؤ ابنِه فى البوح به.

– ما... الحقيقة أنه يريد أن يستلف المبلغ منك أنت.

هكذا قطع جمال فتيلَ الموضوع، الذي كان سببا فى ثقل لسانه.

سأله أبوه كأنه يستنكر ما يقوله ابنُه فقال:

– مِنِّي أنا... ليه؟

– علشان المبلغ كبير.

– آه ... كام يعني؟

أجاب جمال بصوت منخفض وضاقت حدقتا عيناه حتى يبدو ما سيقوله هيِّنا:

– مائتان وتمانون ألف جنيه.

– مائتان وتمانووون ألف جنيه؟

هكذا أطال راجح فهمي نُطقَ الكلمةِ الثانية اندهاشا.

– أيوه.

دخل راجح فهمي فى سُبات تفكيري، يحدِّج ابنَه مِن آن لآخر. ثم قال وقَد ارتسمت على وجهه حالةٌ مِن الحيرة وتصنُّعِ البؤس:

– يا ريت... لو كان معي هذا المبلغ، كنت أعطيته له.

لم يكن يتخيل جمال راجح فهمي أن ينتابه ذلك الإحساس تجاه أبيه فى ذلك الوقت. فبعد أن صعد أبوه للدور الثاني، ظَل جمال جالسا لساعتين متتاليتين، تتلاحق أمامه ذكرياتٌ قديمة فى شكل صور، يمسك بالصور التي ترتاح لرؤيتها عيناه، ويحرق الصورَ التي تتبذها ذاتُه "ليس لديَّ مانع يا جمال، كل ما أملك تحت تصرفك. ليس عندي أحد غيرك فى الدنيا!" هكذا قال له أبوه فاحتضنه، ودمعتْ عيناه حُبّا وعرفانا، وهكذا دمعت عيناه ضيقا ونفورا. ظلت هاتان الصورتان المختلفتان تتصارعان داخلَه منذ أن بلغ الحلم. أبوه الذي يتمنى أن يموت، وينبش قبره بعد عامين لكي يحرق رفاته فلا يكون له فى البشرية آثارٌ متبقية. وصورة الأب المثالية التي قطفها مِن وجوه الآباء المثاليين الذين رآهم واستنبتها بداخله، فراح يستخرجها كلما انتابه اليأس مِن أبيه.

عندما ذبُلتْ عيناه وانصهرت نظراته، تنامَى الألم فى رأسه، وفى الجزء السفلي الذي لم يلحق به الألم تردد صدى عِبارةٍ قالها أبوه، لم يسمعها جيدا قبْل أن يغادر الغرفة، لأنه بعد أن وجد الرفض فى ثنايا حديثه، آثر أن يصم أذنيه عن سماع صوت أبيه الذي أصبح نفيرا تشمئز منه الآذان.

– امنحه قرضا مِن البنك الذى تعمل فيه.

فتح عينيه، وراح يخفِّض مِن درجة أنفاسه المتلاحقة، لكي يهدأ الصداع الذي أثَّر بالفعل على تفكيره. فتبين تلك العِبارة وراح ينقيها مِن بين كل ما قيل. بعد أن أزال كل الشوائب التي قالها أبوه، قال شيئا يحتاج إلى تفكير. شيئا لا يقوله إلا رجُلٌ خبير ومتمرِّس فى الحياة. تلك العِبارة كانت سببا مباشرا، وأسهمت مع الصداع أن يظل حتى الصباح ساهرا يفكر فيها.

***

– شيل مِن ورا وانا ح اشيل مِن قدّام.

همس سيد عبد الموجود لأخيه عبد الجواد وهُما يهبطان مِن مرتفع البعيرات إلى الطريق الممهد للمعدِّية، يحملان رأس تمثال تحتمس الثالث مغطى تماما بجوال بُني اللون، يهاجمهما صفير البرد، والصقيع يحف أذنيهما بتيارات باردة، سارا يتلفحان بغطاء الظلام والبرد بتوجس، حتى وصلا إلى الشاطئ الغربي للنهر.

نزلا المعدِّية وهُما يضعان التمثالَ فى بطن المركب، غطياه ببطانية قديمة، أشار أمين الطواب للصبي بأن يفك الحبلَ مِن الشجرة، أومأ للمِعزِّف عبد التواب بالإبحار للبر الشرقي.

وقف أمين الطواب يفرك يديه متابعا بعينيه ابتعادَ المعدِّية مِن مرفأها الغربي. جاهَدَ لالتقاط المشهد عند البر الشرقي، لكن الشبورة حجبت عنه نقاءَ المشهد، ظَل كذلك حتى لامست المعدِّيةُ

السلَّمَ الحجري، لاحَظَ حركةً غريبة حينما توقف محرك المعدِّية، ثم رأى عددا مِن الأشخاص يركبون المعدِّية سريعا، ثم خرجوا جميعا. عندئذ أسرع نحو طاقم المعدِّية الأخرى الذين كانوا نائمين، أوقظَهم وأمَرَهم بالعبور إلى الشاطئ الشرقي على الفور.

توقفت المعدِّية التى يستقلها أمين الطواب، قفز منها متجها إلى الإطار الحديدي الذي يجلس تحته أخوه مفتاح الذي بادره قائلا:

– شرطة الآثار قبضت على سيد وعبد الجواد.

– خسارة كبيرة.

– أنا خايف لَتِيجي رِجلينا فى القضية.

– إحنا مالنا؟ شيلتهم ويشيلوها.

– طاب لو جابوا أساميناً.

– متخافش إحنا ورانا ناس كبيرة.

اطمأن مفتاح قليلا عندما وصل إليه أمين، فقدْ كان واقفا يرتعد تحت الإطار الحديدي وهو يرى القوَّةَ التي اقتحمت المعدِّية، وقبضت على سيد وعبد الجواد، ساعتَها تمنَّى لو يقفز فى ماء النيل البارد، حتى يطفئ نارَ الخوف التي اشتعلت بداخله. عندما كشف قائدُ القوةِ التمثالَ لمع بسقوط ضوء كَشَّاف المرسَى الشرقي عليه، أمَرَ الجنودَ بحمله، واقتيد المُهرِّبان إلى سيارة الشرطة الواقفة أعلى السلّم الحجري.

اليوم التالى كان يوما مشهودا إذ احتشد أقارب سيد وعبد الجواد أمام مجمع المحاكم بالعوامية ينتظرون عرضهما على النيابة.

تناثرت جماعات فى أنصافِ دوائرَ يتحدثون عن عملية القبض عليهما التي تمت فى الفَجر، راحوا يسردون قصصا كثيرة، فمِنهم مِن قال إن الشرطة كانت تراقبهم منذ وقت طويل، ومِنهم مِن قال إنهم كانوا ثلاثة أفرادٍ فاختلفوا، فأبلغ الثالثُ عنهما، أمَّا الآخرون فراحوا يكيلون لهم اللومَ لأنهم وثِقوا بأمين ومفتاح الطواب، وربما يكونان هُما اللذان أبلغا عنهما.

كان البر الغربي كله يتحدث منذ الصباح عن هذه القضية. قال البعض إنهما هرَّبا عشرةَ تماثيلَ مرةً واحدة، وآخرون قالوا إن الذى كشفهما كِبَر حجم التمثال، فى بعض القرى البعيدة قالوا إن اللصوص قد سرقوا سبائك ذهبيةً مِن مقابر وادي الملوك التي يغرف منها اللصوص منذ ألف عام، ومع ذلك لم تنفد خيراتُها بعد.

"السطو على مقبرة فرعونية وسرقة مومياوات مَلَكية."

هكذا كانت إحدى مانشيتات الصحف المحلية والتي نقلت عنها بقيةُ الصحف القومية والمستقلة والعالمية والمواقع الإلكترونية.

على بُعدٍ مِن مجمع المحاكم كانت تقف سيارة ذات زجاجٍ غير شفاف، كما وقف بعض المحامين الذين يصطادون موكلين جددا مِن أمام المجمع، راحوا يؤكدون أن موقفهما صعبٌ للغاية، فالضبط تم بإذن النيابة العامة. كما أنهما ضُبِطا متلبّسيْن بحيازة واقتناء آثار، قد يُحكَم عليهما بعشر سنوات على أقل تقدير. تَقدَّم أحد المحاميين مِن والدهما الذي وقف بين أقاربه وقال له:

– ياريت يقولوا أسامي المشترين.

نظر إليه عبد الموجود البعيري ولم يرد، ثم استطرد المحامي بحماس:

– القضية لازم تتوزع على كل اللي فيها.

وضع عبد الموجود البعيرى يده على عينيه، وكأن هذا الكلام يخرج مِن جوفه هو، يحاول أن يحجبه قدْرَ الإمكان، فاستطرد المحامي قائلا:

– لازم يقولوا أسماء لكبار.

– مين هُمّه؟

– إنت عارفهم يا عم عبد الموجود.

قبل أن ينطق عبد الموجود البعيري بكلمة أخرى، أو حتى يحاول أن يبحث عن إجابة محددة بداخله، وصلت سيارة الشرطة، هبط منها سيد وعبد الجواد البعيري مكبَّلين، حمل بعضُ الجنودِ التمثالَ المغطى بالجوال، دخلوا مِن مدخل النيابة العامة، يتقدمهم ضابطٌ برتبة رائد، حين حاول البعض الدخولَ خلفهم منعهم جنودُ الأمن المركزي الذين وصلوا منذ الصباح للسيطرة على الأوضاع المتوقع حدوثها مِن جمهرةٍ وشغب.

29

Inbox;

From: o'connor_indianauniversity@iu.edu

To: abdelhakim-hashem56@hotmail.com

Subj.re: Luxor Temple treasure

الدكتور عبد الحكيم هاشم

أهلا ومرحبا بكم

لقد طالعت ودرست باهتمام بالغ ومعي أساتذة من قسم المصريات بجامعة انديانا بحثكم الكبير عن خبيئة معبد آمون وموت وخنسو، وإنني أشكركم على جهدكم الذي قمتم به عن الثلاثين قطعة الأثرية التي عُثِر عليها فى الخبيئة.

لكنني أؤكد لكم بأن خمسة تماثيل من الثلاثين هي قطع أثرية أصلية، لكنّ الخمس والعشرين قطعة الباقية إنما هي قِطع غير أصلية، أي مقلّدة. أما القطع الأصلية التي تناولتها فى بحثك موجودة فى المتحف الوطنى بانجلترا.

Gerard O'Connor

Head of Egyptology Dept.

Indiana Universiy

عندما فرغ الدكتور عبد الحكيم هاشم مِن قراءة بريده الإلكتروني الوارد ظَل واجما، ألجمت المفاجأة لسانَه وعقله، تَساقط مِن فمِه لعابٌ امتزج بنظراته المنصهرة، فكوَّنا كائنا حشريًّا يقضم ساقيه. تحرك الظلام فدخل فى عينيه، وملأهما وكوَّنَ سُحُبا سوداءَ تخترق قرنيَّتَه، علا بداخل أُذنيه طنينٌ يشبِه صوتَ حيوانٍ خرافي كان يراه فى أحلامه فتوجَّعَ، ظهر ذلك الألم على وجهه الذي تجعد وكاد ينصهر، لولا أن شَهق شهقة كبيرة تجشأ معها سائلا بُنيَّ اللون، عندئذ استطاع أن يتنفس. أدركته زوجته فصرخت وهي تحاول أن تساعده على الوقوف على قدميه. تحركت قدماه ببطء شديد واصطحبته إلى سريره، فألقى بنفسه عليه كأنما وقع مِن فوق الجبل الغربي.

– ما بك يا عبد الحكيم؟

– .....

– ماذا حدث؟

–.....

– تحدَّثْ، أنا لا أفهم شيئا.

– .....

حاولتْ أن تستخرج مِن أعماقه شيئا لكنها فشلت، ظلتْ بجوارِه حتى الصباح دون أن يستيقظ، لكنها لاحظت تأوهاتٍ مريرةً تخرج مِن جوفه، تمتزج بغطيط لم يخرج منه مِن قبْل. رأت بعينيها أنه يتقلب كثيرا، فى إحدى المرات جلس وهو مغمض العينين وقال:

– أصلية يا دكتور.. أصلية.

نام فى هذه اللحظة نوما عميقا، سحبت منه روحه وحملوه إلى الجبانة كي يدفنوه. هناك عند القبر أخبرهم الحفَّار أن هذا القبر ليس قبره، بحثوا عن قبره لمدة ثلاثة أيام ولم يهتدوا إليه. شَعر أن الملائكة جاءوا إليه وهو موسَّد فى "الكرب" يريدون أن يحاسبوه، لكنه أخبرهم أن الوقتَ والمكان غيرُ مناسبين، وأنه مستعد للحساب فى أي وقت، ولن يفِر منهم، عليهم أن ينتظروه عندما ينزل القبر، وإذا حاول أحدهما سؤالَه وهو بلا قبر هكذا فلن يجيب. عندئذ رأى فى أعينهم الحنق. فى هذه اللحظة بالذات فقدَ وعيه تماما ولم يشعر بشيء أبدا.

***

انتهى وكيلُ النيابةِ مِن استجواب سيد وعبد الجواد البعيري وكان جوابهما "لا نعرف" كلما وجَّهَ إليهما سؤالا، ثم استجوب الضابطَ الذي قام بضبطهما.

كان ماهر عبد التواب قد قرأ محضر شرطة الآثار ومحضر بندر الأقصر. بعد ذلك أمَر الجنديَّ الواقف عند التمثال بكشفه وراح يصِفه لكاتب النيابة.

لاحَظَ أن المتهمين يصرانِ على إنكارهما سرقة التمثال مِن إحدى مقابر وادي الملوك، وتأكيدهما على العثور عليه بجوار أحد

مصارف الماء الذي يُغذِّي حقولَ القصب فى البعيرات. لم يشأ أن يوجِّه إليهما الأسئلةَ الاتهامية لحين وصول خبير الآثار.

– رأس تحتمس الثالث، التمثال مقلَّد، مصنوع مِن الحجر الجرانيتي المطبوخ، بعد مقارنة الطول والعرض، وجدت أن الوزنَ لا يزيد عن عشرين كيلو، الرموز والأختام الملَكية وإنْ كانت متقَنة فإنها مقلَّدة. هناك نقطة مهمة وهي أن هذا التمثال لا يوجد عند قاعدته ختمٌ مرسوم بداخله صورة التمثال نفسه بالمليمتر، وكان هذا صعبا على أى مُقلِّد. الأهم مِن كل ذلك، أن الجرانيت الأصلي لا يمكن حرقه بالنار، لكن المقلَّد يحترق ويشوَّه. صُنِع منذ ست ساعات تقريبا.

وقف وكيل النيابة مندهشا، يدور حول التمثال، فقدْ أمهَلَ خبيرَ الآثارِ ساعةً كي يفحص التمثال مِن الأمام ومِن الخلف وضغط بيديه على التمثال.

أشعل وكيلُ النيابةِ عودَ كبريت وقرَّبَه مِن التمثال فاسوَدَّ وتشوَّه!

كان الخوفُ يكبِّل أقدامَ سيد وعبد الجواد البعيري، ربما يشعران للمرة الأولى بأن النافذةَ القريبة جدا منهما تناديهما لكي يقفزا ويتخلصا مِن هذا الموقف الرهيب، لكن الإجراءات التي يقوم بها خبير الآثار باعدت هذه النافذةَ عنهما، لم تَعُد تومِئ لهما بسرعة القفز، كما أن قيود الرهبة تفسخت شيئا فشيئا. تسربت إليهما مشاعرُ لم يعرفا كُنهَها فى ذلك الوقت، هذه المشاعر كانت مزيجا مِن الفرحة والحزن، الفرحة لفقدان ضلعٍ مهم للجريمة، والحزن

بسبب ضياع حلم الثراء الذي راوَدَهما منذ سنوات وحوَّلاه إلى حقيقة، فتلاشَى اليومَ فقط.

***

نيابة بندر الأقصر

قرار

يُخلَى سبيل المُتَّهَمَيْن بضمان محل إقامتهما نظرا لانتفاء القصد الجنائي، حيث إن التمثال مقلّد وليس أصليا. فقررنا حفظَ المحضر.

ماهر عبد التواب
وكيل أول نيابة بندر الأقصر

خَرج سيد وعبد الجواد البعيري مِن بندر الأقصر بعد التأكد مِن عدم تورطهما فى قضايا أخرى، استقبلتهما الجموعُ المنتظِرة التي زحفت مِن أمام مجمع المحاكم إلى قسم بندر الأقصر لحين الإفراج عنهما. عاد الجميع إلى المعدِّية وغادرت السيارة السوداء التي كانت مرابِضة أمام مجمع المحاكم.

رن جرس التليفون المحمول فى سيارة جرجس أيوب رقم 88، رد: yes وظل يستمع لفترة وجيزة، ثم ضغط بإصبعه وأنهى

المكالمة، ضحك ضحكة كبيرة، ثم قال للجالسين فى المقعد الخلفي والسعادة تملأ وجهه:

– التمثال خرج مِن مطار هيثرو.

– مبروك يا باشاوات.

– مبروك يا سعادة النايب.

***

كَبِر حجاج الرشيدي على ولعِه الشديد بالآثار، فقدْ كان يقف أمام مقابر وادي الملوك يبيع التماثيلَ الصغيرة للسائحين، تَحَمَّلَ حرارةَ الجو التي تحيط بالمقابر، كما كان يتحمل لفحة الشتاء القارس، أمّا مهارته فى إقناع السائحين فى شراء التماثيل فقدْ كانت مذهِلة. اللغات التي كان يتقنها كالانجليزية والفرنسية والألمانية ساعدته فى التواصل مع السائحين بشكل كبير، فكان يشرح تاريخ التمثال الذي يعرضة للبيع ويناورهم بالأسعار هو وأخوه عبد الباسط.

حوَّلَ منزلَ أبيه الذي مات أثناء حفر السد العالي إلى مصنع ألاباستر، فكان يقلِّد التماثيل ويصنع منها أحجاما مختلفة، يبيع منها عند الدير البحري ومقابر وادي الملوك وأيضا عند المعابد الجنائزية، وأيضا شارع السوق السياحي. معظم المجموعات السياحية تزور مصنعَه عندما تفرغ مِن زيارة آثار البر الغربي بالاتفاق مع المرشدين الذيي يحصلون على عمولة كبيرة لإقناع

السائحين بزيارة المصنع فقط، (مِن أهم عملائه المرشد راجح فهمي) حتى ولو لم يشتروا، أمَّا إذا قاموا بالشراء فعمولته ترتفع وقد تصل إلى سبعين فى المائة.

هكذا كان نشاط حجاج الرشيدي بالنهار، أمَّا بالليل فقدْ كان متفرِّغا تماما لتقليد التماثيل الأصلية كبيرة الحجم، فقدْ كانت دِقَّتُه متناهية، أُشتُهِر بمقدرته الفائقة على نسخ التماثيل، حتى أن خبراء الآثار قد لا يفرِّقون بين التمثال الأصلي والتمثال المقلَّد بسهولة. أمَّا الفترة الزمنية التي يستغرق فيها نسخ التمثال فهي التحدي بعينه.

لا يخرج حجاج الرشيدي مِن بيته كثيرا، ربما لانشغاله الدائم فى صناعة التماثيل صغيرة الحجم والتي تعتبر الواجهةَ الشرعية لنشاطة الليلي الذي لا يعرف أحد حتى الآن ما هو. ربما انتابت الشكوكُ بعضَ الناسِ بخصوص الرجال الذين يزورونه بالليل بسيارات فارهة، لكن المنطق يقول إن هؤلاء الزوَّار هُم تجار مثل كل التجار الذين يشترون منه بضائع بسعر الجملة. أمّا عن قيامه بتقليد بعض التماثيل الأصلية فهو برئ منها تماما، وما فنَّدَ هذا الاحتمال – أو لِنَقُلِ الافتراء – أن داهمتْ شرطةُ الآثار مصنعَه أكثر مِن عشرين مرة ولم تَضبِط ولو رأسَ تمثال أصلي واحدٍ لديه.

كان حجاج الرشيدي يعيش هو وأُمُّه وأختاه وأخوه الأصغر مع أبيه فى منطقة "الحكروب" فى أسوان عندما كان أبوه عاملا فى

السد العالي. حينما يأتون فى الأجازات، يخرج مِن البيت فى السادسة صباحا يبحث عن أصدقائه ليلعب معهم. بعض الأطفال يحبون رؤية أقرانهم الغرباء أو الذين يعيشون بعيدا عنهم، فتجدهم يؤْثِرونهم على أنفسهم عندما يلعبون معهم، ويصدِّقونهم فى كل شيء، فإن أحبوا لعبَ كرةِ القدم يقدمونهم على أنفسهم.

كان منذ صغرِه (يكبرهم بعشر سنوات) يلعب مع عبد الستار وفتحي الطواب، وأمين ومفتاح الطواب خلْفَ معبدِ حتشبسوت، وكان يهوى تغييرَ الحقائق، فعندما يختلفان في شئ يقول: "انهاردا إيه؟" فيرد عبد الستار قائلا: "إنهاردا السبت." لكن حجاج يصر على أنه يوم الأحد، يحاول بشتَّى الطرق حتى يقنعه بأنه فعلا يوم الأحد.

فى الظهيرة عندما تدنو الشمس مِن رؤوس الصبية الذين يلعبون عند الوادي يتسابقون فى الركض مِن عند الوادي حتى نهر النيل. كان حجاج يحب أن يُلقي نفسَه فى النيل بملابسه، عندما كانوا يقيمون مسابقة فى السباحة يفوز عليهم جميعا بالاحتيال، يجد ألْفَ سببٍ وعذرٍ بأن مَن سبقه قَد كان خلْفَه، لكنه أعاقه عن التقدم.

لم يكن اليوم ينتهي بسلام، وإنما كانوا يشتبكون فى شجارٍ عنيف ويضرب كل منهم الآخر، ثم يبتعدون فيتناوبون قذْفَ بعضِهم البعض بالطوب.

كان أخوه الأصغر عبد الباسط مراكبيا، يقوم بعمل رحلات نيلية للسائحين. أقام علاقاتٍ مع سيدات أجنبيات عجائز. لم يكن قد بلغ الخامسةَ والعشرين حينما تزوَّج مِن ثلاث سيدات. شَيَّدتْ له زوجتُه الأولى عمارة تُطِل على النيل فى الغرب، عندما تبخر رصيدُها مِن البنك طلَّقَها، أمَّا الثانية فقدْ دفعتْ له مصاريف الحج لأُمِّه، واشترت له ثلاثة لنشات بحرية، تزوَّجَ عليها الثالثة التي لم تَعرف هي أو الثانية ذلك. قال البعض إنه أصيب بالإيدز، لكن لم يتأكد هذا الخبر حتى الآن، وإنْ رآه البعض يسافر للقاهرة لإجراء التحاليل هو وصديقه حساني فايز، الذي حاول مضايقةَ الدكتور إبراهيم الإسناوي فى مؤتمرِه الانتخابي فى شارع السوق، قيل عندئذ إن حساني أُصيبَ بالإيدز مِن امرأةٍ بولندية عندما عمل مراكبيا بعد طرده مِن فندق إيتاب. الشئ الأهم لديهما والذي استقر فى يقينيهما أن الخوفَ مِن الإيدز لن يكون أشدَّ مِن الخوف مِن الجوع والفقر، لذا كتَمَا خبرَ إصابتِهما كما كتَمَه الآلاف مِن المصابين غيرهما، حتى وإنْ فاحت رائحتُه فى البر الغربي كله، أو وقف على رؤوسهم الطير. إذا كان مرْضَى الإيدز يتزايدون فى البر الغربي فمَرْضَى السرطان وفيروس سي والفشل الكلوي يتزايدون فى كل مكان. أمَّا مسألة الموت فلا يجب أن تقترن بالإيدز فقط، فأمراض كثيرة تصدرت قائمةَ الموت.

30

عندما وصَل جرجس أيوب لمصنع حجاج الرشيدي للألباستر ومعه قاسم حجازي الساعةَ الثانيةَ عشرةَ ليلا كان منهمِكا فى تقليد تمثال مرنبتاح وحوله أدوات النسخ مثل الإزميل والمبرد والمنشار والدبورة والشاكوش. لم يعرفهما فقدْ كانا متخفيين، يغطي كل منهما وجهَه ورأسَه بملفَحة. ساعتَها رأى تمثال رأس تحتمس الثالث وانبهر لرؤيته.

– أنا نفسي أعمل الحته دي مِن زمان.

– عجبتك؟

هكذا قال له جرجس أيوب وهو يرقب اللهفةَ التي تتقاطر مِن عينيه.

– خلاص اعملها.

– يالا ورِّينا الهِمّة.

– دلوكتي؟

– أيوه دلوأتي.

رد قاسم حجازي مشدِّدا على الحروف.

– دِلْقِيتي.

ضحكوا. ثم استدرك حجاج قائلا:

– كِيِيف يعني؟

– مفيش وقت.

هكذا أجاب جرجس وقاسم فى وقت واحد.

عندما انتهى حجاج الرشيدي مِن نسخ التمثال كان النوم يحوم حول قاسم وجرجس اللذيْن اتكئا على الكنبة المواجهة له. صفق بيده بصوت منخفض ففزِعا. ظَلا لدقيقتين يحاولان أن يتبينا ما أمامهما. فلم يجدا بُدا مِن أن يغسلا وجهيهما.

وقفا أمام التمثالين يحاولان جاهديْن أن يستبينا أو أن يفرِّقا بينهما لكنهما فشلا تماما، هذا الفشل جعل حجاج الرشيدي يشعر بالزهو، وهو الذي جعله يطلب مبلغا كبيرا مقابل هذه النسخة المتقنة مِن التمثال دون أن يعترضا، هذا الفشل أيضا هو ما جعلهما يطمئنان تماما لِما سوف يحدث فى الصباح.

***

يصِل بعض الموظفين إلى مناصبَ ومراكزَ مهمةٍ فى مواقعهم بسبب اجتهادهم وبحثِهم الدؤوب للتجويد فى طريقة آدائهم. أثناء هذا البحث يعثر البعض منهم على ثغراتٍ فى أسلوب وإجراءات خاصة بالعمل، يقوم البعض منهم بإبلاغ رؤسائهم عنها حتى يتم تلافيها فى المستقبل، لكن البعض يستغل هذه الثغراتِ لنفسه، أو يسوِّل له الشيطان أن يستغلها. " ما اكتشفته لم يكتشفه أحد مِن قبلك، ولن يكتشفه أحد مِن بعدك." هكذا قال الشيطان بصوت منخفض ذات صباح لجمال راجح فهمي وهو مستغرق تماما فى

مكتب القروض الصغيرة الذي انتقل إليه منذ ستة شهور، وهو يفكر فى طلب فتحي الطواب للمبلَغ الكبير.

ظَل جمال راجح يفكر فى هذا الأمر بعد أن رفض أبوه إعطاءَه المبلَغ، لكن العِبارة التي قالها له مازالت ترن فى أُذنيه: "امنحه قرضا مِن البنك الذي تعمل فيه." ربما توَصَّل فى هذا الصباح لحل هذا اللغز الذي ظَل يؤرقه، كذلك الخوف مِن ضياع فرصة زواجه مِن ثريا الطواب، فى الوقت نفسه ضياع فرصة الثراء السريع. تذكَّرَ أيضا إلحاحَه على فتحي بأن يخبره سببَ احتياجِه لهذا المبلَغ الكبير.

– لقية كبيرة مدفونة تحت البيت، يحرسها رصد جبار، لا يفله إلا شيخ مغوار يحتاج لأموال وبخور بلا أنوار.

هكذا قال له فتحي منذ ثلاثة شهور بعد محاولات مريرة منه لكي يستنطقه قَسرا. ربما تخيَّلَ جمال سببَ طلبِه هذا المبلَغ، أو على الأقل كان متأكدا مِن ذلك، فقط ينتظر منه أن يخبره بنفسه، حتى يعتبر هذا الاعترافَ بمثابة موافقة على انضمامه لهم، سواءٌ بزواجِه مِن أخته، أو باشتراكه فى عملية استخراج اللقية.

اكتشفَ جمال أن الأقساط التي يدفعها المقترِضون، مثل تمويل مشروع "رياشة فراخ" أو عمل "ميني ماركت" أو شراء "ماكينة تصنيع أكياس بلاستيك" ليسوا مطالبين بالسداد بعد حصولهم على القرض مباشرة، وإنما لديهم فترة سماح حتى تؤتي هذه المشاريعُ ثمارَها، كان البعض منهم ملتزما مع ذاته، فيهرع إلى

البنك لكي يسدد الأقساطَ سريعا. هكذا تلَقَّفَ جمال راجح هذه الأقساط، وجمَعَ مبلغ مائتين وثمانين ألف جنيه. غضب من صورته الأخرى التى انسلخت منه حالا واتهمته بالسرقة:

– يا حرامي الأقساط، تسرق أقساط الغلابة؟

– سرقة إيه يا غبي؟

– انت مش عارف إن دي سرقة؟

– دا اقتراض، أنا أحصل على هذه الأقساط كأنها قرض بنكي وفى خلال شهرين ح سددهم مِن غير ما حد يحس.

– لكن.....

لم يُعطِ فرصةً لنسخته الأخرى بأن يرد عليه، وإنما نهض سريعا وقبْل أن يخرج مِن الباب بصق بصقة لزجة على نسخته الأخرى الذى وقف على الجدار مشلولاً تماما.

***

عاد الشيخ مرزوق بو مسعود بعد شهر واحد مِن المرة الأولى فى ليلة نصف قمرية، استقبله عبد الستار وفتحي الطواب وزوج أختهم ثريا جمال راجح. بعد أن شرب كوبا مِن الشاي جلس حول الحفرة التي لم يطَّلِع عليها أحد مِن سكان البيت طوال الشهر الماضى لسببين: أولهما أن أُمَّهم سكينة مرعي تولَّتْ تطهيرَ البيتِ مَن العقارب والحيَّايا، الأمر الثاني هو زواج ثريا مِن جمال الذي دخل البيت بعد أسبوع مِن زفافهما، حاول ساعتَها أن يشم

رائحة الأثار التي طالما حلم بها، عندما رأى الحفرةَ تأكد ظنه بأنه سيجد بيتَ ثريا مثل كل بيوت الوادي تبحث عن الآثار، هكذا تحققت أحلامه، فوقف بنفسه أمام الحفرة مزهوا.

– وين الحوايج؟

هكذا استهل الشيخ مرزوق كلامَه بالسؤال عن مهمات اللقية، أحضرها فتحي ووضعها أمامه، قال له:

– ضعها فى طبسيل.

أخرج فتحي الأدوات ووضعها فى طبق كبير. قرأ الشيخ بعضا مِن الكلام المبهَم، ثم نثر على الحفرة القليل مِن الحبوب المخلوطة بالرمال الصفراء، وعشرة أحجار صغيرة جُمِعت مِن مقبرة حتشبسوت، وضع حفنة مِن البخور الهندي في إناء فخاري به جمرات، ثم خلطة بقِطع مِن جلد الكوبرا. نثر عليها الطقسَ المغربي، فتصاعَد الدخان الكثيف الذي ملأ الحفرةَ والسقيفة.

أمَرَ الشيخ مرزوق عبدَ الستار وفتحي بالحفْر، قبْل أن يشرعا سأله عبد الستار:

– كم متر يا مولانا؟

أجابه الشيخ محاوِلا الخروجَ مِن دائرة الغموض التي أحاط بها نفسه:

– ثلاثة أمتار.

اندهش عبد الستار فقدْ وصَل عمقها مِن قبْل إلى مترَيْن لذا سأله:

– دا عمق كبير يا سيدنا؟

لم يرد الشيخ. تقدَّمَ جمال راجح ناحية الحفرة ونظر فيها، بينما وقفت ثريا بجوار أُمِّها تتابع الموقف.

صاح الشيخ مرزوق وأمَرهم قائلا:

– احفروا تلاتة متر يا رجالة.

نزل عبد الستار وفتحي بينما وقف جمال يلتقط منهما المقاطفَ المملوءة بالتراب. يضع الجميعُ نصبَ أعينِهم العمقَ الذي حدده الشيخ، فكانت المياه تظهر شيئا فشيئا، كان فتحي يقوم أيضا برفع الماء بالدلو، بعد أن حفر مجرى للمياه ليصرفها تحت الجدار، أمَّا الطمي اللزج فكان يكوِّمه جمال فى حوش الطيور، استبد التعب بالجميع ومع ذلك استمروا فى العمل، لم ينقطع الشيخ عن قراءته السرية. سمع عبد الستار فحيحا مكتوما يصدر مِن جوف الحفرة، فصعَد السلَّم الخشبي يتبعه فتحي فى هلع هاربيْن مِن الصوت الذي هز الطبقةَ الأرضية التي كانا يحفران فيها. ما إنْ صعد فتحي برأسه، وقدماه تجاهدان فى التسلق المضني، إذ خرج الرصد برأسه الثعبانية ماخِرا طبقةَ الأرض اللزجة، كاد أن يقضم قدمَ فتحي الذي انتشله عبد الستار وجمال بسرعةٍ فائقة.

– يا واكل أبوك على امك.

هكذا صرخت سكينة مرعي وأمسكتها ابنتُها حتى لا تتقدم نحو فوهة الحفرة، ذلك هو حالها عندما يحيق الخطر بأحد أبنائها.

دخل المسا وخش الليل،
دخل المسا على قليل الحيل.
يا رب يا موجود هونهالى،
وانت القوى ونا ضعيف الحالي.

***

Sent;
From: abdelhakim-hashem56@hotmail.com
To: director_general@unesco.org
Subj: Luxor Temple treasure

السيد / مدير عام هيئة اليونسكو

بعد التحية

طرقت كل الأبواب، لكنها كانت موصدة أمامي. وضع المسئولون عجينا أو طينا فى آذانهم، فلم يستمعوا لندائي أو صرخاتي؟ لذا طرقت بابكم مستجيرا، لعلكم تجيبون استغاثتي بعد أن اعتصرني الضيق والحزن وخلفهما المرض، أرسِل لكم شكواي لعلكم تحققون فى فحواها، وتتخذون بشأنها إجراءات حاسمة ورادعة.

اسمحوا لى بعرض قضيتي:

قمت بإجراء بحث تاريخي عن خبيئة معبد آمون وموت وخنسو (معبد الأقصر) يشمل ثلاثين قطعة أثرية. أرسلت منه نسخة لجامعة انديانا بالولايات المتحدة لأستاذ المصريات بها وهو الدكتور جيرارد أوكونور، تلقيت منه ردا شديد الخطورة، فقد اكتشفَ أن خمس قطع فقط أصلية، بينما الخمس والعشرون قطعة الأخرى مقلدة، أما القطع الأصلية فهي موجودة فى متاحف أوربا وأمريكا.

ملحوظة:

مرفق صور إلكترونية لتلك القطع.

أرجو النظر والتحقق فى هذه القضية وإفادتي على وجه السرعة.

دكتور عبدالحكيم هاشم

رئيس قسم الآثار المصرية بجامعة جنوب الوادي

ضغَطَ الدكتور عبدالحكيم هاشم بالماوس على الإرسال، فأُرسِلتْ على الفور رسالته الإلكترونية إلى مدير عام هيئة اليونسكو، لم تكن تلك هي أول رسالة استغاثة يرسلها، فقد أرسَل قبْلَها بشهر رسالةً لرئيس المجلس الأعلى للآثار، وألحقها برسالة لوزير الثقافة، لدرجة أنه لجأ لرئيس الجمهورية. لكنه لم يتلق الرد حتى الآن، فكان ذلك باعثا له للاستغاثة بمدير عام اليونسكو.

اليوم التالي لم يكن ذا قيمةٍ لديه فمَا يزال الحزن يسيطر عليه، إلا مِن ومضةِ أملٍ استقرت فى وجدانه لعل مدير اليونسكو يرد عليه. كان قد استيقظ مِن نومه الأبدي بعد أسبوع وكأن دهرا قد مَر عليه.

ذهب ذلك اليوم للمعهد الإقليمي العالي لترميم الآثار حتى يندمج مرة أخرى فى مجاله الذي أصبح يخضع للشكوك أكثرَ مما يخضع لليقين, فبدأ محاضرتَه الأولى فى مادة تاريخ مصر القديمة. لكنه صمَتَ طويلا، أخذ يُقلِّب فى الكتاب الذي يأخذ منه عناصر الشرح وعيناه زائغتان. عندئذ ضج الطلاب وأخذوا يثرثرون. لكنه قطع الضجيجَ بأن اعتذر عن المحاضرة وانصرف سريعا، ترك الطلابَ حائرين يخمِّنون سببَ الكدَر الذي كسا وجهه واعتذاره وخروجه سريعا، حين تبعه بعض الطلاب فوجدوا أنه اختفى.

31

استدار الشيخ مرزوق وهو مولٍّ وجهَه ناحية الجدار وظهره ناحية الحفرة، ثم لفَّ ونَظَر فى الحفرة، هبط ممسِكا إناءَ البخور فغمر الدخانُ الحفرة، وطفر فملأ السقيفةَ والغرفتين المجاورتين. لم يظهر الشيخ مرزوق بسبب كثافة الدخان. أمَّا ثريا فكانت متشبثة بأُمِّها. الهلع يناور وجوهَ الواقفين بالأعلى، فمِنهم مَن يضع يده

فوق فمه، ومِنهم مَن يحك فى ركبته، ومِنهم مَن يرجع خطوتين كلما تقدَّم خطوة واحدة.

هكذا هيمن الخوفُ عليهم جميعا، جعلهم رهنا لخروج الشيخ معلِنا تغلُّبَه على الرصد، لم يستطع أحدهم أن يهمس فى أُذن الآخر، بل حبسوا أنفاسَهم خشيةَ أن يوقِظوا الرصد الكامن فى الطبقات الأرضية، فيخرج ويهتكها، ويبتلع مَن يقف فى طريقه. ظلوا كالتماثيل ينتظرون ويتسمعون ما يحدث فى الحفرة التي اتحدت كياناتهم داخلها، ربطوا تطلعاتِهم وآمالَهم بما ستسفِر عنه كوامنها. سمعوا صراعا متناميا فى أسفل الحفرة، لكن الأدخنة المتصاعدة منها حجبت ما يحدث، صوت الشيخ مرزوق هو الذي كان يعلو كأنما يُحدِّث شخصا ما، يسمعون صوتَه هو فقط، فجأة اختلط صوته بألم يباغته أثناء حديثه.

السكونُ الذي تلى تأوهاتِ الشيخ بدا طويلا وإنْ قَلَّ زمنُه، فأخذوا يتناوبون النظرَ فى الغرفة بحذر، استبدَّ بهم الخوف إلى أن ظهر رأس الشيخ مِن خلال الأدخنة الغيمية التي بدأت تتلاشى شيئا فشيئا، ظهرت آثارُ دماءٍ على وجهه ورقبته، ثم نَظَر مرة أخرى إلى آثار أقدامه فى قاع الحفرة، نظر حوله باحثا عن شاشه الأبيض، لكنه لم يجده وأيقن أن الرصد ابتلعه.

جلس بعيدا يلتقط أنفاسه، لم يجرؤ أحدٌ مِن الواقفين الذين يتابعون خروجه أن يقترب منه، انتظروا أن يسرد لهم ما حدث. كانت حركاتُه تدل على أنه المتصرِّف الوحيد فى المكان. استلقى على

السرير الجريدي والإنهاكُ يسيطر على جسده، قال وأنفاسُه المنهكة متلاحقة:

– الرصد شديد وعنيد واللهب مِن خشمه ملهلِب.

التَفَّ حوله فتحي وعبد الستار وخلفهما جمال. نظر الشيخ إليهم قائلا:

– ما حدا يقرِّب مِن الحفرة متين اكتمال القمر.

استند الشيخ مرزوق إلى عصاه وخرج فى جنح الظلام بعد أن حذَّرَهم مِن محاولة مشاكسة الرصد الذي ارتفع مقامه مِن الأرض. جلس ليحرس اللقية بعد أن كان نائما طوالَ السنواتِ الماضية إيمانا منه بأن طبقاتِ الأرض تحجب الآدميين عن كنوز الفراعنة. قبْل أن يغادر غَسَل وجهَه بالماء البارد، اقتربَ مِن الضوء حتى يروا آثار اشتباكِه مع الرصد فى معركة شديدة، انتصر على إثرها الرصد فأبعدَه عن طبقة الأرض الرقيقة التي تفصل اللقية عن الحفرة، وجدوا أن الرصد هاجمه حتى خمش وجهه ورقبتَه. ساعتَها دخل الجميع الغرفةَ المواجهة للحفرة، جلسوا يحرسون بأعينهم المكانَ خوفا من خروج الرصد بغتة، فيبتلعهم وهُم فى غمرة الغفلة والنوم.

قالت سكينة مرعي بعد أن خرجت مِن متاهة السكون التي وَضعتْ نفسَها فيها:

– الرصد راقد فى سلام يحرس كنوز الملوك، لا يهاجم إلا لو هاجمه آدمي.

***

"إذا كان مانح القروض يمنح الآخرين، فمِن باب أولى يمنح لنفسه قرضا حسنا."، "اليوم أنفصِل عن ذاتي وكياني، وأتَّخِذ لنفسي ذاتا وكيانا آخريْن." هكذا حدد لنفسه منهجا جديدا، يتكون مِن بنديْن مهمين، البند الأول يحصل بمقتضاه على أقساط المودِعين بهدوء، فليس فى هذا ريبةٌ أو شك، فمهلةُ السدادِ لم تنتهِ بعد، أمّا إذا انتهت فيمكن أن نقول عندئذ أن ما فعله يستوجب السؤال. لكنه مسئول عن هذا القسم وهو أدرى به، ولن يستطيع أي شخص آخر أن يعرف أسراره حتى ولو جاء رئيس مجلس الإدارة بنفسه. فطالما أن السكون يرقد على أوراق بنكنوت تتحرك فى صمت فلماذا نثيره؟ هكذا كانت ذاته تخطُب فيه خُطبةً حماسية تبعث فيه الطمأنينة.

أمَّا البند الآخر هو مسألة زواجِه مِن ثريا فقدْ حَسَمها بينه وبين نفسه، ثم حَسَمها مع أبيه وأُمِّه فى يوم السبت قبْل الماضي عندما عرَف أن أباه موجود فى البيت، وهو اليوم نفسه الذي زار فيه الدكتور راضي هراس البعثاتِ الأثريةَ بعد القلق الذي أُثير حولها فى الآونة الآخيرة، رافَقَه الدكتور زكريا رشدي وسالم الطواب وقاسم حجازي وجرجس أيوب.

– أنا ح اتجوز.

هكذا ألقَى بهذه الجملة التي كانت مثل "الطريشة" أو الثعبان الذي يقفز على الضحية فيلجمها فلا تستطيع الفكاكَ مِن قبضته ليس لقوته فحسب، ولكن لعنصر المباغَتة الذي يقضي على مواطن

العزم والقوة النفسية. كانت الدهشة قد حرقت قدْرا كبيرا مِن الدهون التي تحيط برقبة أمال عبد السميع ففغرت فاها.

لكنَّ أباه استطاع الإفلاتَ مِن الجملة الثعبانية بأعجوبة فقال له ساخرا:

– تتجوز؟ خلاص قررت؟

– أيوه.

– بنت مين؟ بنت حد يقربلنا؟

– لأ، بنت واحد غريب.

خرجت أُمُّه مِن لجة الاندهاش فقالت بصوت عالٍ إلى حد ما:

– حد غريب؟

– أيوه حد غريب.

كان مِن الصعب جدا أن يُقنِع جمال أبويْه بموضوع زواجه الشائك، فهُما لن يوافقا أن يتزوج مِن فتاة غريبة للعُرف السائد لديهما، وعندما ذكَّرَهما بأن أُمَّه غريبة عن العائلة، قالت له الأمرُ مختلف، وفى خضَم انفعالها صرحت لهما بأنها نادمة على ما فعلته منذ سبع وعشرين سنة، وإذا عادت بها السنواتُ للوراء فلن توافِق عليه، وخصوصا عندما اكتشفت بعد عام من زواجها أن بعضا من أقارب راجح فهمي يعملون عربجية حناطير.

سقطتْ بقعة مِن الزيت على النار فاشتعلت بشدة، تطاولت ألسنتها فأحرقت الأكسجين المحيط بها. شعروا بالاختناق. سمَع

أمَّه عندما دخلت إلى غرفتها منفعلة جدا وهي تقول إنها تتبرأ منه ومِنهم أجمعين. عندما سمع أبوه هذا أشاح بيده، وقال له:

– أنا غير موافق.

فعَلَ جمال الواجبَ الذي يتحتم عليه فِعله، أمَّا بقية الحكاية فلن يبوح بها لنفسه. ربما وجد عدم موافقتهما ذريعةً للمُضي فى منهجه. "لو أنهما وافقا على الزواج فربما يكتشفان موضوعَ اللقية، مِن الأفضل لي ولهما أن أستقلَّ بذاتي عنهما، وأصنع مستقبلي بنفسي" هكذا قال فى نفسه، خرج مِن البيت عازما ألا يعود إليه.

لا أحد يعرف كيف تمت ليلة الزفاف، التي أُقيمت فى نادي المدينة المنورة، فقدْ قاطَعَها العالم بأسره. عندما ذهب فتحي لعمِّه سالم الطواب فى فندق سالم بالاس المجاور لمتحف التحنيط بعد عيد تحرير سيناء بيوم واحد لكي يبلغه بموضوع زواج ثريا مِن جمال يوم الخميس القادم. تَصنَّعَ سالم ابتسامةً روتينية وبارَك له، ثم قال له أيضا بشكل روتيني:

– ابن مين جمال دا؟ مِن عيلة مين؟

– جمال وَرْد راجح فهمي المرشِد السياحى.

اشتعلت النارُ فى القش الروتيني الذي يتكئ عليه سالم الطواب.

– وَرْد مين؟

– وَرْد راجح فهمي.

لم يشعر فتحي الطواب بقدميه، فقدْ هاج عمُّه بشدة، سرد له تاريخ هذه العائلة، وأنها لا تناسبهم، وأن الناس سوف " تأكل وِشهم". عندما وجد اللامبالاة مرسومةً على جبينه قال:

– هُمّا يناسبوكم انتم. انتو زيهم، مِن توبهم ومن طينتهم، عربجية زيهم، تتحرقوا كلكم.

خرج فتحي مِن فندق عمِّه وهو يلعنه ويلعن عائلته وكل العائلات، ندمَ على الذهاب إليه. لكنه اضطر أن يذهب إليه بسبب إلحاح أُمِّه، لأن أباه لن يخرج مِن الساحة إلا وهو محمول على كرب.

لكن مع ذلك مَر يوم الزفاف سريعا، فقدْ كانوا يتمنون ذلك. ربما وقف عبد الستار وهو يرسم ابتسامةً غريبة على وجهه، لكنه مع ذلك لم يكن يشعر بنفسه. بينما ظَل فتحي يتحرك هنا وهناك، يحثُّ الفِرقةَ على أداء الأغنيات التي تثير الحركة. على الرغم مِن قِلة المدعوين فقدْ امتلأ السرادق المقام فى النادي عن آخره بسبب رواد النادي والمعرض السوري المقام فيه.

32

بَلَغ القمرُ الحلمَ فتربَّع فى السماء، حان الوقت للسيطرة والقضاء على الرصد. بعد أسبوع مِن مشاكسة الرصد للشيخ الذي وقف فوق الحفرة يرتِّل والبخور يطلق أدخنتَه، وقف الجميع فى الخلف.

أمسكتْ ثريا بزوجها جمال، بينما تقدَّم عبد الستار وفتحي قليلا، على الجانب الآخر وقفتْ سكينة مرعي تُجدِّد جلْدَ جسدِها الذي ترهَّل.

مرت ساعةٌ على ترتيل الشيخ، توهجت أدخنته، فخرج الرصد واستطالت قامته، كاد أن يلتقم رأس الشيخ، فرجع للوراء فزِعا مِن خيانته. طاف حول الحفرة محاولا إخمادَ ثورةِ الرصد البركانية، بدأ بينهما صراعٌ محموم. كان كلما يدور الشيخ حول الحفرة، يدور الرصد حول نفسه شاهِرا لسانَه الناري أمامَه، تبرز أسنانه، ينتظر لحظة الانقضاض المحتومة. كان الرصد يدور فى الوقت نفسه بجسده الثقيل الملفوف مِن عند الذيل عدة لفات، يقف بجزعه الطويل ولونِه الأخضر البديع وسُمكِه الذي يضارع سُمْكَ أعمدةِ معبد الكرنك.

تلك اللفات التي قام بها جعلت الحفرةَ تتسع رأسيا وأفقيا، مما سرَّبَ الراحةَ إلى نفس الشيخ الذي هَمَّ منشِدا:

بيت الأسرار وحارسه المغوار،
افتح لسيدك الشيخ الجبار،
يا حارس البير يا رصد يا أمين،
إدِّينا مِن كنزك،
وابعد عنا جسمك،
وخُدْ فى خشمك.

فألقَمَه حِفنةً مِن الرمل المخلوط بالبخور الذي قرأ عليه مدةَ شهرين كاملين كلَّ صباح، وكل مساء ففتح الرصد فمَه الذي اتسع وظَل يفح فحيحا مخيفا، ثم قرأ عليه آياتٍ مِن القرآن، كان يرش عليه خليطا مِن الراتينج الذي عرَّضه لضوء القمر وأبعده عن ضوء الشمس طوال مدة الشهرين، هذا ما قال عنه لعبد الستار وهُما فى القطار قبْل أن يصل إلى محطة الأقصر إنها تُوقِف الرصد عن الحركة وعن التنفس.

انتفضَ الرصد الثعباني بشدة عندما ابتلع الخليط، أحدث انتفاضةً شديدة ورجّةً مخيفة فى جدران البيت، زاد اتساع فمِه فألقمه نُتفًا مِن الطقش المغربي وقطرةً مِن الزئبق المتبقي، فمال البيتُ قليلا ناحيةَ اليسار، ثم أغلق فمَه وهو يتلوَّى متألما، لدهشتهم جميعا فَتَح فمَه مرة أخرى، ورأوا جميعا ذلك المنظرَ الرهيب، تشقق لسانه وكاد أن يقطعه بنابيه الطويلين، لولا أن ابتلعه وأخذ يتضاءل شيئا فشيئا، وهُم يقتربون مِن الحفرة. شاهَدوا بأعينهم جسدَه المنكمش وهو يثقب قاعَ الحفرة حتى احتوته تماما، فظهرت عندئذ اللقية وتبدت لعيونهم الملهوفة. اقتربوا قليلا والتفوا حول فوهة الحفرة المتسعة بحذر شديد، رأوا الذهبَ المكوم فى الصناديق الحمراء التي انتزع أغطيتَها الرصد أثناء هبوطه وارتطامه بها، وهروبِه إلى طيات الأرض السفلية. ساعتَها صرخوا جميعا، واحتضنوا الشيخَ الذي مدَّ يدَه للأمام ليمنعهم مِن الاندفاع والنزول فى الحفرة وقال بلهجة آمِرة:

– نصف كنوز الزمان لقاهر الرصد الإنسان.

وقَفَ الدكتور عبد الحكيم هاشم عند النافورة التي تتوسط ميدانَ التجارة ناحيةَ الجدارِ الخلفي لمستشفى الحُميّات يشاهِد موكبَ عودةِ المومياء الملكية "حور محب" التي وصلت إلى مطار الأقصر الدولي هذا الصباح، كان الموكب عِبارة عن عربة حربية قديمة صُنعتْ خصيصا لتلك المناسبة، تجرُّها الخيول. وُضِع فوقَها تابوتٌ خشبي مُذهَّب، تمددت فيه المومياء، فى الأمام تسير مجموعة مِن الراقصين والراقصات، على الجانبين الفِرقة الشعبية بآلاتها كالربابة والدف والطبلة. أمّا فى الخلف فتسير فى ناحية اليمين مجموعةٌ مِن الشبان يرتدون ملابس الكهنة، وأيديهم تتقاطع على صدورهم. فى اليسار تسير شابات يرتدين ملابس الوصيفات بملابسَ فرعونيةٍ، وأيديهن تتخذ شكلَ زهرةِ اللوتس المفتوحة.

فى السيارة المكشوفة التي تلي عربةَ المومياء جلس الدكتور راضي هراس مزهوا بالموكب، وعلى جانبَي الطريق وقفت الجموعُ المحتشدة تشاهِد الموكبَ التاريخي لعودة مومياء حور محب مِن أمريكا. كاميرات المصورين والصحفيين ترشق الموكبَ مِن كل الاتجاهات، كذلك كاميرات القنوات الفضائية العربية والعالمية ترصد الموكبَ المتجه إلى متحف الأقصر، تتصدر البوسترات ذات الحجم العملاق العمارات المؤدية إليه.

أعفى الدكتور عبد الحكيم هاشم لحيتَه، إذا رأيتَه وأنت تقف هناك مثل بقية شعب الأقصر الذى زحف إلى هناك بعد الفجر فلن تعرفه، كان قد اختفى تماما، فلم يذهب إلى كلية الآداب بقنا أو

حتى المعهد الإقليمي العالي لترميم الآثار بالأقصر منذ شهر، عندما اتصلوا به تليفونيا لم يرد، ذهب إليه البعض مِن طلابِه للبيت فلم يفتح لهم الباب. وضَع نفسَه فى عزلة اختيارية بعد أن طَلب مِن زوجته أن تذهب لبيت أبيها عندما احتدت بينهما المناقشات.

– أنت معتكِف فى البيت منذ فترة طويلة.

– .....

ربما كان هذا الحوار أحاديَّ الجانب يتكرر بصفة يومية، تحاول أن تحثه على نسيان الأمر، ومعاودة الذهاب للكلية والمعهد، لكنه يرد بشكل روتيني يختلف تماما عما يمور بداخله. كانت تعرف تماما أنه لن يهدأ أو يعود لطبيعته إلا عندما يحل لغز البحث. رأى بعينيه الخبيئةَ فى مخازن المعبد، ورأى أصالةَ التماثيلِ وقِدَمَها، وقرأ النقوشَ الهيروغليفية.

كانت مُنى عبد القادر قد قَطعت الإجازة بدون مرتب وعادت للتدريس فى مدرسة البياضية الإعدادية المشتركة.

الحقيقة لم يكن هذا الموضوع هو الذي يكدِّره فقط، فقدْ كانت الشهور المريرة التي مر بها أحمد الضوي فى علاج أبيه مريرةً عليه هو أيضا، رافَقَه فى السفر للمستشفى الجامعي فى أسيوط، وذهَبَ معه لأكبر الأطباء فى باب اللوق.

كان أحمد الضوي يتمنى أن يرى الفرحةَ فى وجه أبيه بسبب الإعارة، لكنه وجده ممددا. أحضَرَ سيارة أجرة بيجو لنقلِه

للمستشفى الدولي، ذهبت معهما أمُّه وزوجته. هناك اكتشف أن أباه قد أُصيب بجلطةٍ فى الدماغ. قالوا له فى اليوم التالي إنه صَرَخ صرخة كبيرة تردد صداها فى أروقة المستشفى، تبِعَها انفعال شديد، ولم يتوقف إلا حينما شرح له الطبيب حالةَ أبيه:

– جلطة أصابت الدماغ، سنعطيه حُقن "البوتوكس" لإذابتها خلال ست ساعات، سيظل فى العناية المركزة لفترة مِن الوقت.

هي الحقن نفسها التي أعطاها الأطباء فى مستشفى كليفلاند فى أمريكا للدكتور زكريا رشدي لإزالة التجاعيد مِن على وجهه، عندما ذهبَ منذ عام مع الدكتور راضي هراس للمفاوضات على عودة المومياء الملكية لحور محب.

– ممكن يعيش يا دكتور؟

رفَع الطبيب حاجبيه، ثم أخفضهما مرة ثانية محاولا تهدئتَه.

– الأعمار بيد الله.

عندما سمع الدكتور عبد الحكيم هاشم هرع للمستشفى، اتصل ببعض أصدقائه الأطباء فى المستشفى الجامعي بأسيوط، قام الدكتور إبراهيم الإسناوي بالتنسيق مع أساتذة المخ والأعصاب، فنصحوه بأن ينقلوه إلى هناك بعد الساعات الست التي حدَّدَها طبيب المستشفى الدولي. رافَقَ أحمدَ فى هذا الوقت شقيقتاه زينب وعائشة اللتانِ تقتربان لأول مرة، عرَفت كل منهما أن الشقاق الذي واجهتاه لم يكن مناسبا.

عندما فَتَح الشيخ الضوي عينيه لأول مرة بعد ثلاثة أسابيعَ وجد زينب وعائشة منهمكتين فى الحديث ابتسم فى داخله، ثم أغمضهما، كأنه شَعر لتوِّه براحة عميقة، راحة كان ينتظر أن يشعر بها منذ أن كانتا صغيرتين، عندما بدأت الخلافات تدب بين البنتين. لكنه عندما أطبق جفنيه تذكَّرَ مِن خلال ذاكرته التي تتحلل محتوياتها بسبب الجلطة شيئا فشيئا، وقبْل أن تتلاشئ تماما تذكَّرَ المقولةَ التي كان يقولها قديما إن الأبناء تجمعهم الكروب والمصائب. ربما تذكرت زينب وعائشة هذه المقولة فالتصقتا أكثر.

ما حَثَّ الدكتور عبد الحكيم هاشم على الخروج فى ذلك اليوم، هو ذلك الموكب الذي عَرَف ترتيباتِه مِن التلفزيون بالأمس عندما وجد الدكتور راضي هراس يصرِّح ووجهُه يلتمع بعودة المومياء الملكية التي سُرِقت منذ سنوات طويلة، ويعلِن عن ذلك الانتصار، كان كلما يغيِّر قنواتِ التلفزيون يجد هذا التصريح. إحدى القنوات عرضتْ أهم الأخبار فى الصحف المصرية والعربية والأجنبية، يتصدر تلك الأخبارَ خبرُ عودةِ المومياء التي أخرَجَها عالم الآثار الأمريكى مايلز ماكلين مِن وراء الطواب الأكبر عام 1895 لإجراء أبحاث عليها، وعودتها لمكانها الأصلي.

ظَل أسبوعا مع صديقه أحمد الضوي فى المستشفى الجامعي بأسيوط، شَعر بنفسه بالتحسن الطفيف فى حالته، لكن بعد هذا الأسبوع أصر هو أيضا أن يعرضاه على طبيب كبير مِن كبار

الأطباء فى باب اللوق. هناك طلب منهما تغييرَ العلاج، والعودةَ به إلى الأقصر، وحدَّدَ لهما شهرا لعرضه عليه مرة أخرى. لكن لم يكمل الشيخ الضوي هذا الشهر، فقد تُوفِّي قبْل يوم الإعادة بثلاثة أيام.

شَهِد الكرنك جنازةً كبيرة لم يشهدها أحد مِن قبْل. صلّوا عليه فى مسجد أحمد النجم، سارت الجنازة مِن المسجد حتى جبانة السيد يوسف بسرعة شديدة، ساهَم فى حمل الكرب كل الناس، وكل مَن رأى الجنازة كان يقتحم الجموعَ حتى يشارك فى حمل كرب الشيخ الصالح.

لم يُقِم عبد الحكيم هاشم مع أحمد الضوي فى بيته لمواساته فى فقدان أبيه فقط، ولكن لمواساته أيضا لفقدانه فرصةَ السفرِ إلى القاهرة لإجراء المقابلة والفحص الطبي والذي كان موعده يوم أن كان أبوه فى المستشفى الجامعي بأسيوط. كان يستشعر المرارةَ التي كان أحمد يتذوقها، كانت ظاهرةً على وجهه الحزين مِن فقدان أبيه، بل كان يستشعر اليأسَ الذي أصابه مِن فقدانه للإعارة أيضا فى الشهر نفسه، حتى وإنْ أخفى هذا اليأسَ خلف جدار اليأس الأكبر لموت أبيه. قال له أحمد الضوى بعد انتهاء أيام العزاء وقد خرجت منه ابتسامة مريرة نبتت فى بركة الضيق والهَّم:

– القليل من الأقدار تجهض الكثير من الأحلام.

حتى بعد دخول المومياء الملكية متحف الأقصر، وتلاشي الجموعِ مِن الميدان ومِن الشارع المؤدِّي للمتحف، وقفَ الدكتور هاشم، لم تتحرك قدماه مدةَ نصفِ ساعة، وإنما ظل هكذا يحاول استيعابَ المشهد كله. بعد فترة الوقوف الحتمي، تبعتها حركةٌ جارفة فعَلها بنفسه وبإرادة قوية وبتفكير عميق، هو الذي حرَّكَ قدميه الخاملتين، أذاب الأسى وخيبةَ الأمل اللذيْن سكنا وتراكما فى عقله منذ أن استلم بريدَه الإلكتروني، أو بمعنى آخر رسالة الدكتور أوكونور. تلك الفترة الزمنية التي انقطع فيها عن التدريس، وقيامه بتمزيق كتاب تاريخ مصر القديمة الذي قرره على قسم الآثار بكلية الآداب والمعهد الإقليمي العالي لترميم الآثار. قادته قدماه إلى ذلك الموكب الغامض الذي تَقَدَّمَه الدكتور راضي هراس، وهو يعلَم تماما أن تلك المومياء لم تكن مومياء ملكية لحور محب، وإنما هي مومياء لشخص مِن عامة الشعب تعود للأسرة العشرين!

33

خرجتْ باقةٌ لولبية مِن الشعاع الملون مِن أرضية معبد الأقصر، تقتحم الغلافَ الجوي وتتعانق فى السماء بألوانها المختلفة. تدور الكاميرا العالية جدا فتصوِّر – وهي ترتفع– بهو الأعمدة المواجِه لنهر النيل مرورا بالمقصورة الرئيسية، فالتماثيل العملاقة التي

تتصدر الفناءَ الرئيسي للمعبد، ثم تسقط بميل وبسرعة شديدة، تصاحِبها الموسيقى الهادرة المألوفة للبرنامج على وجه المذيع اللامع فريد الشيوي الذي تنطلق مِن وجهه ابتسامةٌ ممزوجة بمساحيق التجميل فيقول:

– أعزائي المشاهدين، أهلا بكم فى حلقة جديدة من برنامجكم اليومى "قضايا راهنة". حلقتنا اليوم مِن أرض الأجداد، مِن أرض التاريخ والحضارة. نحييكم مِن محافظة الأقصر التي بها ثلث آثار العالم، نقدّم لكم برنامجنا مِن معبد الأقصر.

أثناءَ التقديم تتجول الكاميرا فتلتقط مسجد "أبو الحجاج" الذي يحتضنه المعبد، والساحة الموجودة أمامه، وشارع المحطة، ومسجد أحمد النجم، تدور للخلف فتلتقط المراكبَ السياحية الراسية على الشاطئ الشرقي للنيل.

– فاصِل قصير ونعود إليكم.

عندما خرجت الكاميرا لتسترخي فى الفاصل، عَرَض المُخرِج فيلما تسجيليا قصيرا عن آثار الأقصر، فى الوقت نفسه استقبَل الدكتور زكريا رشدي وجرجس أيوب وسالم الطواب وقاسم حجازي الذين جلسوا بعد أن وضع المساعدون الميكروفونات الدقيقة على ملابسهم.

عادت الكاميرات مرةً أخرى للهواء فقال المذيع:

– نحييكم مرة أخرى مِن الأقصر أرضِ الحضارة والتاريخ. يسعدني أعزائي المشاهِدين أن أرحب بالدكتور زكريا رشدي أمين

الحزب الديمقراطي الشعبي بالأقصر، والأستاذ جرجس أيوب رجل الأعمال المعروف، والسيد سالم الطواب رجل الأعمال المعروف، ومعنا أيضا الأستاذ قاسم حجازي عضو مجلس الشعب. أهلا بكم فى مدينتكم.

هز كل منهم رأسَه مبتسما.

استطرد المذيع فريد الشيوي مبتسِما وهو ينظر حوله قائلا:

– عندما أتيتُ هذه المرة وجدت الأقصرَ مختلفة جدا عن ذى قبْل. الشوارع أصبحت أكثر اتساعا. وجدت المدينةَ نظيفة، انبهرتُ لمشروع طريق الكباش الذي جئنا خصيصا مِن أجله. أوجِّه سؤالي للدكتور زكريا رشدي أمين الحزب، ما أهمية طريق الكباش؟

– قديما، أيام الفراعنة، كان هناك طريق يربط ما بين معبدَي الكرنك والأقصر، يصطف على جانبيه كباش. رُدِم هذا الطريق مع مرور الزمن، أو رُدِم عنوةً فى أحد العصور، ففكرّنا بأن نعيد افتتاحَ هذا الطريق حتى نعيد للأقصر منظرها القديم، وحتى تكون عبارة عن متحف مفتوح.

– جميل، إذاً سوف تكون الأقصر متحفا رائعا، وهذا يجعلني أوجِّه سؤالي لعضو مجلس الشعب الأستاذ قاسم حجازي. سيادة النائب هل ترى أن هذا الطريق سيغيِّر مِن خريطة السياحة فى مصر بشكل عام، والأقصر بشكل خاص؟

– بالتأكيد، فقدْ عرضتْ سفاراتنا فى الخارج فيلما تسجيليا عن طريق الكباش فى تلفزيونات هذه الدول، ويذاع أيضا على الفضائية المصرية كل يوم لجذب السياحة.

– جرجس أيوب رجل الأعمال، لديه مشاريع سياحية فى الأقصر؟

توقف المذيع قليلا، وضَع يدَه على أُذنه فقال:

– معنا اتصال تليفوني... أستاذ عبد الرؤوف المطعني مِن الأقصر. أهلا أستاذ عبد الرؤوف تفضَّل بمداخلتك.

– احنا سعداء بك يا أستاذ فريد فى الأقصر (الكاميرا تلتقط فريد وهو يبتسم) وشرَّفتنا، ولي رأى فى موضوع طريق الكباش.

ابتسم المذيع فريد الشيوي وقال:

– طبعا، يسعدنا أن نعرف آراء أهالي الأقصر فى طريق الكباش. تفضَّل. هذا شئ جميل.

– حضرتك قلت إن الأقصر بها ثلث آثار العالم، هل تظن أن هذه النسبة صحيحة هذه الأيام؟ طريق الكباش مشروع كبير وتموله هيئة اليونسكو كما سمعنا، هدموا بيوت الناس مِن أجله، لكن للأسف يقطعون الكهرباء كل كام يوم، ويستخرجون منه آثار ويهرَّبوها.

– ارتسمت الجدية على وجه فريد الشيوي وهو يطالع بعض الأوراق فلم ينتبه للجزءَ الأول مِن الكلام، ثم قال منفعلا:

– مَن هُم يا أستاذ عبد الرؤوف؟ مَن هُم؟

– ضيوف البرنامج، البهوات الجالسين أمامك!

التقطت الكاميرا وجوهَ الدكتور زكريا رشدي وجرجس أيوب وسالم الطواب وقاسم حجازي وهُم غارقون فى بِركة مملوءة بالطحالب والفطريات، شعروا بأن مياه النيل الممزوجة بالبُقَع الزيتية ومياه المجاري والقمامة قد وصلت لأقدامهم، ارتفعت حتى رقابهم، فأصبحوا على وشك الغرق فيها. لكن فجأة اهتزت الكاميرا الغارقة أيضا فى اللجة معهم، سُلِّطتْ على وجه المذيع فريد الشيوي الذي كان يتصبب عرقا، والذي كان على وشك أن يُخرِج ابتسامةً جديدة لكن الأضواء المتوهجة أحرقتها، فقال وهو يناضل مِن أجل استنبات ابتسامةٍ قديمة جدا مِن أعماقه عبثا:

– يبدو أن الأستاذ عبد الرؤوف يمزح معنا.

– ومقام "أبو الحجاج" اللي انتو قاعدين فى حضرته كلامي صحيح.

اندهش المذيع مِن وجود المتحدِّث على الخط، راح ينظر هنا وهناك حيرةً وحرجا. لكنه استطاع بحنكته أن ينهي الفقرةَ بارتباكٍ شديد، فأخطأ فى نسب الألقاب والأسماء قائلا:

– أشكر ضيوف البرنامج الأستاذ زكريا أيوب والدكتور جرجس رشدي وسالم حجازى رجل الأعمال المعروف، والحاج قاسم الطواب. أعزائي المشاهِدين نحن فى انتظار السيد المحافِظ الذي وصَل بالطائرة منذ قليل إلى مطار الأقصر.

خرجت الكاميرا مِن الكادر تجر أذيال الخيبة، صحِبَتها موسيقى ذات ذبذبات متقطعة ومنهكة، أذاع المُخرِج أغنية "الاقصر بلدنا بلد سوّاح". عندئذ هرع المذيع فريد الشيوي- ينفض عن نفسه الضيقَ والخجل ويمسح بُقَع الزيت والفطريات التي لحقت به مِن ضيوف البرنامج- نحو المخرج الذى جاء مهرولِا نحو الاستوديو المعَدّ فى فناء المعبد فقال له:

- إيه يا نبيل انت نسيت شغلك ولا إيه؟ إزاي تحوِّل لنا مكالمة زي كدا ع الهوا؟

لم يتمالك مُخرِج البرنامج نفسَه ضيقا، فاقتربَ منه الدكتور زكريا وجرجس أيوب وسالم الطواب وقاسم حجازي يحاولون تعنيفَه، أو الفتك به، فاختلطت اتهاماتهم له بالخطأ المهني الجسيم بتبريراته.

عمَّ اللوكيشن الهرجُ والمرج، فصاح المُخرِج وسط صيحاتهم قائلا:

- يا جماعة استنوا عليَّ، ادّوني فرصة اتكلم، إنتو عارفين إيه اللي حصل، دي مكالمة واحدة اللي انا حولتها. دانا حجبت عنكم ألف مكالمة، كلهم عاوزين يشتموكوا ع الهوا.

أطرق كل منهم رأسه، خرجوا مِن المعبد تتقاطر مِن أجسادهم قطراتٌ زيتية وفطريات وطحالب مِن البِركة التي نفرت مِن المعبد، وسط بهو الأعمدة التي وقفت شامخة. عرَف المحافِظ عندما وصل بما حدث. اتفق مع المذيع والمُخرِج بألا يتطرق الحديث لطريق الكباش. تحدَّثَ المحافِظ عن المشروعات التي تعتزم المحافظة تنفيذَها فى القريب العاجل، كان المُخرِج قد اتفق

معهما على أن المداخلاتِ سوف يقوم بها العمال الذين يعملون بالبرنامج.

اختتم المذيعُ الحلقةَ بعد أن شكر المحافِظ. انطفأت الأنوار فى المعبد فأصبح كالقبر المفتوح، خرَج فريق البرنامج متسللا.

فى اليوم التالي امتلأ طريق الكباش بنظرات المارة التي راحت تحفر فيه بحثا عن آثار متبقية!

34

احتدمَ النقاشُ حول حفرة اللقية فى بيت خليفة الطواب بينهم وبين الشيخ مرزوق، التمع الطمع فى أعينهم، كادوا أن يشتبكوا معا، حتى صاحت سكينة مرعي فى الشيخ مرزوق والشررُ يتطاير مِن عينيها:

– تاخد النص واحنا ناخد كلنا النص؟

نَظَر الشيخ ناحيتَها بحدة قائلا:

– أنا قاهر الرصد، وكل رصد يعرف كلامي وينام بأمري.

تَقدَّم جمال راجح وقال بصوت مخنوق:

– إنت طماع، ولو سمع الرصد كلامك يمكن يبلعك.

أجابه الشيخ بهدوء:

– الرصد يطيعني أكثر مما يطيع الولدُ البارُ أبويه.

وضَعَ فتحي يدَه على كتف الشيخ قائلا:

– انت ح تاخد الربع.

اقتربوا جميعا والتفوا حوله، فى دائرة أخرى لكنها بشرية. عَرَف أنهم ينوون الفتكَ به، فتلك الأمور تحدث بسببها مصائبُ كمَا جرَّبَ مِن قبل، لذا التزم بالهدوء وابتلعَ ريقَه ليطفئ ضيقَه الذي بدأ يتصاعَد بداخله كالرصد، رجع للوراء، هز رأسَه موافِقا على مضض، ثم أخذ يتمتم بشفتيه ووقف ونظراته تقطر ضيقا.

نزل عبد الستار وخلفه فتحي، بينما وقف جمال على السلم الخشبي، بانت لهم صناديقُ الذهب. كل منهم تراوده صور المستقبل الجديد الذي هلَّ عليهم هلاله، ما عدا عبد الستار الذي هاجمته صورُ الماضي والأيام التي قضاها فى فقر شديد، لاحت له صور أُمِّه عندما داهمها المرض فامتزجت بالطين اللزج، يوم أن ذهبَ لأبيه فوجده غائبا عن الوعي يتمايل يمينا ويسارا فى حضرة ليلة الجمعة مِن شدة الوجد.

حينما نزلا، وقفا أسفل الحفرة، تبدأ أيضا عندها غرفةٌ كبيرة أولها سلَّم حجري يَظهر ما بها مِن الأعلى. رأتْ أعينهما شيئا عجيبا، رسوما فرعونية ملونة على الجدران وعلى سقف الغرفة. أمَّا فى ركنها الغربي فكانت هناك تماثيلُ بأحجام مختلفة. ظَلا يحدِّقان فى اللقية طويلا، يلمسان الجدرانَ والصناديق والتماثيل حتى بدأ الآخرون ينادون عليهما.

خَرج فتحي حاملا صندوقين، خلفَه عبد الستار، ثم صعدا السلّم، بينما كانت أُمّهما وأختهما تنظران مِن أعلى فى لهفةٍ وفرح، أمّا

الشيخ فقدْ أغمض عينيه وراح يتمتم بكلمات غامضة، يقف على حافة الحفرة.

اهتزازٌ بسيط شَعر به الشيخ كما شعرت به سكينة مرعي وابنتُها، ثم ما لبث الاهتزاز أن تحول إلى رجة عنيفة هزت غرفة اللقية ومِن فوقها الحفرة بشدة، وقعت الصناديق التي كان يحملها عبد الستار وفتحي فى الحفرة. مازال جمال، الذي نزل دون أن ينتبه إليه أحد، يفتِّش فى الغرفة وعندما شَعر بالرجة تكاد تعرقله فوق سلَّم الغرفة الحجري، جاهَدَ فى النهوض والإسراع خارجها ليتسلق السلَّم الخشبي. كان عبد الستار وفتحي قد استطاعا أن يخرجا مِن الحفرة سريعا. هنا خرج الرصد مرة أخرى يفح سُمّا، وصَل جمال إلى منتصف الحفرة بصعوبة، والهلعُ ينتابه، لكن الرصد الثعباني كان أسرعَ منه فصعد بجذعه المشوَّه، وصراخ ثريا وأمِّها يعلو ويتردد صداه فى غرفة الكنز، حتى التقم قدميه، حاوَلَ التشبثَ بالسلَّم ومِن ثم القفزَ خارج الحفرة.

لكن الرصد، الذي لم يأكل منذ سبعة آلاف عام، بدأ في ابتلاع ساقيه، وصَل إلى خصره المنتفض والذي كان يتراقص وتنفر مِن جوانبه الدماءُ فى فم الثعبان الذي تلوَّى منتشيا، حتى انفلتتْ يدا جمال مِن قبضتها على السلّم، تحركتْ فى الهواء وصرخ محاولا التخلصَ مِن فكِّه الجائع.

حاولتْ ثريا القفزَ على الرصد كي تخلِّص زوجَها مِن فكِّه المفترس، لكن أمّها أمسكتْ بها، سَحَب عبد الستار أمَّه وشَدَّ

فتحي يدَ أختِه. أمَّا الشيخ فقدْ ارتكن إلى الجدار فى خوفٍ وتوجس.

ابتلع الرصد جمال تماما.

رأوا جميعا جسدَه وهو يمر فى أحشاء الثعبان الذي بدأ ينكمش ويتضاءل، يتراجع إلى طبقات الأرض العميقة. أسرع عبد الستار إلى الشيخ فهزَّه لعلَّه يرتّل شيئا لإنقاذ جمال، لكن الشيخ كان غارقا فى ترتيلٍ غيرِ مسموع، فَتَح عينيه فإذا بالمشهد قد تلاشى. نظروا جميعا فإذا بباب الغرفة الصخرية قد سُدَّ تماما.

ما بين نوبات الحزن والضيق، الممزوجان بالخوف وقلة الحيلة رأوا صورةَ رَجُلٍ تتراقص على الكُتَل الطينية الموجودة على جوانب الحفرة، اكتشفوا شَبَهَا بينها وبين صورة أبيهم خليفة الطواب. لو لم يتيبسْ لسانُ سكينة مرعي أو أطرافها، واحتراق محتويات ذاكرتها خلال ثلاث دقائق لأخبرتهم بأنها صورة الطواب الأكبر.

صمْتٌ شديد تبع الثورةَ الرصدية، وقعتْ ثريا على الأرض، تبكي بحرقة بجوار الحفرة وهي تهيل الترابَ القديم فوق رأسها وظهرِها، بجوار أمِّها الممددةِ بلا حراك.

اختفى الشيخ وكان اختفاؤه أمرا مريبا فقد بحَثَ فتحي عنه شهورا، بات أمره غامضا، ارتبط غيابه بغياب فتحي. عندما خطت ثريا بقدميها عائدةً مِن غيبوبتها، اكتشفتْ موتَ زوجِها فى بطن الرصد الذي عاد لمتكئِه ومستقره. استفاقت تماما عندما داهم رجالُ مباحث الأموال العامة بيتَهم بحثا عنه بعد اكتشاف قضية

الاختلاس الكبرى مِن البنك، كانوا قد فتَّشوا عنه فى بيت أبيه الذي أخذوه بدلا منه حتى يسلم نفسه.

ظَل عبد الستار الطواب يطوف بأمِّه على الأطباء، حتى تيبست أطرافُها تماما. تمددت بجوار أمال عبد السميع فى غرفة العناية المركزة التي أصيبت بجلطة عندما حاول ضباط مباحث الأموال العامة القبضَ عليها حتى يسلم جمال نفسه.

عاد عبد الستار مِن المستشفى الدولي بأُمِّه بعد أن نصحه الأطباء بعدم جدوى بقائها. ماتت سكينة مرعي وكان موتها هادئا، دَفَنها ابنُها بيديه. كان أبوه فى الجنازة كالغريب تماما. ظل عبد الستار قابعا فى البيت أسبوعين هو وأخته يبكيان حتى عاد القمر الذي هرب الليلة التي أخذ فيها الرصد جمال رهينة للأبد، فقاما معا بردم الحفرة، ثم وقفا فى صباح اليوم التالي أمام البيت تحت الشمس ينظران إلى البر الشرقي نظراتٍ تكافح أشعة الشمس وضوء القمر وحلكة الظلام والجوع والفقر.

***

بالأمس قام الدكتور عبد الحكيم هاشم بجولة لترسيم حدود الآثار فى البر الغربي، أرسلت الشمسُ أشعتَها الذهبية فتدحرجت فوق الجبل الغربي وسقطت بجواره، فاستخدمها مع عينيه وذاكرته فى ترميم المعابد الجنائزية. دخل مقابرَ وادي الملوك والملكات لفحص جدرانها وتوابيتها. ردم بعينيه كل الحُفر القديمة والحديثة.

بعد أن فرغ مِن زيارته وصَل إلى البر الشرقي. دخل معبد الأقصر، تجول فى مقاصيره وبهو أعمدته وعاين التماثيلَ العملاقة، سجلتْ ذاكرتُه النقوشَ والرسوم حتى ذرات التراب القديم.

اصطحبته الشمسُ فى زيارته لوادي الملوك ومعبد الأقصر حتى شعرت فى نهاية اليوم بالإنهاك فعادت لتستلقي خلْف الجبل الغربي.

نهار جديد وضع له تقويما جديدا.

وصَل إلى قُبالة معبد الكرنك، الليل يتسلل بهدوء حاملا كُتَلَ الظلامِ تحت إبطيه، يلامس البواباتِ العملاقة، ويحشو ظلامه قدس الأقداس، يغتسل مِن البحيرة المقدسة فيتطهر، فجأة انبثقت الأضواءُ مِن الكشافات الهائلة الراقدة أسفلَ التماثيل العملاقة وبهو الأعمدة فابتلعت سُحُبَ الظلام المتوترة، فى الوقت نفسه مزقت الموسيقى التصويرية المستبدة رداءَ الصمت، اقشعرت الأعمدةُ فوقفت خاشعةً تبتهل لصوت الإله آمون الذي يدوي فى كل الأنحاء.

ينحني صوت الناي قليلا ليتراقص معه صوت القانون فيعلو صوت الإله آمون مندمجا ومتوحدا مع صوت عبد الله غيث:

– أيها الحراس، لقد أنعمت عليكم بهذا التراث الإنسانى والحضارى، ورضيت لكم سيرة طيبة يمجدها الغرباء أبد الآبدين. إني أرى تحركاتٍ غريبةً ومريبة يقوم بها بعض الكُهَّان لتقويض

عرشي الراسخ منذ آلاف السنين، يريدون أن يهتز الميزان فتشيع الفوضى فى جَنَبات البلاد. ها أنتم أولاء آمنتم بمعبد الكرنك لي عرشا ومتكئا، فقدِّموا لي فروضَ الطاعة والولاء، وصدُّوا عنى عبث المجرمين.

شَعر الدكتور عبد الحكيم هاشم وأحمد الضوي بقشعريرة تسري فى جسديهما وتتغير الدماء فى شرايينهما، فأغمضا أعينهما.

مازالت الموسيقى والكلمات تسير فيهما مجرى الدم.

استيقظ الدكتور عبد الحكيم هاشم وأحمد الضوي فَزِعيْن ما بين خيطَي الفَجر الرفيعين، وهُما يكشفان عنهما رداءَ النوم، مازالت نتف صوتية وضوئية تترائى لهما كالبرق وتطن فى الآذان كصرير الريح. نسماتُ الفَجرِ تلفح أعينهما، يجاهدان لتثبيت صورةٍ مهتزة تترائى أمامهما. رجال أشداء مِن كل أجناس البشرية، يحملون على أكتافهم العريضة بهوَ أعمدةِ معبد الكرنك، ويخرجون بها مِن خلال البوابة العملاقة، يتقدمهم الطوَّاب الأكبر.

عبد السلام إبراهيم

خريج كلية الآداب- اللغة الانجليزية وآدابها

التأليف:

1- قادش الحرب والسلام (رواية) - دار الهلال.
2- كوميديا الموتى (قصص) - الهيئة العامة لقصور الثقافة.
3- مسرحية مستشفى النظام للأمراض العقلية.
4- مسافة قصيرة جدا للغرق (قصص) - تحت الطبع.

الترجمة:

5- اللعب مع النمر ومسرحيات أخرى دوريس ليسنج، جائزة نوبل فى الآداب 2007 - الهيئة العامة للكتاب.
6- عشر مسرحيات مفقودة يوجين أونيل- المركز القومى للترجمة.
7- ثلاث مسرحيات كليفورد أوديتس - المركز القومى للترجمة.
8- ثلاث مسرحيات د. هـ. لورانس- المركز القومى للترجمة.
9- رواية "قوس" باتريك وايت الحاصل على جائزة نوبل فى الآداب عام 1973 - الهيئة العامة للكتاب.

10- الراكبون إلى البحر ومسرحيات أخرى - الهيئة العامة لقصور الثقافة.

11- مختارات قصصية لأدباء جائزة نوبل - دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع- دبى.

12- مختارات قصصية دوريس ليسنج - مجلة الثقافة الجديدة.

13- رواية أشياء تتداعى تشنوا أتشيبى- الهيئة العامة لقصور الثقافة.

14- أضواء على المسرح البريطانى- جامعة القاهرة (تحت الطبع)

البريد الالكترونى للمؤلف:
abdelsalam-ibrahim@hotmail.com